روايات الهلال

أمسيات قرب قرية ديكانكا

الجزء الأول

نيقولاى جوجول

روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٦٤ - ابريل ١٩٧٩ - جمادى الاولى ١٣٩٩
No. 364 — April 1979

رئيسة مجلس الإدارة : **أمينة السعيد**

نائب رئيس مجلس الإدارة : **صبرى أبو المجد**

رئيس التحرير : **الدكتور حسين مؤنس**

سكرتير التحرير : **موسى عبيد**

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى - ١٢ عددا - فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى . وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

اسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية للاعداد العادية من «روايات الهلال» الشهرية اعتبارا من شهر يناير عام ١٩٧٩ :

بسعر ٢٠ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا ٣٠٠ ق . س « ثلاثمائة قرشا سوريا »
لبنان ٢٥٠ ق.ل «مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الاردن ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا اردنيا »
الكويت ٣٥٠ فلسا «ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلسا عراقيا »
السعودية ٤٫٥ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »
الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب القاهرة .
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشة الفنانة
تماضر محمد تركى

أمسيات قرب قرية ديكانكا

الجزء الأول

بقلم

نيقولاى جوجول

ترجمة

إبراهيم زكى خورشيد

●

دار الهلال

الجـــزء الأولـــ

مقدمة

« امسيات قرب قرية ديكانكا : اليس هذا بعجيب ؟ وما عسى ان تكون هـذه الأمسيات ؟ وكيف يقحمها على العالم رجل يربى النحل ! اللهم ارحمنا ! كأنما لم ينتف من ريش الأوز ما يفى بالحاجة الى الأقلام ، ولم يصنع من الخرق مايكفى من الورق ، ولم تقنع بقع المداد بما لوثت من أصابع الناس على اختلاف طبقاتهم ! ثم تأبى النزوة بمربى نحل الا ان يحذو حذوهم ! اى ، ان ما يطبع فى ايامنا هذه لاكثر مما يسد حاجة المرء الى ورق اللف ! »

لقد دار فى خلدى منذ شهر ان الناس سوف يتناولوننى بمثل هذا الحديث ، فان قرويا على شاكلتى اذا اخرج انفه من مكمنه ودسه فى هذا العالم الكبير كان مثله كمثلك انت سواء بسواء اذا قصدت دارا لسيد عظيم من الوجهاء ، يهرع اليك الجميع ويلتفون حولك حتى تحس بأنك كالابله المأفون . ولو اقتصر الأمر على خدم الطبقات العليا لهان عليك الامر كثيرا ، ولكن كل دعى حقير تعس يتسكع فى الفناء الخلفى خليق بأن يضـايقك ايضـا ، ويهب هؤلاء فيدقون الأرض بأقدامهم ويصيحون بك : « الى أين ؟ وماذا تريد ؟ أخرج أيها الفلاح » ، وانى لمستطيع أن اقول لكم .. ولـكن ما جدوى الحديث ؟ لخير لى ان اذهب مرتين فى السنة الى ميرجورود حيث لم ير وجهى مساعد قاضى الناحيـة ولا القس الموقر فى السنوات

الخمس الماضية ، من ان أختلف الى مجالس علية القوم . على انك اذا اختلفت الى مجالسهم حق عليك ان تواجه النتائج مهما يكن من أمرها .

ونحن فى ديارنا أيها القراء الأعزاء ــ وانا لا اقصد الاساءة «فلا يضيرنكم ان يوجه مربى نحل مثلى الخطاب اليكم كما لو كنتم بعض اصدقائه أو خلانه القدماء » اجل ، لقد جرت العادة فى ديارنا ان الفلاحين فى الدساكر يدأبون دائما على التسلق الى مصاطب المواقد يهجعون اليها طول الشتاء متى فرغوا من عملهم فى الحقول ، ونضع نحن مربى النحل نحلنا فى قبو مظلم ، فاذا حل ذلك الوقت من السنة الذى تختفى فيه الكراكى من السماء وثمار الكمثرى من الشجر ، رأيت بلا ريب نورا يتلألأ فى مكان من طرف الدسكرة عندمايأتى المساء ، وسمعت على البعد ضحكا وغناء وعزفا على القيثارة الروسية « البلاليكا » ، وقد تسمعأحيانا صوت كمان ولغط وضوضاء .

تلك هى الحفلات التى نقيمها فى المساء ! وهى أشبه ما تكون بحفلة الرقص ، وان كنت لا انكر أنها لا تشبهها تماما ؛ ذلك انك لاتذهب الى حفلة راقصة الا لتقفز متبخترا هنا وهناك ، أوتتثاءب ويدك على فمك . أما حفلاتنا فان الفتيات يجتمعن فيها معا فى كوخ واحد لا ليرقصن بل ليشتغلن بمغازلهن ومنادفهن ، ويحق لك ان تقول انهن يقمن بعملهن أولا ، فالمغازل تطن والأغانى تنساب متصلة متداركة ، ولا ترفع احداهن راسها عن شغلها ، حتى اذا اقتحم الفتيان الكوخ ومعهم عازف الكمان ساد الهرج والمرج ، وبدا اللهو والمرح ، واندفع القوم الى الرقص، ولن استطيع انأحدثكم ما يأخذون به انفسهم من العاب .

ولكن امتع ما يفعلون جميعا هو ان يجتمعوا ويبدءوا فى حل الالغاز،

او يكتفوا بتبادل الحديث ، يا الهى ! اى قصص كانوا يقصون ! واى نوادر من الايام الخالية كانوا ينبشون ! ويا للأمور المخيفة التى كانوا يصفون ! على ان ما كان يروى من القصص فى كوخ بانكو مربى النحل الأحمر الشعر لم يكن له مثيل فى اى مكان آخر. اما السبب الذى جعل القرويين يلقبوننى بذى الشعر الأحمر فانى عاجز حقا عن تبيانه . وانى لأعتقد ان شعرى قد اصبح الآن اميل الى المشيب منه الى الاحمرار، ولايخفى عليكم ان المرء فى ناحيتنا اذا لقب مرة بلقب لصق به طول عمره . ويجتمع خيار القوم ذات مساء فى كوخ مربى النحل ويجلسون الى المائدة ، وما عليك بعدئذ الا أن تنصت اليهم ! وارجو أن تعلم ان هؤلاء الضيوف ليسوا بحال من الطبقة الوضيعة ، او من الفلاحين ، بل ان زيارتهم لخليقة بأن يشرف بها رجل اعلى مكانة من مربى النحل ، فهل تعرف مثلا فوما جريجوريفتش قندلفت كنيسة ديكانكا ؟ اى راس يحمله هذا الرجل بين كتفيه ! واى قصص ينطلق بها لسانه ! ولتجدن فى هذا الكتاب قصتين من قصصه . ولا يرتدى فوما ابدا سترة من غزل البيوت كتلك التى نعهدها فى غيره ممن يلون مثل منصبه فى القرى ، وحاشاه ان يفعل ذلك ! بل انه ليلقاك دائما حتى فى ايام العمل ، مرتديا عباءة فى لون عصيدة البطاطس الباردة مصنوعة من نسيج ناعم ، اشترى الياردة منه بستة روبلات من بلتاوة . اما حذاؤه الطويل الرقبة فلم يقل احد فى الدسكرة قط ان رائحة القطران تنبعث منه ، وما من احد يجهل انه يجلوه باحسن انواع الشحم ، وانا اعلم ان كثيرا من الفلاحين يسرهم ان يضعوا بعض هذا الشحم فى ثريدهم ، ولا يحق لانسان ان يزعم ابدا انه يمسح انفه فى طرف قميص عباءته ، كما يفعل الكثيرون

من ارباب مهنته ، حاشاه ! بل انه ليخرج من صدره منديلا أبيض نظيفا طوى فى عناية وطرزت اهدابه بالقطن الأحمر ، ثم يستعمله على خير وجه يســتعمل فيه ، ويعود فيطويه كشأنه اثنتى عشرة طية ، ثم يرده الى مكانه فى صدره .

وثمة رجل آخر : شاب مهذب ظريف حتى لتحسبه فى يسر مساعدا لقاضى او ملاحظا لأرض ؛ فاذا قص عليك قصة رفع اصبعه،واخذيمعن النظر فى انملته ، وهو يعمد الى التلاعب بالألفاظ وتنميق الكلمات مما لا تجد له مثيلا الا فى كتاب ، وتروح تنصت اليه ثم تنصت حتى تتملكك الحيرة ويرتبك عقلك ، فلا تستطيع مهما جهدت أن تعرف لما يقول رأســا من ذنب . ترى من اين التقط كل هذه الكلمات ؟ وقد سخر به فوما جريجوريفتش يوما لهذا السبب ، وقص عليه قصــة فتى كان يتلقى دروســا فى اللاتينيــة على شماس ثم عاد الى ابيــه عالما باللغة اللاتينية حتى لقــد نسى لغة بلادنا ، وأخذ يلحق بآخر كل كلمة مقطعا لاتينيا ، فالمجرفة عنده مجرفوس والسمك سمكوس . واتفق يوما ان رأى وهو فى صــحبة ابيه فى الحقول مجرفة فسأله « ماذا تسمى هذه يا ابى ؟ » ، ولم ينظــر الفتى الى موضــع قدمه فوطىء اسنان المجرفة فارتفع مقبضها قبل أن يستطع أبوه الاجابة ، واصابته فى راسه ، فصاح وهويضع يده فوق جبهته ويقفز نصف ياردة فىالهواء : « الا لعنة الله على هذه المجرفة ، وليطوح الشيطان بأبيها من فوق الجسر ! » وهكذا تذكر اسمها أخيرا .

ولم ترق هذه القصة فىعين قصاصنا المدع . فنهض من مقعده دون ان ينبس ببنت شفة ، ووقف فى وسط الفرفة وقد انفرجت ساقاه ،ومال براسه قليلا الى الامام ،ودس يده فى الجيب الخلفى

لسترته التي يحاكي لونها لون البازلاء الخضراء ، واخرج صندوق سعوطه المستدير المطلى باللك ، ونقر على وجه القائد المنقوش على الصندوق ، ثم أصاب من السعوط المخلوط بمسحوق خشب الدردار واوراق نبات الكاشم قدرا مليحا ، وثنى مرفقه ورفع يده الى أنفه ونشقه دفعة واحدة دون أن يستعين بابهامه ، أجل ، فعل ذلك كله دون أن ينبس ببنت شفة، ولم يتمتم بشيء الا عندما أخرج من جيب آخر من جيوب سترته منديلا ازرق من القطن منقوشا بمربعات بل انى لاظن ان هذا الشيء كان يدور حول الحكمة التى تنهى المرء عن أن يلقى بدوره أمام الخنازير ، وقلت أحدث نفسي: «ان خلافا سوف ينشب » ، فقد بدا لى من أصابع فوما جريجوريفتش انه يهم بابداء سخطه ، ومن حسن التوفيق أن زوجتى العجوز قد تخيرت تلك اللحظة بالذات لوضع الكعك الساخن والزبد على المائدة . واقبلنا جميعا نصيب منهما ما نصيب ، ومد فوما جريجوريفتش يده ليتناول كعكة ساخنة ، فصرفه ذلك عن أن يومىء بها ايماءة نابية ، وراح الجميع كشأنهم يتحدثون بمهارة زوجتى فى الطهو .

ولدينا قصاص آخر ، ويحسن بنا الا نفكر فيه ليلا ، فان فى جعبته من القصص المخيفة ما يقف له شعر راسك ، وقد اهملت قصصه عمدا ، ذلك أن خيار الناس قد يتملكهم الفزع حتى ليخافون من مربى النحل خوفهم من الشيطان نفسه ، ولو مد الله فى عمرى الى ان أدرك العام الجديد واخرج مجدا آخر ، فمن يدرى لعلى أوقع الرعب فى قلوب قرائى الكرام بشيء من قصص الأشباح والعجائب التى شاهدها الناس فى الأيام الخالية فى هذا البلد المسيحى ، ولعلكم تجدون فيها بعض قصص يرويها مربى النحل نفسه لاحفاده ، وانا زعيم بأن لدى منها ما يكفى ملء عشرة

مجلدات لو شاء الناس أن يقرءوا ويعـــوا ، ولم أصب أنا بآفة الكسل ، فتعوقني عن التفتيش عن هذه القصص فى زوايا مخيلتى.

ولكن دعنا من هذا ! فقد نسيت ما هو أهم : ذلك أننى أرجوكم أيها السادة أن تسلكوا الطريق العام رأسا الى ديكانكا عندما تأتون لزيارتى ، وقد وضعت الاسم على صفحة الغلاف عن قصد حتى يكون وصولـكم الى دسكرتنا أسهل وأيسر ، ولا شك عندى فى انكم سمعتم الكثير عن ديكانكا ، وليس منزل مربى النحل فيها سبة فى جبين منازلها . اما الحديقة فأنا زعيم بأنكم لا تجدون مثلها فى مدينتكم سانت بطرسبرغ ، وما عليـكم عنـدما تبلغون ديكانكا الا أن تسألوا أى غلام من الغلمان الصـغار الذين يرتدون قميصا قـذرا ويرعون الأوز : « أين يقيم بانكو الأحمر الشعر مربى النحل ؟ » فيجيبكم بقوله : « هناك » ، وهو يشير باصبعه ، واذا شئتم قادكم الى الدسكرة ، ويجدر بى ان أسألـكم شيئا واحدا هو الا تسيروا مختالين واضعين أيديكم خلف ظهوركم ، فان طرق قريتنا ليست فى نعومة طرق المركبات المؤدية الى قصـــوركم ، فقد كان فوما جريجوريفتش يسوق عربته قادما من ديكانكا فى العام الأسبق فسقط فى حفرة هو وفخه الجديد وفرســه الاشقر وكل ما كان فى العربة ، بالرغم من انه كان يسوق بنفسه ويلبس نظارة أيضا .

على اننا سنقدم اليكم حين تصلون أطيب ماذقتم فى حيـاتكم من البطيخ ؛ وصدقونى انكم لن تجدوا فى أية دسكرة أخرى شهدا أشهى من شهدنا ؛ فاذا جئتم بقرص من أقراصه انتشر فى الغرفة عبير لا يخطر ببال ، وبدا لكم صافيا صفاء الدمعة أو البلورة الثمينة التى ترونها فى الأقراط . وما بالـكم بالفطائر التى ستتحفكم بهـــا

زوجتى العجوز ! يا لها من فطائر كالسكر أو هى السكر بعينه ! فما أن تمس شفاهكم حتى يذوب الزبد فيها أو يكاد . تالله ان هؤلاء النسوة لقادرات على ان يأتين بكل شيء ! وقد ذقتم فى حياتكم خمر الكمثرى المطيبة بالخوخ البرى او احتسيتم فودكا الزبيب الممزوجة بالبرقوق ، او البليلة باللبن ؟ يا الهى ! ما اكثر ما عندنا من لذائذ واطايب ! وما أن تشرعون فى أكلها حتى تعلموا انها من خصائص المآدب ولا شك ، ولقد حدث فى العام الماضى .. ولكن ما بالى انساق فى الحديث هذا الانسياق ؟ حسبكم ان تأتوا لزيارتنا بأسرع ما يمكنكم ، فنقدم لكم من الطيبات ما يجعل السنتكم تتحدث بها مع كل من تلقون من الناس .

بانكو الاحمر الشعر
مربى النحل

سوق سورتشنستي

سوق سوروتشنستى

– ١ –

لقد سئمت الكوخ
فآه لو اخـذتمونى من هنـــا
الى حيث الضـجيج والعجيج
والفتيـــات يرقصن فرحات
والفتيـان يمرحون ويلهون !

(من قصة شعرية قديمة)

لشد ما يبهج القلب ويروع النفس ان تشـــهد يوما من أيام الصيف فى أوكرانيا ! وما أمتع الدفء تحس به عندما يتألق ضـوء الظهيرة فى غمرة السكون والحرارة القائظة ، ويبدو اديم السماء فى زرقته وامتداده الفسيح وقد استدار كالقبة البديعة الحسن وسنان غارقا فى نعيم الـكسل والاسترخاء ، يعانق الأرض الجميلة ، ويضمها الى صدره الأثيرى ضما قويا ، لا تغشاه سحابة ، ولا تسمع من تحته نامة ولا صوت ، ويشمل السكون كل شىء ويـكاد يسلبه الحياة الا من قنبرة تغرد فى طبقات الجو العليا ، فتنساب انغامهـا الفضية على الأرض المفتونة الوالهة ، وينبعث فى السهب من حين الى حين صياح طائر النمرس أو صفير السمان ،وتقف أشجار البلوط الشامخة مسترخية خلية البال ، كأنها نفر من الضاربين فى الأرض يهيمون بلا غاية ولا قصد ، وتلوح من أشعة الشمس بوارق تخطف البصر فتضىء حشدا بهيجا من أوراق الشجر ، وتلقى على غيره من الأوراق ظلا أسود كالليل يخـالطه اذا هبت الريح وشى من ذهب ، وتحوم هوام الجـو كومضات الزمرد والياقوت اصفره واحمره حول حدائق المطابخ البهيجة التى يتسنمها عبـاد الشمس المهيب الجليل ،

وتصطف اكداس الدريس الشهب وحزم القمح الذهبية كالخيام فى السهل منتشرة فى ارجائه الفسيحة ، وتنوء الأوراق العريضة لشجر الكرز والبرقوق والتفاح والكمثرى بما تحمل من فاكهة ، وتنبسط السماء كالمرآة الصافية ويرفل النهر فى بساط سندسى مزهوا فخورا !

الا ما امتع الصيف فى اوكرانيا وافتنه وأبعثه على الراحة والاسترخاء !

وقد تمثل هذا النعيم والبهاء كله فى يوم حار من ايام شهر اغسطس عام الف وثمانمائة .. الف وثمانمائة .. ،جل ، كان ذلك من نحو ثلاثين عاما حين كان الطريق فيما وراء قرية سوروتشنستى بعشرة فيرستات يعج بالناس يهرولون الى السوق من المزارع ، قاصيها ودانيها ، وقد سارت العربات المتلئة بالسمك والملح منذ الصباح الباكر فى رتل لا ينتهى على طول الطريق ، وكانت جبال من القدور المحزومة بالقش تسير فى بطء وكلال كأنما ادركتها الملالة والسأم من حبسها فى الظلام ، وانما يلوح من بينها هنا وهناك « سلطانية » او جرة باهرة الطلاء تطل مزهوة من خلف الحاجز الممسك بذلك الكوم العالى المكدس فوق العربة ، مجتذبة انظار اولئك الذين تستهويهم هذه الكماليات . وراح كثير من المارة ينظرون بعين الحسد الى الفخرانى الطويل القامة صاحب هذه الكنوز ، وهو يسير فى بطء وتمهل خلف بضاعته ، يرد بين الفينة والفينة طرائفه من الفخار بعناية الى مواضعها من القش الذى سئمته . وكان زوج من الثيران الكليلة يجر على جانب من الطريق بمعزل عن رتل العربات ، عربة تكدست فوقها اكوام عالية من الأكياس والقنب والكتان والأدوات المنزلية على اختلافها يتبعها صاحبها وقد تسربل بقميص نظيف من الكتان وسروال قذر من الكتان ايضا ، وراح يمسح بيده فى تكاسل وبلادة وجهه الاسمر من اثر العرق الذى يتقاطر من شاربه الطويل الذى ذر عليه الذرور ذلك الحلاق العاتى الذى يحل بالمليح والقبيح على السواء من غير دعوة ، اجل ذلك الحلاق الذى ظل آلاف السنين يذر الذرور قهرا على الناس ولم ينج منه أحد من بنى الانسان. وسارت الى جانب الرجل فرس شدت الى العربة ، وقد نم انكسارها ووداعتها عما بلغته من سن عالية .

وكان كثير من المارة ، وبخاصة الفتيان ، يخلعون قبعاتهم وهم يمرون بفلاحنا ، ولم يحملهم على ذلك شاربه الأشيب او خطوته الوقور ، بل شيء آخر كان لا يقتضي من المرء الا أن يرفع عينيه قليلا ليكشف عن سر هذا الاحترام ، ذلك ان ابنته الجميلة كانت تجلس فوق العربة ، فتاة ذات وجه مستدير ، وحاجبين اسودين تقوسا فى استواء فوق عينين صافيتين عسليتين ، وشفتين ورديتين ضاحكتين ، وقد التفت الشرائط الحمر والزرق فىثنايا ضفائرها الطويلة فتوجت هى وباقة من الأزهار البرية راسها الفاتن ، وبدا للأنظار أن كل شيء يثير اهتمام الفتاة ، فقد كان كل شيء جديدا يثير العجب ، وكانت عيناها الجميلتان تتوثبان طوالالوقت متنقلتين من شيء الى شيء ، وأى عجب فى ان يثور اهتمامها ، وقد كانت هذه أول مرة تزور فيها سوقا من الأسواق ؟ وما بالك بفتاة فى الثامنة عشرة من عمرها تجد نفسها فى سوق لأول مرة ؟ ولم يك احد من المارة يدرى مقدار ما بذلته من جهد لاقناع أبيها باصطحابها معه ، وقد كان الرجل مستعدا للاستجابة الى طلبها قبل ذلك لولا زوجة ابيها الحقود التى تعلمت ان تسوس قيادة بالمهارة التى يقود هو بها فرسه العجوز الآن الى السوق لبيعها جزاء لها على ما قضت فى خدمته من سنين طويلة . الا تبا لتلك المراة المزعجة ! ولكننا ننسى انها كانت هى ايضا تجلس على قمة الحمل وقد ارتدت سترة خضراء أنيقة من الصوف زينتها بذيول صغيرة تقلد بها فراء القاقم الثمين على الرغم من أن هذه الذيول كانت حمر اللون ، كما ارتدت نقبة رائعة ذات مربعات كأنها لوحة الشطرنج ، وقبعة ملونة مزينة بالأزهار اضفت سمة بارزة من سمات الجلال على وجهها المستدير الأحمر الذى كان ينم عن طبيعة نكدة شرسة ترد كل متطلع الى الانصراف عنه سريعا الى وجه الفتاة الصبوح المشرق .

وتراءى نهر بسيول لأعين مسافرينا ، بل هم قد احسوا على البعد منه بجوه الرطيب المنعش ، فهشت له نفوسهم بعد ان نالت منها الحرارة اللافحة كل منال ، وبدت لمحات من الماء البارد تتألق من ثنايا الأوراق الداكنة والأوراق الخضر الزاهية لأشجار التامول والحور التى انتشرت فى أرجاء السهل بلا نظام ولا عناية ، وفتح النهار البديع

صدره الفضي المشرق وقد حنت عليه هدائل الأشجار الخضر وافرة غزيرة ، وكان يغير مجراه كل عام تقريبا ويتخير مجرى جديدا ، ويحوط نفسه بمناظر جديدة مختلفة الألوان والأشكال ، أجل كان يفعل ذلك عن وعى وادراك كأنه غادة فاتنة تبرز مرآتها الأمينة فى هذه الساعات الساحرة قوامها البديع وجبينها الوضاء الشامخ وكتفيها اللتين اكتستا بلون الزنبق وعنقها المرمرى تغشاه أمواج من شعرها الأسـود ، ثم تطرح فى ترفع وانفـه حلية من الحلى لتستبدل بهـا اخرى وقـد استرسلت فى نزواتها استرسالا لا يعرف له آخر . وكانت صفوف من طواحين الماء ترفعه فى أمواج كبيرة بعجلاتها الثقيلة ، ثم تعـود فتقذف به الأرض فى عنف وقوة ، وتمخضه مخضا يستحيل معه الى زبد ينتشر محدثا هديرا عظيما .

وفى تلك اللحظة بلغت العـربة الجسر هى والأشـخاص الذين وصفناهم ، وانبسط النهر امامهم بكل ما حباه الله من جمـال وجلال كأنه صفحة من زجاج ، وانعكست على اديمه السماء والغابة الخضراء والزرقاء الداكنة والرجال وعربات القدور وطواحين المـاء ، فبدت جميعا منقلبة راسا على عقب ، ولكنها لسبب من الأسباب لم تغص فى اعماق النهر الزرق الجميلة .

واستغرقت غادتنا الفاتنة فى التامل سارحة ببصرها فى هذا المنظر البديع ، وبلغ من استغراقها انها نسيت أن تقضقض بزور عباد الشمس التى كانت مشغولة بأكلها طول الطريق ، وطرق أذنها فجأة صـوت يقول : « يا لها من فتاة ! » ، فتلفتت فرأت جماعة من الشبان يقفون على الجسر ، وقد تأنق واحد منهم فى ملابسـه أكثـر من أصحابه ، وارتدى سترة بيضاء وقبعة رمادية من فراء استراخان ، وراح ينظر فى مرح الى المـارة واضعا يديه فى خاصرتيه ، ولم يسع الفتاة الا ان تلاحظ وجهه الطلق الذى لفحته الشمس ، وعينيه المتألقتين اللتين كانتا فيما يلوح تحاولان جاهدتين أن تنفذا الى اعماقها ، وارخت الفتاة بصرها اذ طاف بذهنها أن هذا الشاب قد يكون هو الذى نطق بهذه الكلمات .

ومضى الشاب ذو السترة البيضاء يقول وعيناه لا تتحولان عنها : « يا لها من فتاة رائعـــة ! ، وانى لأبذل كل ما املك فى سبيل قبلة منها ! ولكن أنظروا الى تلك الحيزبون التى تجلس فى مقدمة العربة »!

وانفجر الشبان ضاحكين جميعا ، ولـــكن زوجة الفلاح البطىء الحركة التى كانت قد ارتدت من الملابس اكثر مما ننبغى ، لم تسرها هذه التحية ، فاضطرم خداها الوردیان بنار الغضب ، وانهالت على راس الشاب بسيل من الشتائم المنتقاة .

« الا فليزهق الطاعون روحك أيها المراكبى الخبيث ! ولتنزلن براس ابيك قدر فتحطمه ! ولتتعثر قدمه على الجليد ، هذا الكافر الملعون ! وليحرق الشيطان لحيته فى جهنم ! » .

وقال الشاب وهو يحدق فيها النظر ، كانما اذهلته هذه السهام الحادة من التحيات المفاجئة : « بالله انصتوا اليها ! وانظروا كيف تطلق هذه الحيزبون لسانها بمثل هذه الكلمات ! انها لتبلغ من العمر المائة ولا تنقص يوما ! » .

وردت العجوز الشمطاء عليه قائلة : « مائة ؟ أيها الوثنى ، اذهب واغسل وجهك ايها الوغد الحقير ! اننى لم ار امك قط ، ولكننى أعلم انها قذرة وان اباك قذر ، وعمتك قــذرة ! مائة حقا ! أيهـا الخنزير الأمخط ! .

وكانت العربة تبتعد عن الجسر ، فغابت الكلمات الأخيرة عن الأسماع، الا ان الشاب لم يكن يريد فيما يظهر أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ، فبادر من غير ترو الى التقاط حفنة من الطين ورماها بها ، وأصابت الرمية اكثر مما كان يرجى لها ، وتناثر الطين فلطخ القبعة الملونة كلها ، وازدادت قهقهة الأوغاد المعربدين علوا وصخبا ، وغلى مرجل الغيظ فى صدر الحيزبون البدينة ، بيد أن العـربة كانت قد ابتعـدت كثيرا فصبت جام غضبها ونقمتها على راس كنتها البريئة وزوجها البطىء الحركة . وكان الرجل قد ألف هذه الاعتداءات منذ وقت طويل ، فلزم الصمت فى اصرار وعناد ، واخـذ ينصت ساكن الجأش الى شقشقة لسان زوجته ، ولم ترعو المراة بل مضى لسانها الذى لا يدركه التعب

فى الشقشقة حتى بلغت العربة بيت صـــديقهم وخلهم القديم ، وهو قوزاقى يسمى تسيبوليا يقيم فى ضواحى القرية . وتلاقى الأصدقاء القدماء بعد فراق طويل ، ونسي مسافرونا هذا الحادث المؤسف الى حين فى غمرة حديثهم عن السوق ، وأخلدوا الى الراحة بعد رحلتهم البعيدة .

- أ -

رباه ! اى شيء لا تجده في تلك السوق ، ان فيها عجلات وزجاجا للنوافذ ،وقطراناوتبغا واحزمة وبصـــلا ، وحوانيت لبيع السلع الصـــغيرة على اختلاف أنواعها ..وهيهات أن تشترى ما في الســوق جميعا وان امتلا جيبك بثلاثين روبلا نقدا وعدا !

(من ملهاة اوكرانية)

أو قد سمعت شلالا يتدفق ماؤه فيصطخب الجو من حولك ويختلط فيه الهدير واصوات مضطربة غريبة مبهمة ؟ ألا يتملكك فوراً هـذا الشعور نفسه وانت تضرب في لجة سوق من الاسواق التى تقوم في القرى حين يمتزج الناس جميعا في كتلة واحدة أشبه بالوحش المخيف الهائل يتحرك جسمه كله في ساحة السوق وفى الطريق الضيق ، يصيح ويضحك ويضوضى ؟ ويختلط الصخب والسباب والخـوار والثغاء والضجيج والعجيج في هدير واحد مهوش مضطرب ، فترى الثيران والاكياس والدريس والنور والقدور والفلاحات والكعك والقبعات ، اجل ترى كل شيء وقد بدا فى ألوان زاهية براقة متنافرة يندفع في هرج ومرج أمام ناظريك ، وتطفى بعض الأصوات المختلفة على بعض ،

فلا تستطيع أن تلتقط كلمة واحدة او تظفر بها فى خضم هذا الطوفان ، بل لا تستطيع أن تميز صيحة واحدة ، وتسمع الأيدى تتقارع فى كل مكان متصافحة دليلا على ابرام صفقة من الصفقات ، وترزح عربة بما تنوء من حمل وتتحطم ، وتطـــرق اذنيك أصوات قعقعة الحديد وارتطام الألواح الخشبية تهوى الى الأرض ، فيتصدع راسك من الدوار ، ولا تعرف اى طريق تسلك ! .

وكان صاحبنا الفلاح الذى عرفناه وشيكا قد أخذ منذ حين يشق طريقه وسط الزحام ومعه ابنته الكحيلة العين ، ومضى الرجل الى حمل عربة من العربات وتحسس بيده حملا آخر وسأل عن الاثمان ، وظلت افكاره تحوم حول عشرة الاكياس من القمح والفرس العجوز التى جاء بها الى السوق ليبيعها ، وتجلى على وجه ابنته شىء من الضيق لاحتكاكها بعربات الدقيق والقمح . لقد كانت نفسها تتوق الى غشيان المكان الذى تعرض فيه الأشرطة الحمر واقراط الصفيح والصلبان المصنوعة من النحاس والدنانير الذهبية عرضا جذابا تحت مظلات من الـكتان ، على أنها كانت تجد فى المكان الذى كانت تلم به اشياء كثيرة جديرة بالانتباه ، فقد سرها غاية السرور منظر نورية وفلاح فرع كل منهما يد صاحبه قرعا عنيفا بعد أن عقدا صفقة حتى صرخا من الألم ، ومنظر يهودى ثمل يلكز امرأة فى ردفها ، ومنظر بائعتى سمك تتبادلان السباب وتتضاربان بسرطان الماء العذب ، ومنظر روسى يربت لحية تيسه باحدى يديه ، أما اليد الاخرى... ولكنها شعرت فى تلك اللحظة بشخص يجذبها من كم صدارتها المطرزة،فالتفتت فرأت الشاب المشرق العينين ذا السترة البيضاء يقف أمامها ، ففزعت وخفق قلبها كما لم يخفق من قبل قط لفرح استخفه او حزن الم به ، فقد احست بشعور غريب لذيذ ، لم تستطع أن تدرك كنهه .

وقال لها الشاب فى صوت خفيض وهو يأخذ بيدها : « لا تراعى يافاتنتى ! لا تراعى ! فلن اقول شيئا يصيبك منه ضرر ! » .

وحدثت الفتاة نفسها قـائلة : « لعلك لا تفعل ، ولـكن ثمة شيئا غريبا ، وقد يكون هذا الشىء هو ابليس اللعين ! وانى لأعلم ان هذا

الذى يلم بى بعيد عن الصواب ، ولكنى لا اجد فى نفسى القوة على سحب يدى » .

وتلفت الفلاح وهم بأن يقول شيئا لابنته ، واذا به يسمع كلمة « القمح » تتردد ، فحملته هذه الكلمة ذات السحر على أن يلحق من فوره بتاجرى قمح كانا يتحدثان بصوت مرتفع ، واصم اذنه عن سماع اى شىء آخر .

— ٢ —

الا ترى اى فتى هو ؟
انه لفتى قل أن تجد له ضريبا
فى هذا العـــالم ، فهو يحب
الفودكا كأنها الجعة !
«الانيادة لكوتلياريفسكى» (١) »

وسأل احد التاجرين ، وكان يبدو عليه انه من أهل الحضر ، يرتدى سروالا مصنوعا من قماش خشن من غزل البيوت وقد لطخه القطران : « اذن فانت تظن ايها الجار اننا لن نبيع قمحنا بثمن مناسب » .

فقال صاحبه ، وكان رجلا علا جبهته ورم كبير ، يرتدى سترة زرقاء تناثرت الرقع فيها : « انى لا أظن ، بل أقول قول الواثق ، واننى لعلى استعداد ان أضع حبل المشنقة حول رقبتى ، وأتدلى من تلك الشجرة كما تتدلى المقانق (السجق) فى الكوخ قبل عيد الميلاد اذا بعنا بوشلا واحدا » .

ورد الرجل الذى يرتدى ذلك السروال من غزل البيوت : « على رسلك أيها الجار ، فما جاء أحد بقمح سوانا » .

وقال والد غادتنا الحسناء بينه وبين نفسه ، ولم تك قد فاتته كلمة واحدة من حديث التاجرين : « فلتقل ما شئت ، فانى أدخر عشرة أكياس » .

(١) كوتلياريفسكى : شاعر أوكرانى معاصر لجوجول ، و « الانيادة » صورة هزلية للملحمة فرجيل .

وقال الرجل الذى يعلو جبينه ورم متطيرا : « ايه ، وانك لترى ان الأمر لا يعدو ما أقول ، وهو ان الشيطنة اذا دخلت فى شىء فلن تصيب منه أكثر مما تصيب من مسكوفى جائع » .

وقال الرجل الذى يرتدى السروال من غزل البيوت : « وماذا تعنى بالشيطنة ؟ » .

وقال صاحب الجبين الوارم وهو ينظر اليه شزرا من طرف عينيه الحزينتين : « الم تسمع ما يقوله الناس ؟ » .

« وما بالهم ؟ ».

« جميل منك أن تقول ما بالهم ! ولكن مساعد القاضى ـ لا قدر له أن يمسح شفتيه مرة أخرى ابدا بعد ان يصيب من خمر النبلاء المصنوعة من البرقوق ما يصيب ـ قد خصص للسوق بقعة مشئومة ينشق جنباك قبل ان تتصرف فى حبة واحدة من القمح . او ترى تلك الصومعة القديمة المتهدمة التى تقوم هنالك فى سفح التل ؟ » (وما ان بلغا فى الحديث هذا الحد حتى اقترب منهما الفلاح الفضولى واصبح كله آذانا مصغية) ، « أن جميع الألاعيب الشيطانية تجرى فى هذه الصومعة ، وما من سوق قامت فى هذه البقعة الا حفت بها المتاعب . وقد مر بها كاتب النـــاحية فى ساعة متأخرة من الليلة الماضية ، فاطل عليه فجاة من غرفة الدار العليا خطم خنزير ، وقبع الخنزير بصوت عال جهير ارتعدت له فرائصه ، واغلب الظن اننا سنعود لمشاهدة السترة الحمراء مرة اخرى » .

« اى سترة حمراء ؟ » .

ووقف شعر صاحبنا الفلاح الذى كان ينصت باهتمام الى حديث الرجلين عندما سمع هذه الكلمات ، وتلفت فزعا ، فرأى ابنته هى والشاب واقفين وقد طوق كل منهما خصر صاحبه بذراعه ، وراحا

يتهامسان متعابثين بكلمات رقيقة عذبة غير عابئين بكل ما فى العالم من سترات ، وبدد هذا المنظر ما تملك الفلاح من رعب واعاد الى نفسه الطمأنينة والهدوء .

« ايه أيها الجار ! يبدو لى انك تعرف كيف تضم فتاة الى صدرك ! لقد قضيت ثلاثة ايام بعد زواجى من خفسكا المسكينة ، رحمة الله عليها ، قبل أن أتعلم كيف أضمها الى صدرى ، وكان الفضل فى ذلك لصديق كان شاهد عرسى ، وهو الذى لمح بذلك من طرف خفى » .

وادرك الشاب ان أبا فاتنته لم يكن من ارباب البديهة الحاضرة ، فأخذ يدبر الامر لنيل الحظوة عنده .

« يلوح لى أيها الصديق العزيز انك لاتعرفنى ، اما انا فقد عرفتك فى الحال » .

« احقا ما تقول ؟ »

« اجل ، وان شئت ذكرت لك اسمك ولقبك وكل شىء يتصل بك ، وان اسمك هو سولوبى شيريفيك »

« اصبت : ــ سولوبى شيريفيك »

« انظر الى جيدا ــ الا تذكرنى ؟ »

« كلا ، لا اذكرك ، ولست أقصد بذلك ان أسىء اليك ، فقد رايت فى حياتى وجوها كثيرة جدا على جميع الانواع والأشكال ، فكيف تريد منى أن اذكرها جميعا »

« يحز فى نفسى كثيرا انك لا تذكر ابن جولوبوبنكو »

« وى ! هل ابوك هو أوخريم ؟ »

« ومن يكون سواه ؟ وان لم يكن هو فلعله يكون جدى العجوز الاصلع نفسه »

وعندئذ خلع الصديقان قبعتيهما ، وراح كل منهما يقبل الآخر، وصح عزم ابن جولوبوبنكو على ان ينفذ الى قلب صديقه الجديد دون ان يضيع فى ذلك وقتا .

« ان حقيقة الأمر ياسولوبى هى اننى تعلقت بابنتك كما تعلقت هى بى حتى صح منا العزم على ان نقضى بقية ايامنا معا » .

وقال شيريفيك وهو يضحك ويلتفت الى ابنته : « مرحى يا باراسكا ، ولعل الله قد وفقكما حقا ، انت وهو ،الى ان ترعيا مرعى واحدا كما يقولون ! هلم هلم ، هل اتفقتما ؟ هات يا زوج ابنتى الجديد ، وقدم لى كأسا نعقد بها الصفقة ! »

والفى الثلاثة انفسهم فى حانة السوق المشهورة ، وهى خباء ليهودية زينته بحشد من الاوانى والزجاجات والقنانى من كل صنف ونوع .

وقال شيريفيك وقد لعبت الخمر برأسه قليلا ، اذ راى زوج ابنته المرتقب يملأ ابريقا سعته ١٢٥ درهما ويجرعه دفعة واحدة دون ان يطرف له جفن ، ثم يقذف به الى الأرض فيهشمه تهشيما : « يالك من شاب حاذق فطن ! وأنا أحب فيك هذا ! ما قولك يا باراسكا ؟ الم اجد لك زوجا مليحا ؟ انظرى كيف يعب الشراب عبا ! »

ومضى الرجل بصحبة الفتاة الى عربته وهو يضحك ويترنح ، اما الشاب فقد شق طريقه الى المظلات التى عرضت فيها ادوات الزينة ، وكان فيها تجار من جادياخ نفسها بل من ميرجورود .

وهما مدينتان مشهورتان من أعمال بلتاوة ، واختار أحسن غليون من الخشب المحلى برباط انيق من النحاس ، ومنديلا احمر منقوشا بالزهر ، وقبعة ، ليقدمها فى الزفاف هدايا الى حميه والى من هم جديرون بهذه الهدايا .

- ٤ -

اذا اراد الرجـــل شيئا
وارادت زوجته شيئا آخر
فأنت تعلم لمن تكون الغلبة!

« كوتليارفسكى »

« مرحى يا امرأتى ، لقد وجدت زوجا لابنتى »

« عجبا لك ! هل هذا هو الوقت المناسب للبحث عن الازواج؟ يا لك من أبله مأفون ! ولاشك انه قد كتب عليك يوم ولادتك أن تلازمك هذه الصفة ! والا فخبرنى هل فى الخلق من أحد راى أو سمع برجل وقور يتصيد الأزواج فى وقت كهذا ؟ لخير لك ان تفكر فى وسيلة تتخلص بها من القمح الذى بين يديك ، ولاشك عنـدى أيضا فى انك قد عثرت على شاب مليح فصيح ! انى لأتوقع أن يكون هذا الشاب هو أحقر سائل فى هذه الناحية كلها ! »

« ايه ، ليس فيما تقولين ظل من الحقيقـة ! ولشـد ما أتمنى ان ترى أى فتى هو ! ان سترته البيضـاء وحدها لأغلى من صدارتك الخضراء وحذائك الأحمر ، فـكيف بك اذا رأيتـه يعب الفودكا عبا ؟ الا فليذهب بى الشيطان وليذهب بك انت أيضا ، ان كنت قد رايت من قبل شابا مثله يجرع نصف لتر من الفودكا دون أن تطرف له عين ! » .

« صدقت ، فانه ان كان سكيرا افاقا كان على مشربك وهواك. ولا ضير من أن أراهن بأنه هو ذلك الوغد الذى أقلق منا الخواطر على الجسر ، ولشد ما يحز فى نفسى اننى لم ألقه بعد حتى أرده الى جادة العقل والصواب » .

« وماذا لو كان هو الشاب نفسـه ياخيفريا ؟ وما بالك تقولين انه وغد ؟ »

« اتسـألنى لماذا اقول انه وغد ؟ هلا تستمعون الى هــذا الراس العجوز الفاسد ! اين كانت عيناك الخاملتان عندما كنا نسوق العربة مارين بالطواحين ؟ رجل تهان زوجته تحت انفه الكريه ولا يحرك ساكنا ! »

« لست ارى فيه عيبا على كل حال ، فهو فتى ولا كل الفتيان! وكل ما فعله انه لطخ وجهك القبيح بالروث فحسب »

« واها لك ! فانى ارى انك لا تتركنى اقول كلمة واحـدة ! ماذا دهاك ؟ لاشك انك قد اصبت كاسا قبل ان تبيع شيئا ! »

وعندئذ ادرك شيريفيك انه قد انساق فى القول اكثر مما يجب، فاسرع وغطى راسه بيديه ، ولاشك انه توقع ان زوجته الغاضبة ستمسك شعره ببراثنها الزوجية !

وقال يحدث نفسه وهو يتراجع مشفقا من ثورة زوجته الحانقة : « يا للعنة ، ولبئس المصير الذى ينتهى اليه زواجنا ! او حق على ان ارفض فتى مليحا لغير ما عذر او سبب ؟ رحماك يا الله ! لم رميتنا بهذا البلاء نحن المساكين الخاطئين ؟ وكيف اقتضت ارادتك ان تخلق لنا النساء على ما فى هذا العالم من شرور كثيرة جمة؟»

- ٥ -

لا تلوى يا شجرة الدلب،
فما زلت خضراء يانعة ،
ولاتقلق ايها القوزاقى اليافع ،
فما زلت شابا غض الأهاب.

((من أغنية اوكرانية))

جلس الشاب صاحب السترة البيضاء بجوار عربته يحملق شارد الفكر فى زحمة الناس الذين كانوا يضوضون من حوله ، واخذت الشمس الواهنة تنحسر عن الأرض بعد ان ظلت تسطع هادئة مطمئنة البال طيلة ساعات الظهيرة ، وراح ضوء النهار يخبو فى وهج سنى فتان ، وتلألأت قمم المظلات والخيم البيض ببريق يخطف الأبصار بغشاه وشى وردى باهت ، وتألقت الواح الزجاج فى اطارات النوافذ التى كدست للبيع ، وكانت الأقداح الخضر والقنانى التى على موائد مظلات الشراب تومض وميض النار ، وبدت تلال البطيخ واليقطين كانها صبت من الذهب والنحاس الداكن ، وقل الـكلام ، وثقلت السنة الباعة المتجولين والفلاحين والنور من التعب والكلال ، وازدادت حركتها كسلا وتراخيا ، وبدأت الأنوار تشعشع هنا وهناك ، وانطلق البخار الطيب النكهة من لقيمات القاضى التى كانت تغلى ، وانساب فوق الطرقات التى خيم عليها السكون .

وصاح رجل من النور طويل القامة لفحت الشمس وجهه وهو يضرب صديقنا الشاب على كتفه : « ما الذى يحزنك ياجريتسكو؟ هلم ، وبع لى ثيرانك بعشرين روبلا ! »

« ان حياتك كلها ثيران فى ثيران ، وانتم معشر النور لا تفكرون الا فى الـكسب ، تغشون الشرفاء وتخدعونهم ! »

« آه ، أرى ان مرارتك قد انشقت من الغضب ! ترى أضـاق صدرك لأنك ربطت نفسك بفتاة ؟ »

« كلا ، ليس هذا من خلقى ، فانى أحفظ عهدى ، وما أفعله التزمه دائما ، على ان ذلك الشـيخ العجوز شيريفيك لا تنطوى جوانحه فيما يبدو لى على ما يساوى نصف كوبيك من الضمير ، فقد وعد ولكنه نكث الوعد ، ولا ضير فى لومه فهو غبى أحمق وحسب ، وكل هذا من صنع تلك العجوز الشمطاء التى سخرت بنا جماعتنا من الفتيان على الجسر اليوم ! ولو اننى كنت القيصر أو اى وجيه من أشراف القوم لشنقت جميع أولئك الحمقى الذين يسلمون قيادهم للنساء » .

« هل تبيعنا الثيران بعشرين روبلا اذا نحن حملنا شيريفيك على ان يزوجك باراسكا ؟ »

وحملق جريتسكو فيه متعجبا ، فقـد كان يشوب وجـه ذلك النورى الأسمر شىء ينم عن الحقد والخبث واللؤم ، وان كان فى الوقت نفسه ينطوى على الغطرسة والكبر ، وكان كل من ينظر اليه خليقا بأن يجد فى تلك النفس الغريبة خصالا وصفات عظيمة ، وان كان لايستحق عليها من جزاء فى عرف الناس على ظهر هذه الأرض الا المشنقة ! وكان فم الرجل غارقا تماما بين أنفه وذقنه الحاد الطرف تعلوه دائما ابتسامة ساخرة، وعينان صغيرتانتضطرمان كالنار ، ويبرق محياه بومضات فى كل آن من الدس والوقيعـة والاقدام ، وقد بدا ذلك كله متمشيا مع الزى الغريب الذى كان يرتديه ، فقد كانت سترته السمراء الداكنة التى يتراءى للناظرين أنها خليقة بأن تستحيل ترابا اذا لمسها لامس ، وشعره الأسـود الطويل يسترسل على كتفيه فى جدائل معقدة ، وحذاؤه الذى ينتعله فى قدميه العاريتين اللتين لفحتهما الشمس ، أجل كان ذلك كله فيما يلوح جزءا لا يتجزأ منه .

واجاب الشـاب وهو لايزال يحدق النظـر فى النورى بنظرات مستشفة : « سأبيعها لك بخمسة عشر روبلا لا عشرين ، ولـكن لا تخدعنى » .

« خمسة عشر ؟ اتفقنا ! واياك ان تنسى ، خمسة عشر ! هاك خمسة روبلات على الذمة ! »

« واذا خدعتنى ؟ »

« كان ما فى ذمتك لك »

« حسن ! هات يدك ابراما لهذه الصفقة ! »

« اتفقنا »

- ٦ -

كان الله فى عوننا ! فان زوجى
مقبل وليكونن هنا بعد لحظة
وليضربننى ، أما أنت يا بان
خوما فلن تفلت بجلدك منه ايضاً !

« من ملهاة أوكرانية »

« من هنا يا افناسى ايفانوفيتش ! فان السياج اكثر انخفاضا فى هذا الموضع . ارفع قدمك ولا تخف ، فقد مضى العجوز الاحمق صحبة خله يقضى ليلته نائما تحت العربة حتى يطمئنا الى ان المسكوفيين لن يسرقوا شيئا »

وهكذا شجعت زوجة شيريفيك العاتية ابن القس الذى كان يتعلق بالسياج فى ضعف وخور ، فتسلق الى قمة السياج ، وبقى فى موضعه مترددا لحظة كأنه شبح نحيل مخيف يبحث عن خير مكان يستطيع ان يقفز منه اليها . وهبط الفتى آخر الأمر مرتطما بالأرض بين العشب الغزير ، فغمغمت خيفريا فى قلق واضطراب قائلة : « يا الهى ! ارجو الا تكون قد اصبت نفسك بضر ! حمدا لله على انك لم تدق عنقك ! »

وهمس ابن القس فى صوت ينم عن الألم وهو ينتصب على قدميه: «صه، انى بخير ، انى بخير ياعزيزتى خافرونيا نيكيفوروفنا، اللهم الا ما أصابنى من القريض ، ذلك العشب الذى يشبه الأفعى، على ما وصفه به قمصنا الراحل »

« هيا بنا ندخل الى المنزل فليس فيه من احد ، وكنت قد بدات اظن انك اصبت بألم فى معدتك ، فقد غبت عنى طويلا يا افناسى ايفانوفتش ، كيف حالك ؟ لقد سمعت ان أباك المبجل قد وفق فى اعماله توفيقا طيبا ! »

« لم يوفق توفيقا يستحق الذكر ياخافرونيانيكيفوروفنا ، فان ابى لم يتلق طوال ايام الصيام الا خمسة عشر كيسا او نحوها من دقيق الربيع ، واربعة أكيـــاس من الدخن ، ومائة رغيف ، أما الدجاج فلم يبلغ عدده الخمسين ، وكان معظم البيض فاسدا ».
ثم اردف ابن القس يقول وهو ينظر اليها نظرة حب وحنان ويقترب منهـا : « انما العطـايا الحلوة حقا لا تأتى الا منك ياخافرونيـا نيكيفوروفنا ! »

فقالت وهى تضـع بعض الأقـداح على المائدة ، وتثبت أزرار قميصهـا فى دلال كأنها لم تفكها عمدا : « هاك عطية يا افناسى ايفانوفتش ! فطائر باللبن المخثر ، ولقيمات قاض مصنوعة من القمح ، وقطائف وكعكا ! »

وقال ابن القس وقد راح يأتى على الكعك ويسحب اليه الفطائر باليد الأخرى : « اراهن انها من صنع امهر يد خلقها الله من أيدى بنات حواء ، ولو ان قلبى يتوق حقا الى عطيـة منك أحـلى من القطائف ولقيمات القاضى ! »

وقالت الحسناء الربلة وهى تتظاهر بأنها لم تفهم مايرمى اليه : « لا ادرى حقا اى اطايب اخرى تريد يا افناسى ايفانوفتش ! »

وهمس ابن القس ، وهو يمسك فطيرة باحدى يديه ، ويطوق خصرها الملىء بذراعه الطليق : « حبـك طبعـا ! أى خافرونيـا نيكيفورفنا يازينة النسـاء ! »

وقالت خيفريا وهى ترخى ببصرها الى الأرض حياء وخجلا : « لا ادرى والله ماذا تعنى يا افناسى ايفانوفتش ! ولست اعجب ان حاولت بعد أن تقبلنى ! »

واسترسل الشاب يقول : « اما ذلك فلا اكتمك اننى عندما كنت فى الجامعة ، وانى لأذكر هذا الحادث كأنه وقع اليوم »

وفى تلك اللحظة طرق آذانهما صوت نباح وقرع على الباب فهرعت خيفريا الى الخارج مسرعة وعادت وقد شحب وجهها : « لقـد افتضح امرنا يا افنـاسى ايفانوفتش ، فثمة قوم كثيرون يقرعون الباب ، ويخيل الى اننى سمعت صوت تسيبوليا »

وغص حلق الشاب بالفطيرة ، وجحظت عيناه حتى أوشكتا ان

تخرجا من راسه كانما حل به وشيكا شخص جاء من العالم الآخر .

وقالت خيفريا وقد تملكها الفزع : « تسلق الى ذلك المكان ! » واشارت فى الوقت نفســـه الى بعض الألواح الخشبية المثبتة فى عرض الروافد تحت السقف تماما ، وقد حملت من سقط المتـــاع اشكالا والوانا .

واستثار الخطر شجاعة صاحبنا ، فارتقى الموقد ، وتسلق منه فى حذر الى الالواح الخشبية ، فى حين هرعت خيفريا مسرعة الى الباب ، وكان الطرق يشتد ويزداد الحاحا .

- ٧ -

ولـكن هنا تحدث الأعاجيب يامولاى !
« من ملهاة اوكرانية »

وكان قد وقع فى السوق حادث غريب ، اذ انتشرت فى جميع ارجائها شائعات بأن السترة الحمراء شوهدت فى مكانما بين السلع، فقد خيل الى خبازة انها شاهدت الشيطان فى صورة خنزير ينحنى على العربات كأنه يبحث عن شىء . وسرعان ما طار النبأ الى كل ركن من أركان المخيم الذى شمله السكون الآن ، وظن الجميع ان تكذيب هذا النبأ جريمة من الجرائم بالرغم من ان المرأة العجوز التى كان محلها يجاور خيمة الشراب كانت تصيب من خمر جارتها ما تصيب حتى عجزت عن السـير فى خطوات مستقيمة متزنة . واضيف الى ذلك رواية أخرى عن تلك العجيبة التى شاهدها كاتب الناحية فى الصومعة المتهدمة واتصل نبؤها الى الأسماع الآن بعد أن بالغ الناس فيها مبالغة عظيمة ، وما ان بدا الليل يرخى سدوله حتى اخذ القوم يتكاكئون ، وقد فارقهم هدوء البال والطمأنينـة واستعصى عليهم جميعا ان يغمضوا عيونهم فزعا ورعبا ، أما ضعفاء القلوب منهم الذين كانوا قد التمسـوا لأنفسهم مضـجعا فى كوخ يأويهم سحابة الليـل فقـد خرجوا عائدين الى ديارهم ومن بينهم شيريفيك هو وابنته وصديقه تسيبوليا ، وكان هؤلاء واصـدقاؤهم الذين تطوعوا لمرافقتهم هم الذين قرعوا الباب بتلك الشدة التى القت

الرعب فى قلب خيفريا ، وكان تسيبوليا قد نالت منه الخمر قليلا، فقد ساق عربته حول الكوخ مرتين قبل ان يتمكن من العثور عليه، وكان ضيوفه ايضا قد جنحوا الى اللهو والمرح ، فشقوا طريقهم فى غير ما كلفة الى الكوخ ، ودخلوه قبل مضيفهم ، وجلست زوجة شيريفيك على أحر من الجمر عندما بدءوا ينقبون فى كل ركن من اركان الكوخ .

وسالها تسيبوليا وهو يدخل الكوخ : « مابالك ؟ اتنتفضين من الحمى ؟ »

وأجابت خيفريا وهى تخالس النظر قلقة الى ما فوقها : «نعم، فانى مريضة »

فقال تسيبوليا : « هلمى يازوجتى ، وائتينا بالقنينة من العربة، فسنأتى عليها مع هؤلاء القوم الصالحين ، ولبئست النسوة أولئك اللائى اوقعن فى قلوبنا من الرعب ما يخجل المرء من أن يعترف به »، واسترسل فى القول وهو يكرع جرعة من ابريق الفخار : « أجل ايها الرفاق ؟ فلم يك ثمة ضرورة حقا تلجئنا الى الحضور الى هنا! وانى لأراهنكم على قبعة جديدة بأن النساء ظنن انهن مستطيعات أن يسخرن منا فهبوا انه كان هو الشيطان نفسه فمن يكون الشيطان؟ ابصقوا عليه ! ولو قد وقف امامى فى هذه اللحظة لسخرت منه ، ولعنة الله على أن لم افعل ! » .

وصاح أحد الحاضرين : « وما بال وجهك قد علاه كل هذا الشحوب ؟ » وكان هذا الضيف اطول من القوم جميعا برأس ، لا ينفك عن الظهور بمظهر الرجل الباسل .

« انا ؟ لاشك انك كنت تحلم ! »

وضحك الضيوف ، وابتسم البطل المزهو بنفسه ابتسامة السرور والرضا .

وقال آخر : « كأنى به يستطيع الآن ان يصفر ويشحب لونه ! ان خديه فى مثل حمرة الخشخاش ، وليس هو تسيبوليا (١) الآن ، بل هو بنجرة ، أو قل الســترة الحمراء التى افزعت القوم ذلك الفزع الشديد »

ودارت القنينة على الضيوف المجتمعين حول المائدة ، فارتفعت روحهم المعنوية ، وكان شيريفيك لايزال يساوره القلق من السترة الحمراء التى ابت ان تريح نفسه المستطلعة فهتف يقول لصديقه :

« حدثنى بالله يا صديقى ! فقد دابت على استصلاح امر هــذه السترة اللعينة فلم يجبنى احد اجابة صريحة » .

« ليست هذه السترة بالأمر الذى يصح الكلام فيه والليل يوشك ان يرخى سدوله ، على اننى سأحدثك بأمرها ارضاء لك ولهــؤلاء الأصدقاء الأعزاء الذين يتوقون مثلك الى معرفة هذه العجائب سواء بسواء ، فانصت الى ! »

وعندئذ حك تسيبوليا كتفيه وجفف وجهه بطرف قميصه واتكأ بذراعيه على المائدة وانشأ يقول :

« يحكى ان شيطانا طرد من الجحيم ، ولايدرى السبب فى طرده الا الله » .

وقاطعه شيريفيك قائلا : « ولكن كيف ؟ اجل كيف حدث ان شيطانا طرد من الجحيم ؟ »

« لست أدرى ياصديقى ، ولكنه طرد من الجحيم حقا كما يطرد الانسان كلبا من بيته ، ولعله فكر فى ان يأتى عملا صالحا فدلوه على طريق الباب ، وتملك الشيطان المســكين حنين شــديد الى

(١) تسيبوليا فى الاوكرانية معناها « البصل »

دياره ، واضـــناه الشوق الى الجحيم ، حتى هان عليه أن يشنق نفسـه ، على انه لم يجد فى الأمر حيلة ، فأخذ يروح عن نفسه بشرب الخمر ، واستقر به المقام فى تلك الصــومعة المتهدمة التى رايتموها فى سفح التل ، وهو مكان لايمر به رجل صالح اليوم الا رسم علامة الصليب ، واصبح هذا الشيطان فاسقا خليعا حتى بز فى خلاعته الشبان جميعا ، وراح ينفق جميع يومه فى الخمارة ».

وما أن بلغ الرجل فى حديثه هذا الموضع حتى قاطعه شيريفيك الصارم مرة أخرى :

« ما هذا الذى تقول ؟ كيف يسمح انسان لشيطان بأن يدخل الخمارة ؟ اللهم انزل علينا جميعا بركتك ! .. اليست له مخالب وقرون ؟ »

« آه ! صدقت كل الصدق ــ ولكنه كان يرتدى قبعة وقفازا ، فمن ذا الذى كان يستطيع أن يعرفه ؟ وادمن الشـــيطان الشراب حتى شرب بكل ما كان معه من نقود ، فأقرضوه كثيرا ، ولـكنهم أمسكوا يدهم عنه آخر الأمر ، فاضطر الى رهن سترته الحمراء بأقل من ثلث قيمتها عند اليهودى الذى كان يبيع الفودكا فى تلك الأيام فى سوق سوروتشنتسى . احل رهنها وقال لليهودى : «تذكر ايها اليهودى اننى سأعود فى طلب سترتى فى خلال سنة ، فأحرص عليها ! » ثم اختفى ولم يعد يراه احد . وكان نســيج الســترة افضل من اى نسيج تستطيع الحصــول عليه حتى من ميرجورود نفسها ، كما كان لونه الأحمر يتوهج توهج النار بحيث يعز عليك ان ترد بصرك عنه. ولاح لليهودى ان السنة التى استمهله الشيطان اياها حقبة طويلة لايستطيع ان ينتظر حتى تنتهى ، فحك راســه واستقر رأيه آخر الأمر على بيعها وباعها بخمسين روبلا أو نحوها لسيد كان مارا به »

« ونسي اليهودى كل ما يتعلق بالأجل المضروب، الا ان رجلا جاء ذات مساء وقال له : « هلم أيها اليهودى ، واعطنى سترتى!» ولم يعرفه اليهودى أول الأمر، فلما امعن النظر فيه تظاهر بأنه لم يره من قبل ، وقال له : « اى سترة ؟ ليست عندى سترة ، ولا اعرف من امر سترتك شيئا ! » وانصرف الرجل الآخر، وما ان أوشك الليل ان يرخى سدوله حتى اغلق اليهودى باب غرفته من دونه ، واخذ فى عد النقود التى احتفظ بها فى صناديقه ، والقى على كتفيه قطعة من النسيج ، واخذ يتلو صلاته على سنة اليهود، واذا به يسمع فجاة حفيفا فرفع راسه ، وراى الخنازير تدس انوفها فى النوافذ جميعا ! » .

وفى تلك اللحظة نفسها طرق آذانهم صوت غامض لايختلف عن قباع الخنازير ، فاصفرت وجوه القوم جميعا ، وتجلت قطرات من العرق على وجهتسيبوليا .

وصاح شيريفيك وقد تملكه الرعب : « ما هذا ؟ »

فأجاب تسيبوليا مرتعد الأوصال فرقا : « لا شىء »

وقال واحد من الضيوف : « ماذا ؟ »

« هل قلت شيئا ؟ »

« كلا ! »

« من الذى قبع ؟ »

« الله يعلم ما الذى دهانا ! فليس هنا من احد سوانا »

واخذوا يتلفتون حولهم فزعين مروعين ، وبدءوا ينقبون فى أركان الغرفة ، وكانت خيفريا أقرب الى الأموات منها الى الأحياء .

وقالت بصوت مرتفع : « لستم الا جماعة من النساء لا اكثر

ولا اقل ! اتسمون انفسكم قوزاقا ؟ وى ! ما احراكم ان تقبعوا فى اماكنكم تندفون الصوف وتغزلونه ! لعل احدكم .. او ربما صرت اريكة رجل منكم فلم يلبث الاضطراب ان شاع بينكم حتى لكأنكم طائفة من المجانين ! »

واخجل كلام خيفريا القوم ، وحملهم على ان يستجمعوا شتات انفسهم ، وجرع تسيبوليا جرعة من الأبريق واسترسل فى رواية قصته قائلا :

« واغشى على اليهودى خوفا ورعبا ، ولكن الخنازير تسلقت الكرخ بقوائمها التى تبلغ فى طولها مبلغ قوائم ابى ساق ، ودخلت من النوافذ واعادته الى وعيه فى لمح البصر بسيور مجدولة من الجلد جعلته يقفز قفزات اعلى من هذه الروافد ، ووقع اليهودى على اقدام الخنازير ، واعترف لها بكل شىء ، الا انه لم يك فى الامكان رد السترة بسرعة ، فقد سرقها من السيد فى الطريق نورى باع امرأة اياها ، واعادتها المراة الى سوق سوروتشنتسى ، على ان الناس احجموا من بعد عن شراء اى شىء منها ، وعجبت المراة لذلك ، واستبد بها العجب ، ثم أدركت آخر الأمر سر انصراف الناس عنها ، ولاشك ان السترة الحمراء كانت هى السبب فى بوار تجارتها ؛ ولم يكن بعجيب اذن ان تشعر المراة بالاختناق كلما ارتدت هذه السترة ، فبادرت الى القائها فى النار بلا تفكير ولا روية ، بيد ان السترة الشيطانية ابت ان تحترق ! وقالت المراة تحدث نفسها : « انها لعطية من الشيطان ! » ، وافلحت فى دسها فى عربة فلاح كان قد جاء الى السوق يبيع زبده ، وتملك السرور ذلك الفلاح الغبى ، واحجم الناس جميعا عن طلب شىء من زبده ، وقال الرجل بينه وبين نفسه : « لا شك ان يدا شريرة قد دست هذه السترة على ! » وتناول فاسه وقطعها اربا اربا ، ثم نظر اليها ، فاذا بكل

قطعة منها تنضم الى الأخرى حتى استوت جميعا ، وعادت السترة سليمة كما كانت ! فرسم علامة الصليب ، وانهال عليها بالفاس مرة أخرى ، ونثر القطع فى أرجاء المكان كله ثم رحل . وراح الشيطان منذ ذلك الحين يجوب انحاء السوق كلمـــا انعقدت متخذا صورة خنزير يقبع ويجمع قطع سترته . ويقول الناس الآن : « انه لم يعد ينقص السترة سوى الكم الأيسر ، وأصبحوا من يومها يجتنبون هذا المكان ، وانقضت عشر سنوات منذ أقيمت السوق فيه ، الا أن مساعد القاضى فى ساعة نحس .. »

وجمدت بقية العبارة على شفتى المتحدث ، فقد انبعث من النافذة قعقعة عالية وسقطت الألواح الزجاجية ترن على الأرض ، واطل من النافذة وجه خنزير بشع الخلقة وراح يحملق وهو يدير عينيه كأنه يتساءل : « ماذا تفعلون هنا ايها القوم الصالحون ؟ » .

- ٨ -

كان ذيله بين ســـاقيه كأنه الكلب ، وقد سرت الرعدة فى جميع أوصـــاله كأنه قايين وتقاطر الدم من انفه .

(من «الانياذة» لكوتلياريفسكى)

واخرس الرعب لسان كل من كان فى الغرفة ، وجلس تسيبوليا جامدا كالصخر وقد فغر فاه وجحظت عينـاه حتى كادتا تنطلقـــان من محجريهما كأنهما رصاصتان ، وتوقفت اصابعه الممدودة فى الهواء وكفت عن الحركة ، وقفز العملاق الرابض الجأش قفزة عالية وقـد امتلأت جوانحه خوفا ورعبا ، فارتطم رأسه والرافدة ، وتزحزحت الألواح وسقط ابن القس مرتطمـا بالأرض ارتطاما سمع له هبـدة وصوت شىء يتحطم .

وصاح واحد من القوم فى صوت اليائس ، وقد اعتلى أريكة من الارائك فزعا مرتاعا ، وراحت ذراعاه وساقاه تضطرب وتضطرب « آه ، آه ، آه » .

وصاح آخر وهو يخفى رأسه تحت فروة من فراء الأغنـــام : « النجدة ! » .

وايقظ الرعب الذى حل بهذا الرجل الآخر تسيبوليا من سباته ، فزحف مرتجف الأوصال يلوذ بنقبة زوجته مختفيا تحتها ، وتسلق العملاق الرابض الجأش الى الموقد على الرغم من ضيق فتحته ، واغلق بابه من دونه ، ووضع شيريفيك قدرا على رأسه بدلا من القبعة ، واندفع صوب الباب كالقط اذا لسعه الماء الساخن ، واخذ يركض فى الشوارع كمن به جنة ، ولم يحمله على التمهل فى سيره الا التعب والكلال ، وكان قلبه يضرب كأنه معصرة من معاصر الزيت ، وتصبب

العرق منه كالأنهار ، واوشك أن يقع على الارض من فرط ما ناله من اعياء ، واذا به يسمع فجأة شخصاً يركض خلفه ، فضاقت انفاسه.

وصاح وقد فقد صـــوابه من الرعب واخذ يضاعف جهـــده : « الشيطان ! الشيطان ! » ثم سقط بعد لحظة على الارض مغشيا عليه.

وانبعثت صيحة من خلفه : « الشيطان ! الشيطان ! » ، ولم يشعر الا بشيء يقع فوقه محدثا صوتا كصوت الارتطام ، وفقد وعيه وانبطح فى عرض الطريق فاقد الحس لا حراك به كجثـة مسـجاة فى نعشها الضيق .

كان من الامام انسانا عاديا
كسائر البشر ، أما من الخلف
فكان — علم الله — كالشيطان !
(من قصة شــعبية)

وجلس فجاة واحد من الجمع الذين التمسوا المبيت فى العراء وقال:

« هل سمعت هذا يا فلاس ؟ لقد كان واحد من الناس يتحدث هنا عن الشيطان ! » .

ودمدم رجل من النور بقربه وهو يتمطى : « واى شان لى فى هذا فليتحدثوا عن كل ما فى الجحيم من الشياطين ، فان ذلك لا يهمنى ! »

« ولكنه كان يصرخ مستغيثا كانه يشنق ! » .

« ان المرء ليصبح هاتفا باى شىء فى نومه » .

« ربما ، ولكن يجب ان نلقى نظرة على الاقل ، اضىء لنا نورا ! » .

وانتصب النورى الاخر على قدميه وهو يدمدم بينه وبين نفســه ، واشعل سيلا من الشرر استطار كومضات البرق ونفخ فى الصوفان ، ثم حمل فى يده « الكاجانتس » وهو المصباح الأوكرانى المالوف الذى يتالف من جرة مكسورة ممتلئة بدهن الضان ، وسار يضىء الطريق أمامه .

« قف ! ان ثمة من يرقد هنا ! سدد الضوء نحو هذا الموضع ! » .

ولحق بهما بعض رفاقهما .

« ما الذى وجدت يا فلاس ؟ » .

« يبدو لى انهما رجلان احدهما فوق الآخر ، ولا استطيع ان اتبين : من منهما الشيطان ؟ » .

« عجبا ، هو ذلك الذى يعلو الآخر ؟ » .

« انه امراة ! » .

« اذن فهاك الجواب ، انها هى الشيطان ! » .

وانفجر الجمع ضاحكين حتى اوشكوا أن يوقظوا الشارع كله .

وقال واحد من النظارة : « امراة تركب رجلا ! لعمرى انها تعلم كيف تركبه ! » .

قال آخر وهو يلتقط قطعة مكسورة من القدر التى كان نصفها فقط لا يزال يعلو راس شيريفيك : « انظروا ايها الرفاق ! ما ابدع القبعة يرتديها هذا الفتى الظريف ! » .

وعلت ضوضاء الجماعة وضحكاتهم فدبت الحيـــاة فى جثتى صاحبينا ، واخذ شيريفيك وزوجته اللذان ـ كانا ممتلئتين بالرعب مما حل بهما ، يحملقان فى فزع فى وجوه النور السمر التى بدت لهما فى الضوء الخافت المتراقص كوجوه عشيرة همجية من الأقزام سبحت فى دخان الجحيم الكثيف وغشيها ليل دامس لا ينجاب له ظلام .

- ١٠ -

الا سحقا لك ياشبح الشيطان ،
واغرب عنا بوجهك !
(من ملهاة أوكرانية)

وتنفس نسيم الصباح العليل فشمل اهل سوروتشنتسى الذين كانوا ينفضون سلطان الكرى عن عيونهم ، وتصاعدت سحب الدخان من جميع المـداخن لتلقى الشمس الطـالعة ، وبدأت السوق تجيش بدبيب الحياة ، واخذت الأغنام تثغو والجياد تصهل ، وعلا نقيق الاوز وصوت نساء السوق فشملا ارجاء المخيم كله مرة أخرى ، واختفت بانبلاج الصبح تلك القصص المرعبة عن السترة الحمراء التى أثارت الفزع فى ساعات الليل الحافلة بالغموض والأسرار .

وكان شيريفيك يتمطى ويتثاءب مغالبا النوم فى صـومعة صـديقه تسيبوليا المسقوفة بين الثيران وأكياس الدقيق والقمح ، والظاهر أنه لم يكن يود ان يفارق احلامه ، الا ان صوتا قطع عليه حبل خيالاته ، صوتا الفه لموقده ، ذلك الملجأ الأمين الذى كان يقضى فوقه ساعات الكسل والاسترخاء ، أو الفه الحانه التى يملكها ابن عمه ، ولا تبعد عن داره الا عشر خطوات أو نحوها .

وصرخت زوجه الحنون فى أذنه جاذبة ذراعه بكل ما أوتيت من قوة : « انهض ! انهض » .

ولم يجبها شيريفيك ، بل نفخ أوداجه ، واخذ يلوح بذراعيه كأنه يقرع طبلا .

وصاحت المرأة متحاشية ذراعيه اللتين أوشكتا أن تضربا وجهها : « ايها الأبله المخبول ! » .

واستوى شيريفيك جالسا ، وفرك عينيه وتلفت حوله .

« فليأخذني الشيطان يا عزيزتي ان لم أك قد تخيلت وجهك طبلا ، ولم اجد بدا من ان اقرعه ، كما يفعل الجندي المسكوفي بليل ، أجل اقرعه بوجوه تلك الخنازير التي كان تسيبوليا يحدثنا بأمرها » .

« كفاك هراء ! هلم وخذ الفرس الى السوق ! فما نحن الا قوم هازلون ، لقد جئنا الى السوق ولم نبع حفنة من القنب » .

فأمن شيريفيك على كلامها بقوله : « هذا صحيح ، وسيضحكون منا الآن بلا شك » .

« اسرع ! اسرع ! انهم يضحكون منك الآن فعلا ! » .

واسترسل شيريفيك يقول وهو يتثاءب ويحك ظهره محاولا كسب الوقت : « ولكنى لم أغتسل بعد » .

« ما انسبه من وقت تشغل فيه بالنظافة ! متى كنت تهتم بأمرها ؟ هاك منشفة ، امسح بها وجهك الدميم » .

واختطفت شيئا كان ملقى منفوشا بجـــوارها ، ثم القت به فى ذعر ، وكان هذا الشيء هو ردن السترة الحمراء !

ورات زوجها وقـد شل الفزع حركته واخذت اسنانه تصطك ، فاستعادت رباطة جأشها ، وعادت تكرر عليه القول : « اسرع وامض الى عملك » .

وغمغم بينه وبين نفسه وهو يحل زمام فرسه ويقودها الىالسوق:

« يا للتوفيق الذى سنلاقيه فى البيع الآن ! لا عجب اننى احسست وانا أتهيأ لهذه السوق الملعونة بهم ثقيل يجثم على قلبى كأنما انقض أحدهم ظهرى ببقرة نافقة ، وقد حاولت الثيران مرتين ان تعود ادراجها الى المنزل ، اما وقد بدات الآن أفكر فى الأمر فانى لأذكر اننا شرعنا فى رحلتنا يوم اثنين ، فساءت أحوالنا جميعا ! واستبد القلق بهذا الشيطان الملعون ! وربما ذهب بك الظن الى أنه قد يرتدى سترته بعد أن غاب أحد كميها ، ولكن كلا ، فانه لا يستطيع ان يترك اهل الاستقامة يسيرون فى طريقهم ! ولو كنت انا الشيطان ـ لا قدر الله ـ فهل تظنين اننى كنت اسعى ـ ليلا باحثا عن متاع من الخرق الملعونة ؟ ».

وفى هذه اللحظة انبعث صوت أجش قطع تأملات شيريفيك ، وانتصب واقفا أمامه نورى طويل القامة .

« ما الذى تعرضه للبيع ايها الرجل الصالح ؟ » .

ولزم شيريفيك الصمت لحظة ، ثم نظر الى النورى من قمة رأسه الى أخمص قدميه وقال فى صوت هادىء لا اضطراب فيه ، ولم يتعلثم او يترك العنان .

« تستطيع أن ترى بعينيك ما أبيع » .

فقال النورى وهو ينظر الى العنان الذى كان شيريفيك ممسكا به السرج .

« أجل السرج ، اذا كانت الفرس تشبه السرج ! » .

« انى لأحسب انك علفتها قشا ايها الجار ! » .

« قشـــا ؟ » .

وعندئذ هم شيريفيك أن يجذب العنـان ليقود فرسه الى الأمام مظهرا لهذا المفترى العياب الصفيق الوجه مبلغ كذبه ، الا أن يده

تحركت فى سهولة عجيبة ولطمت ذقنه هو ، والقى شيريفيك ببصره فوجد فى يده عنانا مقطوعا كان قد ربط بعنان الفرس ، يا للهول ! لقد وقف شعر راسه ، اذ راى قطعة من كم احمر ! فبصق ثم رسم علامة الصليب ، وهرب من هـــذه العطية غير المنتظرة ، وجرى بأسرع ممـــا يجرى رجل فى نصف عمره ، ثم اختفى وسط الزحام .

— ١١ —

ضربونى من اجل ما فى يدى
من قمح يخصنى .
(مثل)

وصاح بعض الغلمـــان فى الدرب الذى ينتهى به الشـــارع : « امسكوه ! امسكوه ! » ، واحس شيريفيك بايد قوية تمسك به فجأة .

« قيدوه ! فانه الرجل الذى سرق فرس رجل امين » .

« خبرونى بارك الله فيكم ! لم تقيدونى ! » .

« انظروا كيف يسأل عن السبب ! ما الذى حملك على ان تسرق فرسا من شيريفيك الفلاح ؟ » .

« لقد فقدتم عقولكم أيها الغلمان ! فهل سمح احد قط برجل يسرق نفسه ؟ »

« هذه حيلة قديمة ! حيلة قديمة ! والا فماذا دهاك حتى كنت تركض باقصى سرعتك كأن الشيطان نفسه كان فى أعقابك ؟ » .

« ان اى انسان ليركض اذا كانت سترة الشيطان ... » .

« هذه الخدعة لا تنطلى علينا ايها الرجل الساذج ! رويدك ، ولتنالن جزاءك من مساعد القاضى ، وليعلمنك الا تسير ملقيا الرعب فى قلوب الناس بحكايات ترويها عن الشيطان ! » .

وانبعثت صيحة من الطرف الأخر من الشـــارع : « امسكوه ! امسكوه ! فهذا هو ! هو بعينه ! » .

ورأى شيريفيك صديقه تسيبوليا فى اشد حالات الفزع والرعب وقد ربطت يداه خلف ظهره وراح بعض الغلمان يقودونه .

وقال واحد منهم : « ان ثمة امورا غريبة تحدث هنا ! ولتسمعن الى مايقول هـذا النصـاب ! وحسبكم أن تنظروا الى وجهه حتى تتبينوا أنه لص ! وقد سألناه : لم أطلق لساقيه العنان كالمجانين ؟ فقال : انه دس يده فى جيبه ليخرج صندوق سعوطه فاذا بها تجذب بدلا منه قطعة من سترة الشيطان لم تلبث أن استحالت الى شعلة حمراء ، فولى الأدبار ! » .

« وى ! ان الطيور على اشكالها تقع ! وخير لنا أن نقيدهما معا ! » .

- ١٢ -

قال صاحبنا الشقى المسكين :
« ما ذنبى اليكم ايها القـــوم
الصالحون؟وما بالكم تعذبوننى؟»
وماذا فعلت حتى تسيئوا الى؟
ثم هتف وقد انخرط فى البكاء
وانهمرت الدموع السخينة من
عينيه ، وامسك بخـاصرتيه :
« لماذا ؟ لماذا ؟ » .
(ارتيموفسكى ــ جـــولاك
« السـيد والـكلب »)

وسأل شيريفيك صاحبه تسيبوليا وهو يرقد مقيدا بجواره فى كوخ مسقوف : « لعل يدك امتدت حقا الى شىء يا صديقى ؟ » .

« أو منك ايضا اسمع هذا ايها الصديق ؟ الا شلت ذراعاى وساقاى ان كنت قد سرقت شيئا فى حيـــاتى ، اللهم الا كعيكات بالقشدة مسكرة كنت اسرقها من امى ، وانما كان ذلك قبل أن أبلغ العاشرة » .

« لم حل بنا هذا البلاء أيها الصديق ؟ ولكن مصيبتك أهون من مصيبتى ، فانك لم تتهم الا بسرقة غيرك ، ولكن ماذا فعلت انا الشقى التعس حتى استحق هذه التهمة النكراء وأرمى بسرقة فرسى من نفسى ؟ يخيل الى يا صاح انه قد كتب علينا يوم ولادتنـا أن يجافينا التوفيق ! » .

« ويل لنا نحن البائسين المنبوذين ! » .

ثم انفجر الصديقان ينتحبان :

قال جريتسكو وهو يدخل الكوخ : « ماذا دهاك ياسولوبى ؟ ومن قيدك هكذا ؟ » .

وصاح شيريفيك وقد تهللت أساريره : « آه ، جولوبوينكو ! هذا هو الشاب الذى كنت احدثك عنه يا صديقى ، الا فلينفذ فى الله قضاءه فى التو واللحظة ان لم يك قد جرع من الخمر ابريقا كاملا فى مثل حجم راسك تقريبا دون أن تهتز له شعرة ! » .

« فما الذى حملك اذن على الحط من قدر شاب مليح كهذا ؟ » .

واسترسل شيريفيك يقول مخاطبا جريتسكو : « يخيل الى ان الله جازانى على ما اسلفت فى حقه من اساءة ، فاصفح عنى ايها الشاب الكريم ، واقسم لك انه ليسعدنى ان اسدى اليك اى معروف ، ولكن ماذا كنت تنتظر منى ان افعل ؟ ان الشيطان قد ركب امراتى العجوز !» .

« لست ممن يذكرون الاســاءة ياسولوبى ، فان شئت اطلقت سراحك ! » .

ثم غمز بعينيه للفتيان الآخرين ، فهب أولئك الذين كانوا يحرسونهما انى فك وثاقهما : « ولكنك مطالب بأن تفى بوعدك أيضا ، الا وهو الزفاف ! ولنحتفل به ولنرقص حتى نحس بالألم يسرى فى سيقاننا سنة بطولها من بعده ! » .

وقال شيريفيك وهو يضرب كفا بكف : « مرحى ! مرحى ! انى لأشعر بالسعادة تغمرنى كأنما قد حمل المسكوف امراتى وهربوا بها ، وما الذى يدعونى الى معاودة التفكير فى الامر ؟ ليكونن الزفاف اليوم ان خطأ وان صوابا ، وهذا هو كل ما فى الأمر ! » .

« تذكر يا سولوبى هذا الوعد ، وسأوافيك بعد ساعة ، ولتذهب الآن الى دارك فتجد من يطلب منك شراء فرسك وقمحك » .

« كيف ؟ هل عثرتم على الفرس ؟ » .

« اجـل » .

وعقد الفرح لسان شـيريفيك ، فوقف بلا حراك يشيع جريتسكو بنظراته ، وقال النورى الطويل القامة للشاب الذى كان يغذ السير : « ما قولك يا جريسكو ؟ اظن انك لا تستطيع أن تزعم اننى افسدت الأمر ! لقد اصبحت الثيران الآن من حقى ، اليس كذلك ؟ » .

« بلى ! » .

- ١٢ -

لا تراعى ، لاتراعى ياحبيبتى
والبسى حـذاءك الأحمر وطئى
أعــداءك تحت قـدميك حتى
يصلصل كعبــاك المكسوان
بالحديد وتخرس ألسنة أعدائك
فلا يبدوا حراكا !

(أغنية زفاف)

جلست باراسكا وحيدة فى الكوخ تتأمل وتتفكر مسندة ذقنها الجميل الى يدها ، وطافت برأســها الجميل احلام واحلام ، وكانت تداعب شفتيها القرمزيتين ابتسامة من حين الى حين ، ويخالجها شعور سار مفرح فترفع حاجبيهــا الأسودين ، ثم تغشاها سحابة من شجن ، فتقطبهما فوق عينيها العسليتين الصافيتين .

وهمست فى لهجة تنم عن الشك : « ولكن كيف تكون الحال اذا لم يتحقق ما قال ؟ وكيف اذا رفضوا أن يزوجونى اياه ؟ وكيف وكيف .. كلا ، كلا ، هذا لا يمكن ان يكون ابدا ! ان زوجة أبى تفعل ما تشاء ، فلم لا أفعل انا ما أشاء ؟ وقد طبعت على العناد الشديد ، أنا أيضا . الا ما أملحه ! وما ابدع عينيه السوداوين فى تألقهما!ولكم يطيب لى ان اسمعه يقول : « حبيبتى باراسكا ! » ، ويا لسترته البيضاء التى تناسبه ! على ان حزامه يجب ان يكون اكثر تألقا ! وسأنسج له حزاما عندما تستقر بنا الحال فى كوخ جديد » .

واخذت من صدرها مرآة صغيرة لها اطار من الورق الأحمر كانت قد اشترتها من السوق ، وراحت تحدق فيها وقد خالجها شعور خفى بالرضا ، ثم مضت تقول : « لا اتمالك نفسى من السرور عندما أفكر فى أننى سألقاها يوما فى مكان ما .. ولسوف تنفجر غضبا قبل أن انحنى لها ! جل يا زوجة الأب ، لقد نلت من كنتك مافيه الكفاية ، ولن أنحنى لك الا اذا نبتت الأزهار فى صميم الصخر وحنت شجرة السنديان على كما تحنو شجرة الصفصاف . ولكن لقد كدت انسى .. فانى اريد أن أجرب لبس قبعة المراة المتزوجة ، ولو كانت قبعة زوجة أبى، هل تناسبنى ؟ » .

ثم نهضت وقد امسكت المرآة بيدها وحنت راسها لترى خيـاله فيها ، وراحت تسير فى الغرفة بحذر كأنما تخشى الوقوع ، فلم تر اديم الغرفة تحت قدميها ، بل رات السقف تعترضه الألواح المستندة الى الروافد ، وهو الذى وقع منه ابن القس اخيرا ، كما رات الأرفف وقد رصت عليها القدور .

وهتفت ضاحكة : عجبـا ، اننى ابدوا كالطفل يخشى أن يخطـو خطـوة ! » .

وشرعت تدق الأرض بقدميهـــا فى لطف ، وكلما مضت فى ذلك ازدادت جرأة ، ثم وضـعت آخر الأمر يدها اليسرى على ردفها ، وراحت ترقص مجلجلة بكعبيها المكسوين بالمعدن مادة المرآة امامها صادحة بأنشودتها المحبوبة :

ايتها « الونكة » الخضراء الصغيرة (١)
التفى واهبطى الى !
وانت ايتها الحبيبة الـكحيلة العين

(١) الونكة : نبات مزهر .

اقبلى على !
أيتها الوتكة الخضراء الصغيرة
التفى واهبطى ثم اهبطى الى !
وانت ايتها الحبيبة الـكحيلة العين
اقبلى على اكثر واكثر !

واطل شيريفيك من الباب فى تلك اللحظة فراى ابنته ترقص أمام المرآة ، فوقف ساكنا ، وظل يرقبها طويلا وهو يضحك من هذه النزوة الغريبة التى تملكتها . وكانت الفتاة فيما يبدو قد استغرقت فى الرقص فلم تلحظ شيئا وما أن سـمع الأب نغمات الأنشودة المألوفة حتى شعر بالدم يتدفق فى عروقه ، فخطا الى الأمام وطوح بذراعيه الى الوراء فى مرح ، وراح يرقص ناسيا كل ما كان ينبغى أن يفعله ، وانطلقت ضحكة عالية من فم صـديقه تسـيبوليا ، فأفزعت الأب وابنته جميعا !

« يا للمنظر البديع ! الأب وابنته يقيمان زفافا لحسابهما ! هيـا وعجلا فقد جاء العروس ! » .

وصبغت حمرة الخجل وجه باراسكا عند سماعها هذه العبارة ، حتى غدا اشد احمرار من الشريط الذى ربطت به راسها ، وتذكر أبوها الطروب واجبه .

فانشأ يقول وهو يتلفت حوله فى خجل : « هيا يا ابنتى » ولنعجل ! فقد استخف الفرح خيفريا اذ علمت اننى بعت الفرس ، ومضت تشترى لنفسها نقبات وهلاهيل من كل صنف ولون ، وعلينا أن ننتهى من الأمر جميعا قبل أن تعود » .

وما ان اجتازت باراسكا العتبة حتى شعرت بذراعى الشاب صاحب السترة البيضاء تطوقانها ، وكان ينتظرهاخارج الدار ومعه حشد من الناس .

وقال شيريفيك وهو يجمع أيديهما بعضهما الىبعض : « فليباركـكما الله ولترتبط حياتكما ارتباط الزهر فى باقته ! » .

وما أن بلغ هذا الحد حتى انبعث الضجيج من بين صفوف القوم.

وصاحت شريكة حياة شيريفيك قائلة : والحشد الضاحك يدفعها الى الوراء : « فلتنشق مرارتى ولا أسمح بهذا ! » .

فقال شيريفيك فى برود وقد رأى رجلين قويين من النور يمسكان بيديها : « هدئى روعك يا امرأة ! ان ما تم لا يمكن الرجوع فيه ، وانا لا أحب أن أسحب كلمتى ! » .

فصاحت خيفريا : « كلا ، كلا لن يكون هذا ! » ، ولم يلق أحد اليها بالا ، وأحاط عدد من الأزواج والزوجات بالعروسين السعيدين ، وأقاموا حولهما نطاقا راقصا لا سبيل الى اختراقه .

ولو ان انسانا راى هذا الحشد كله وقد جمع بين أفراده مشهد من الوحدة والانسجام اشاعتهما فى قلوبهم لمسة واحدة من قوس عازف الكمان ذى الشارب الطويل المفتول والسترة المغزولة فى البيوت لتملكه شعور غريب يعز عن الوصف . فقد انبعث رجال بدا من وجوههم العابسة انه لم تطف بها قط ابتسامة أو ظلها ، وراح كل من يلوذ بالحشد يدور ويرقص ، بل ان من قدر له أن يرى هذا المشهد ليتملكه شعور أكثر غرابة من ذلك وأشد اعجازا اذا هو راى العجائز من النســاء اللواتى تحمل وجوههن العتيقــة برود القبر وهموده وقد شـــققن طريقهن بين صفوف الشباب الضــاحكين الزاخرين بالحياة ، وكان الشراب وحده هو الذى يحملهن على القيام بأفعال تشبه أفعال البشر حتى لكأن هذا الشراب عامل بارع يحرك انسانا ميكانيكيا لا حيــاة فيه . لقــد كانت هؤلاء النسوة اللاتى لايحفلن بشيء ولا يسرى فى أعطافهن مرح الشباب ولا يغمر قلوبهن أثر من عاطفة أو ومضة من ومضات التجاوب ، يهززن رءوسهن الثملة فى بطء وتمهل ، ويرقصن منســـاقات مع الحشد المرح الطروب ، دون ان يحفلن بالقاء نظرة على العروسين الشابين .

وأخذت أصــوات الضحك والغناء والضجيج تخفت ثم تخفت ، وانطوى تغريد الكمان فى أنغام مبهمة واهنة ثم تلاشى فى الفضاء . وكانت أصوات الأقدام وهى تدق على الأرض لاتزال تسمع من بعيد كأنها الهدير ينساب الى الأذن من مكان قصى ، وسرعان ما انتهى كل شيء الى سكون وخواء .

أليس هـذا هو حال الفرح ، ذلك الضيف الجميل المتقلب ، حين يولى عنـــا ؟ وهيهـات ان تعبر النغمة الأخيرة عن السرور والانشراح ، فهى تسمع فى صداها هى نفسها رنة الحزن والخواء وتنصت اليه ذاهلة حيرى . ثم أليس هذا ايضا هو حال أولئك الصحاب الذين يلهون ويمرحون فى شبابهم الحر الطليق العاصف، ثم يغيبون واحداً بعد واحد فى خضم هذا العالم الواسع ، ويتركون خلفهم القديم يعانى ما يعانى من الوحـدة والحسرة ؟ ألا ما أتعس حظ من يبقى بعدهم ! ان قلبه لينوء بالهم والحزن وحـده بلا معين ولا نصير !

ليلة عيد القديس يوحنا

ليلة عيد القديس يوحنا (١)

قصة حقيقية رواها قندلفت

لقد اثر عن فوما جريجوريفتش انه كان يكره كراهة التحريم ان يكرر قصة من قصصه ، على انه كان يستجيب لذلك احيانا اذا اقنعه أحد ، فان فعل اقحم عليها شيئا جديدا ، او بدل فيها تبديلا يغير معالمها الأصلية حتى يلتبس أمرها عليك . وقد حدث ان واحدا من هؤلاء الناس — ويصعب علينا نحن البسطاء ان نعرف كيف نسميهم ، ذلك انهم ليسوا من السماسرة ، وانما هم اقرب الى البياعين فى اسواقنا يستجدون ، ويخطفون ، وينشلون كل شىء ، ثم هم يخرجون كتابا صغيرا كل شهر او كل اسبوع ، لايزيد فى حجمه على كتب القراءة المخصصة للأطفال — اجل، حدث ان انتزع احد هؤلاء السادة هذه القصة بعينها من فوما جريجوريفتش الذى نسى كل شىء عنها . وقد اتفق ان وصل هذا السيد الشاب الى بلتاوة ، وهو الذى حدثتكم بأمره وشيكا ، وقرأتم فيما احسب قصته ، وكان يحمل معه كتابا صغيرا فتحه فى منتصفه ثم اطلعنا عليه ، وهم فوما جريجوريفتش بأن يضع نظارته على قصبة انفه ، الا انه تذكر انه قد نسى اصلاحها بالخيط والشمع فناولنى الكتاب ، ولما كنت اعرف القراءة ولا البس النظارات شرعت اقرأ بصوت مرتفع ، وما ان قلبت صفحتين حتى امسك فوما جريجوريفتش بذراعى فجأة ثم قال :

(١) يوم عيد القديس يوحنا : عيد قديم من اعياد الصيف ، والاعتقاد الشائع أن السرخس يزهر ليلة العيد ، وأن من يقتطف زهرة يجد كنزا دفينا .

« انتظر لحظة ، وقل لى أولا : ماذا تقرأ ؟ »

ولا اخفيك ان سؤاله هذا اصابنى بشىء من الذهول .

« ماذا تعنى يافوما جريجوريفتش ؟ اننى اقرا قصتك .. بل كلماتك بعينها » .

« من قال لك انها قصتى ؟ » .

« وأى دليل أفصح من هذا تريد ؟ لقـــد طبع هنا : رواها فندلفت كيت وكيت »

« لعنة الله على من طبع هذا ! وياله من وغد كاذب ! أوهكذا رويت أنا القصة ؟ اعيرونى اسماعكم ، سأقصها عليكم الآن » .

وانتقلنا الى المائدة وشرع فوما يقص علينا قصته .

كان جـدى « رحمة الله عليه ، وكتب عليه الا يأكل فى العالم الآخر الا الارغفة المصنوعة من الدقيق الفاخر والكعك المصنوع من الخشخاش المخلوط بالشهد ! » قصاصا عظيما ، ما ان يشرع فى الحديث حتى تنصت اليه اليوم بطوله دون ان تحرك ساكنا . ولم يكن الرجل من طراز ثرثارى اليوم الذين يجعلونك تحس باحساس من يلتقط قبعته ويمضى بمجرد أن يراهم يبدءون فى نسج خيـوط روايتهم بطريقة يخيل اليك معها انهم ظلوا ثلاثة أيام لايجدون شيئا يأكلونه . وانى لأذكر جيدا كيف كانت أمى ، تلك السيـدة العجوز التى كانت على قيد الحياة وقتئذ ، تجلس فى امسيـات الشتـاء الطويلة ، والصقيع يغطى نافذة كوخنا الصـغيرة ، ممسكة بيـدها المغزل تجذب منه خيطا طويلا وتهز المهد بقدمها منشـدة أنشودة يبدو لى انها لا تزال ترن فى اذنى حتى الآن . وكان المصباح يضىء الكوخ وهو يهتز ويرتجف كأنما كان يخشى شـيئا ، والمغزل يطن ونحن الاطفال نتكأكأ حول جدى منصتين اليه ، وكان الرجل قـد طعن فى السن حتى انه لم يهبط من الموقد فى السـنوات الخمس الماضية الا لماما . على ان رواياته العجيبة عن الأيام الخالية وعن غزوات القوزاق الزابورجيين والبولنديين والفعال المجيدة التى قام

بها بودكوفا وبولتورا كوزوخا وساجايداتشنى لم تك لتنال من اهتمامنا ما تناله القصص الخيالية المخيفة التى تتناول حوادث وقعت منذ أمد بعيد ، وكانت هذه القصص يقف لها شعر رأسنا دائما ، وتسرى الرعدة فى أجسامنا ، بل ان الفزع كان يستبد بنا أحيانا ، فاذا جن الليل بدا لنا كل شىء غريبا مخيفا . وكان الواحد منا يخرج فى بعض الأحيان من الكوخ لبعض شأنه ليلا ، فيخيل اليه ان زائرا من العالم الآخر قد اندس فى فراشه. ألا فليحل بى القضاء ولا يكتب لى ان اعيش حتى اقص هذه القصة مرة أخرى ان كنت اكذب فى قولى بأن الشيطان فيما يخيل الى قد دفع سترتى فانطوت طى الوسادة . على ان أهم ما كانت تتصف به قصص جدى هو انه لم يكذب فى حياته قط ، بل ان كل ما رواه لنا قد وقع فعلا .

وسأقص عليكم الآن قصة من قصصه العجيبة ، وانى لأعلم ان طائفة كبيرة من ذوى الفطنة يشبجون فى المحاكم مايشبجون بل يقرءون الخط الحديث ، وان كانوا لايستطيعون اذا وضعت بين ايديهم كتاب صلاة بسيط ، أن يقرءوا حرفا واحدا منه ، ومع ذلك تجدهم قد برعوا أيما براعة فى التهكم والسخرية ! فهم يسخرون بكل ما تنبئهم به ، وهذا الكفر بدأ ينتشر فى أرجاء العالم كله ، عجبا ! انكم ستجدون مشقة فى تصديق ما أقول ، ولكن لتنزل بى نقمة الله والعذراء المقدسة ان كنت احنث فيما اقول . لقد بدرت منى ذات يوم كلمة عن الساحرات وكان بين القوم رجل جرىء القلب لايؤمن بهن ، وهأنذا قد عشت بفضل الله طوال هذه السنين وأدركت اناسا سهل عليهم الكذب أثناء الاعتراف بقدر ما سهل على ان أصيب شيئا من السعوط ومع ذلك فقد كانوا يرسمون اشارة الصليب ليستعيذوا من شر الساحرات ، ولكنهم اذا رأوا فى منامهم ــ ويحسن بى الا اذكر مايرون ــ فالله أعلم كيف يكون حالهم !

ولم يكن أحد يعرف حال قريتنا منذ سنوات طويلة تزيد على مائة عام على ما قال لنا المرحوم جدى ، فقد كانت دسكرة ، بل

أشد الدساكر فقرا ! كانت تتألف من اثنى عشر كوخا أو نحوها تناثرت فى الحقول دون ان تطلى بالملاط أو تعلوها سقوف مناسبة، ولم تك ثمة سياجات او حظائر بمعنى الكلمة يمكن ان تحفظ بها الماشية أو العربات ، اذ كانت هذه الحياة مقصورة على الأثرياء ، اما نحن فياليتك شاهدت أمثالنا من الفقراء ، فقد ألفنا ان نحفر حفرة فى الأرض ونجعل منها كوخنا ! ولم يك أحد ليدرى مقام عباد الله هؤلاء الا من الدخان المتصاعد من هذه الحفرة ، وما أحراك أن تتساءل : لم يعيشون على هذا النحو ؟ ولم يكن السبب فى ذلك هو الفقر ، فقد كان جل الناس فى تلك الأيام من القوزاق يرجعون الى ديارهم بزاد وافر من الطيبات يحملونه من البلاد الأخرى ، وانما كان السبب هو ان هؤلاء القوم كانوا يرون ان اقامة الكوخ الصالح أمر عديم الجدوى ، ذلك ان الناس على تباين أشكالهم كانوا يجوبون البلاد وقتئذ كأهل القريم والبولنديين واللتوانيين ، بل ان المواطنين كانوا يهبطون علينا أحيانا عصابات عصابات ويجردوننا مما نملك ، وكانت تختلف علينا الحوادث من كل نوع وصنف .

وكثيرا ما كان يظهر فى تلك الدسكرة رجل ، أو قل شيطان فى صورة انسان ، فلا يدرى احد : لم جاء أو من أين جاء ؟ كان يشرب ويمرح ، ثم يختفى كأنه تبدد فى الهواء ، ولا يعود يسمع عنه أحد خبرا ، ثم يتجلى فجأة كأنه هبط من السماء ، وينطلق فى طرقات القرية التى كانت لا تبعد عن ديكانكا اكثر من مائة خطوة تقريبا ، وان لم يبق لها أثر الآن ، وكان يلحق ببعض القوزاق الشاردين حينا ، فترتفع عقيرتهم بالضحك والغناء ، وينفقون المال عن سعة ، وتسيل الفودكا من بين أيديهم كأنها الماء ، ويخص بعنايته الفتيات حينا آخر ، فيغدق عليهن الأشرطة والأقراط والقلائد حتى يحرن ، فلا يعرفن ماعساهن أن يصنعن بها ، وكانت الفتيات بطبيعة الحال يفكرن مرتين قبل ان يتقبلن هداياه ، ذلك ان الشك كان يساورهن ، فمن يدرى ؟ لعل الشيطان نفسه هو مصدر تلك الهدايا ، وقد تحدثت عمة جدى فى هذا الأمر ، وكانت صاحبة

حانة على الطريق الذى يعرف اليوم بطريق اوبوشنيا حيث الف باسافريوك ــ وهذا هو اسم ذلك الفتى الشيطان ــ ان يختلف اليه كثيرا يلهو ويمرح . أجل تحدثت عمة جدى فقالت : انها ما كانت لتقبل هدية منه ولو وهبوا لها كنوز الأرض جميعا ، ولكن كيف كان يتاح لهن الرفض ؟ وقد كان الرعب يتملك الجميع اذا قطب حاجبيه الكثين ، والقى من تحتهما بنظرة تجعل أقوى الاقوياء يولى الادبار . واذا اتفق وقبلت فتاة هدية منه فقد كان من المحقق ان يزورها فى الليلة التالية خل من خلانه ينزل الى المستنقع وقد نبتت القرون فى رأسه ، ويحاول خنقها اذا كانت تلبس قلادة أو يعض اصبعها اذا كانت تلبس خاتما ، أو يشد شعرها اذا كانت تضع فيه شريطا ، اذن فلعنة الله على هداياه الجميلة ! على ان اشق ما فى الأمر هو انه كان من المستحيل عليك التخلص من هذه الهدايا ، فان ألقيت بها فى الماء طفت القلادة الملعونة أو الخاتم الملعون ، وعاد الى يديك مباشرة .

وكان فى القرية كنيسة ، هى كنيسة القديس بانتيلى ، ان لم تك خانتنى ذاكرتى ، وكان قسيسها فى تلك الأيام هو الأب افناسى ، طيب الله ثراه ، وقد لاحظ افناسى ان باسفريوك لم يختلف الى الكنيسة قط حتى فى أحد اعياد الفصح ، فحاول أن يلومه وينذره بالعقاب تنزله به الكنيسة ، ولكن لا حياة لمن تنادى ! فقد مر باسافريوك بحذائه مرة حتى كاد يحف به وأجابه صائحا : «استمع الى ياسيدى الصالح ، لتلزمن حدك ، ولا تتدخل فى شئون غيرك من الناس ، الا اذا كنت تريد ان يغص حلقك الذى يشبه حلق التيس بالبليلة الساخنة » ، فأى فائدة كانت ترجى من هذا الفتى الملعون ؟ لقد اكتفى الأب افناسى بأن اعلن ان كل من يعاشر باسافريوك يصبح كاثوليكيا وعدوا لكنيسة الله وللناس أجمعين .

وكان فى القرية نفسها قوزاقى يدعى كورز يستخدم عاملا عرفه الناس باسم بترو المقطوع النسب ، وربما كان السبب فى ذلك انه لم يكن يذكر والديه أحد ، وقد جرى سادن الكنيسة على القول

بأن والديه ماتا بالطاعون وهو بعد فى السنة الأولى من عمره ، على ان عمة جدى كانت تنكر ذلك كل الأنكار وتبذل قصارى جهدها فى خلع الانساب عليه . على ان بترو المسكين لم يك يهتم بأنسابه اقل اهتمام . وكانت هذه المرأة تقول : ان اباه لا يزال فى زابوروجى ، وان الترك اسروه ، وقاسىعلى ايديهم الوانا من العذاب لايعلمها الا الله ، ثم هرب بطريقة عجيبة متنكرا فى زى خصى . على انالفتيات ذات الحواجب السود والفيد من النساء لم يكن يحفلن بنسبه اقل احتفال ، بل اكتفين بالقول بأنه لو ارتدى رداء جديدا ، ولبس قبعة سوداء من فراء استراخان وحلاها بقنزعة زرقاء ، وتمنطق بحزام احمر ، وامتشق حزاما تركيا ، وحمل فى احدى يديهصوتا وفى اليد الاخرى غليونا جميلا ، لبز جميع شبان الناحية . الا ان بترو المسكين لم يك يملك الا سترة رمادية واحدة فيها من الثقوب اكثر مما فى جيب اليهودى من القطع الذهبية . ولم يكن هذا هو بيت القصيد ، وانما كان بيت القصيد هو انه كانت لكورز العجوز ابنة رائعة الحسن لا احسب انكم رايتم لها مثيلا من قبل، وكانت عمة جدى تقول ، والنساء كما تعلمون يؤثرن تقبيل الشيطان ، وقاكم الله ، على ان يصفن الفتاة بالحسن : ان وجنتى الفتاة المكورتين كانتا تحاكيان الخشخاش نضرة وبهاء اذ يبدو فى ارق حلله الوردية حين يتالق وقد جلله الندى ونشر أوراقه وراح يتأنق فى ضوء الشمس المشرقة ، وان حاجبيها الشبيهين بالعقود السود تشتريها فتياتنا اليوم من البائعين المسكوف المتجولين ليعلقن فيها الصلبان او قطع النقود ، كانا قد سويا فى اجمل تقويم حتى بدوا انهما يحدقان النظر فى عينيها الصافيتين ، وان فمها الصغير الذى كان الفتيان يكادون يلتهمونه بأنظارهم التهاما ، قد تجلىللناس كأنما خلق ليصدح بأنغام البلابل، وان شعرها الذى يشبه فىسواده الليل الفاحم ويحاكى فى نعومته نبات الكتان الفض ، كان يسترسل فى ثنيات غزيرة على سترتها الموشاة بالذهب « ولم تكن فتياتنا فى تلك الأيام يضفرن شعورهن ضفائر يربطنها بالأشرطة الزاهية اللون

ولا كتب الله لى أن اعود فاسبح بحمده مع المرتلين ان احجمت عن تقبيلها على الفور الآن ، على الرغم من الشيب الذى اخذ يدب فيما بقى لى من شعر فى رأسى ، وعلى الرغم من زوجتى العجوز التى تحل دائما عندما يقتضى الامرغيابها . على انكم تعلمون جميعا ماعساه أن يحدث اذا اقام فتى بالقرب من فتاة . لقد كانت آثار الحذاء الأحمر الصغير تشاهد ، قبل مطلع الشمس ، فى البقعة التى كانت بيدوركا تحادث فيها بترو ، على ان كورز لم يكن ليساوره فى الأمر أدنى شك ، لولا ان بترو ــ ولاشك ان هــذا من فعــل الشيطان ــ ركب راسه يوما فطبع على شفتى الفتاة القوزاقيــة الورديتين قبلة قوية فى غرفة الانتظار دون ان يستوثق تماما من انه بعيد عن عيون الرقباء . وقد اغرى ذلك الشيطان نفســه ــ وليرين ابن الكلب هذا الصليب المقدس فى منــامه ! ــ بأن يدفع الرجل العجوز الى ان يفتح البــاب ، ثم وقف كورز مشــدوها ، وتعلق بالباب فاغرا فاه ، والظاهر ان القبلة الملعونة أدارت رأســه تماما حتى بدت له أعلى صوتا من الرطمــة تصيب جــدار المدوك يجلجل به الفلاحون فى أيامنــا لطرد الأرواح الشريرة ، اذ كانت تعوزهم البنادق والبارود .

وافاق كورز من ذهوله ، فجذب سوط الركوب الخاص بجده من الحائط ، وهم بأن يهوى به على ظهر بترو المسكين ، واذا بايفان اخى بيدوركا البالغ من العمر ست سنوات يهرع الى الغرفة ويطوق بذراعيه ساقى العجوز ، وقد تملكه الفزع ، وأخذ يصيح : « لا تضرب بترو يا أبتاه ! »

ولم يكن فى الأمر حيــلة ، ذلك ان قلب الأب لم يكن قد من صخر ، فعلق السوط على الجدار ، وساق بترو فى هدوء خارج الكوخ ، وقال له : « لو رأيتك مرة اخرى فى كوخى أو ظهرت تحت النوافذ وحسب لحففت شاربك الأسود ، وانتزعت قنزعتك من جلد راسك وان كانت من الطول بحيث تلتف مرتين حول أذنيك، ولا كنت تيرنتى العجوز ان لم افعل ! »

وما ان أتم قوله حتى لطمه لطمة خفيفة على قفاه ، فانكفأ بترو على وجهه فلم يبصر شيئا ، وكان ذلك عاقبة قبلاته .

وفاض الحزن بحبيبينا المتناجيين ، ثم انطلقت اشاعة فى القرية تقول : ان زائرا جديدا كان يشاهد دائما فى محل كورز وكان هذا الزائر رجلا بولنديا يرفل فى وشى من ذهب ، وله شارب وسيف ومهماز وجيوب ترن رنين الجرس على الكيس يحمله تاراس قندلفتنا فى تجواله حول الكنيسة كل يوم . وانا لنعلم جميعا : لم يزور الناس ابا فتاة كحيل العين ؟ وقد اتفق ذات يوم ان اخـــذت ببدوركا اخاها الصغير ايفاس بين ذراعيها وهى غارقة فى دموعهـا وهتفت به قائلة : « ايفـاس ياحبيبى ! انطلق انطـلاق السهم من قوسه ، ياقرة عينى ، وامض الى بترو ، وقل له كل شىء ، قل له : ان مناى ان أهيم فى حب عينيه العسليتين ، وان اقبل وجهه الجميل ، ولكن القدر يأبى على ذلك . لقـد بللت بدموعى الحرى اكثر من منديلين كبيرين ، اما قلبى فيكاد ينفطر من الحزن والأسى! ان أبى هو عدوى وهو يـكرهنى على الزواج من ذلك البولنـدى البغيض ، قل له : انهم يستعدون للزفاف ، ولـكن لن تصـدح الموسيقى فى زفافنا ، وسيرتل القساوسة بدلا من المزماروالقيثارة، ولن اخرج للرقص مع عروسى ، بل سيحملوننى حمـلا ، وسيخيم الظلام على مسكنى المصنوع من خشب الأسفندان ، وسيرتفع فوقه صليب بدلا من المدخنة ! »

ووقف بترو مشدوها بلا حراك كالحجر الاصم ، وهو يستمع الى كلمات بيدوركا يلقيها عليه الطفل الساذج ، وقد شاب نطقه لثغة :

« اما انا الفتى المسكين التعس فقد كنت افكر فى الذهاب الى القريم أو تركية لافوز بالذهب فى الحرب ، ثم اعود اليك ياحبيبتى، ولكن هيهات ! لقد أصابتنا عين شريرة حسود وسيكون لى أنا أيضا زفاف ياحبيبتى ، ولكن لن يشهد زفافى احد من رجال الدين، بل سينعق الغراب الأسحم فوق رأسى بدلا من القسيس ، وســيكون

السهل الواسع مسكنى ، وغيوم العاصفة الكالحة السقف الذى يظلنى ، ولينتزعن النسر عينى العسليتين ، وتكتسح الأمطارعظامى القوزاقية ثم يجففها الأعصار، ولكن ماهذا الذى اقول ؟ ولمن اشكو؟ وممن ؟ يخيل الى انها ارادة الله ، فان كان قد كتب على الهلاك فانى لا محالة هالك ! » ، ثم مضى الى الحانة لايلوىعلى شىء .

وتولى عمة جدى شىء من الدهشة عندما شاهدت بترو يلم بالحانة فى ساعة يقف فيها المسيحى الصالح بين يدى ربه يؤدى صلاة الفجر ، وحملقت فيه مذهولة حين طلب ابريقا من الفودكا سعته نصف سطل أو يكاد ، وعبثا حاول الفتى المسكين‌ان يغرق احزانه فى الخمر ، فقدكانت الفودكا تلسع لسانهكحشيشة القريض، وتراءى له انها أمر من الشيبة ، فالقى بالأبريق على الأرض .

وانبعث صوت من فوق راسه يقول : « خل عنك الحزن ايها القوزاقى ! »

فالتفت ــ واذا به يجد باسافريوك ! اف ، يا لغرابة منظره ! لقد كان شعره كالشوك ، وعيناه كعينى النور .

« انى لأعلم ما انت فى حاجة اليه : انه هذا ! » ثم ضحك ضحكة شيطانية ، وراح يصلصل بالجيب الجلدى الذى كان يحمله فى حزامه .

وجفل بترو :

وصاح الرجل الآخر وهو يصب القطع الذهبية فى يده المبسوطة كالوعاء : « ها ! انظر كيف تتألق ! وكيف ترن ! وانك لتعلم اننى لا اسألك نظير كومة كاملة من هذه الشخاشيخ البراقة الا امرا واحدا »

فصاح بترو : « يا للشيطان ! افصح ، فانى مستعد ان افعل اى شىء ! » وتصافح الرجلان على ما تعاهدا .

« اعلم يابترو بانك جئت فى وقتك ، ففى الغد يكون عيد القديس يوحنا المعمدان ، وهذه هى الليلة الوحيدة فى السنة التى يزهر فيها الديشار ، فاياك ان تضيع هذه الفرصة ، وسأكون فى انتظارك حين ينتصف الليل فى اخدود الدب »

ولا اظن ان شـوق الدجاج الى اللحظة التى تجىء له فيها ربة الدار بالحب كان اشد من شوق بترو لحلول المساء ، وراح الفتى لايمل من النظر ليرى : ايطول الظل الذى تلقيه الشجرة ، ويتورد ضوء الشمس الغاربة بحمرة الخجل ؟ وكان صبره ينفد ثم ينفـد كلما مرت الساعات ، ويالها من ساعات تمر بطيئة ثقيلة ! وكان النهار الذى خلقه الله قد ضل فلم يعرف له نهاية ينتهى عندها ! ثم غربت الشمس آخر الأمر ، ولم يبق الا خط احمـر يلوح فى جانب من السماء . على ان هذا الخيط ايضا كان آخذا فى الزوال، وقد ازداد الجو برودة فى الحقول ، وراح الضوء يخفت ثم يخفت حتى ادلهم الظلام أخيرا ! ومضى بترو فى طريقه وقد هم قلبـه بأن يقفز من بين ضلوعه ، ثم هبط فى حذر مجتازا الغابة الكثيفة حتى بلغ شقا عميقا فى الأرض كان النـاس يعرفونه باسم اخدود الدب. وكان باسافريوك قد سبقه الى ذلك الموضع ، واصبح الليل حالك السواد لايرى فيه المرء كفه اذا بسطها امامه ، واخـذ كل منهما بيد صاحبه ، وشقا طريقهما فى مستنقع موحل ، فعلق الشوك النامى فيه بملابسهما ، وراحا يتعثران فى كل خطوة يخطوانها تقريبا، ثم بلغا آخر الأمر مكانا مستويا ، وتوقف بترو ليرى ماحوله ، ذلك انه لم يكن قد الم بهذا الموضع من قبـــل قط ، وتوقف باسافريوك ايضا .

« اترى هذه الروابى الثلاث التى امامك ؟ لسوف تنمو فوقهـا الأزهار من جميع الألوان والأشكال ، ولـكن لتحفظك الأرواح التى تحل فى هذا المكان من ان تقطف زهرة منها . ومتى ازهر الديشار كنت فى حل من ذلك ، ولكن لا تلتفت وراءك مهما تخيلت من شىء يدور وراءك » .

واراد بيترو ان يساله سؤالا ، ولكن هيهات ! لقد اختفى الرجل وصعد الى الروابى الثلاث . فاين هى الأزهار؟ ولكن بيترو لم ير منها شيئا ! فقد كان العشب الغزير قد غشيه السواد فى كل مكان وطغى بغزارة نموه على كل ما عداه ، ثم انبعثت فى السماء ومضة من برق الصيف ورأى بيترو امامه مهدا كاملا من الزهور ، كلهـا رائع وكلها جديد عليه ، ورأى هناك أيضا ريش الديشار البسيط ،

فتحير فى أمره ووقف مذهولا وذراعاه فى خاصرتيه .

« ولكن ماوجه العجب فى ذلك ؟ ان المرء ليشاهد من هذا القبيل اشياء مرات كل يوم ، وما من عجب فى ذلك ، ومن يدرى لعل الشيطان اراد أن يسخر منى ؟ »

ورأى فجأة زهرة صغيرة تلتفت وتتحرك كأنما دبت فيها الحياة. لقد كانت هذه الزهرة مدهشة حقا ! ذلك انها أخذت تتحرك وتنمو ثم تنمو ثم تضرب الى الأحمرار كالجمرة ، وبزغ على حين غرة نجم صغير ، وانتزع شىء من الأشياء من مكانه ، وتفتحت الزهرة امام عينى بترو ، وسكبت الضوء على ماحولها من الزهور كأنها الشعلة .

وقال بترو بينه وبين نفسه : « لقد حان الوقت ! » ومد يده، الا انه رأى بغتة مئات من الأيدى الخشنة الكثة تمتد من خلفه تجاه الزهرة ، واخذ شىء يمرق من خلفه روحة وجيئة ، واغمض الفتى عينيه وجذبالساق فاذا بالزهرة فى يده ، ثم ساد السكون، وظهر باسافريوك وقد شحب لونه شحوب الموتى جالسا على جذمور شجرة لايحرك اصبعا ، وعيناه متعلقتان بشىء لايستطيع رؤيته الا هو ، وقد انفتح فمه نصف فتحة ولم يصدر عنه اى صوت ، ولم يتحرك شىء مما حوله . لقد كان الموقف رهيبا ! ثم انبعثآخر الأمر صوت صفير بعث الرعدة فى أوصال بيترو ، وخيل اليه ان العشب كان يتهامس والزهور تتحادث بأصوات رقيقة كأنها رنين الأجراس الفضية ، وتجاوبت الأشجار بزئير الرياح المزمجرة، ودبت الحياة فجأة فى وجه باسافريوك ولمعت عيناه ، ودمدم من بين اسنانه هاتفا : « لقد عدت أيتها الساحرة العجوز ! انظر يابيترو! لتسفرن لك غادة فاتنة ، فافعل كل ماتأمرك به أو تصبح من الهالكين ابد الآبدين ! »

ثم فرق بعصا ذات عقد شجيرة من الحسك ، واذا بكوخ صغير يظهر « كوخ ساحرة كما يقولون فى قصص الجن والعفاريت » وضرب باسافريوك الكوخ بقبضة يده فتداعى منه الجدار، وانطلقكلب اسود كبيرلملاقاتهما ، ثم استحالقطا وقفز هاربا وهو يصيح فى وجهيهما.

وقال باسافريوك : « لاتغضبى أيتها الســاحرة العجوز ! » ، ومزج عبارته بسباب يســد له الرجــل الصالح أذنيه ، وعندئذ انتصبت امراة عجوز فى الموضع الذى كان يقف فيه القط ، وقد علتها الغضون والتجاعيد كأنها التفاح المطهو ، وانحنى ظهرها حتى تلاقى انفها وذقنها ككسارة البندق .

وقال بيترو بينه وبين نفسه : « يا للجمال الفاتن ! » ، وسرت فى جسده رعدة .

واختطفت الساحرة الزهرة من يده ، وقضت وقتا طويلا تتمتم عليها وتنضحها بماء من نوع خاص وكان الشرر يتطاير من فمها وقد علت شفتيها شيات من الزبد ، وقالت وهى ترد اليــه الزهرة : « الق بها » ، فألقاها بيترو ، ومن عجب انها لم تقع على الأرض لتوها بل ظلت معلقة فى الفضاء وقتا طويلا كأنها كرة من نار تضىء فى الظلام ، ثم اخذت تطفو فى الهواء كالقارب ثم راحت تهبط فى بطء ، ثم سقطت بعيدا جدا حتى بدت كالنجم الصغير لايزيدحجمها عن بذرة الخشخاش ، وانبعثت العجوز تخرخر فى صــوت خاوى النبرات وهى تنشج نشيجا : « هاك! » ، ومضى باسافريوك يقول وهو يناوله مجرفا : « احفر هنــــا يابيترو ، تر من الذهب ما لم تحلم به انت أو كورز ! »

وتفل بيترو فى يديه ، واختطف المجرف ودفعه فى الأرض بقدمه واخرج التراب ثم ملأ مجرفا آخر بالتراب .. راتبعــه ثالثــا .. ورابعا ، ثم ارتطم المجرف بشىء صلب ، وابى أن يوغل فى الأرض أكثر مما أوغل ، واستطاع بيترو ان يبصر بعينى رأسه صنــدوقا صغيرا مطوقا بالحديد ، وحاول أن يمسكه ، ولكن الصندوقغاص فى الأرض ثم غاص، ورنتخلفه ضحكة كفحيح الأفاعىاو هىاقرب.

وهتفت به الساحرة : « كلا ! لن ترى الذهب حتى تريق دم انسى ! » ، وجاءت له بطفل فى السادسة او نحوها ملفوفا بغطاء من النسيج الأبيض ، وأخذت تشير اليه بأن يفصــل رأســه عن جسده ، وعقدت الدهشة لسان بيترو ، يا للهراء ! أيقتل انسيا ، بل طفلا بريئا ، من غير جريرة ؟ ونزع فى غضب غطاء النسيج عن الطفل ، فمـــاذا رأى ؟ راى أمامه ايفاس ! وكان الطفل المسكين قد

شبك يديه على صدره ، ونكس راسه ، وانقض بيترو كالمجنــون على الساحرة والسكين فى يده ورفع يده ليضرب

وصاح باسافريوك فى صوتكالرعد : « وأين وعدك الذى وعدت اكراما للفتاة ؟ » ونفذت كلماته فى قلب بيترو كالرصاصة ودقت الساحرة الأرض بقدمها ، فانبثق منالأرض لهب ازرق أضاء جوفها نفسه حتى بدا كأنمــا صنع من البلور ، وتكشف للأنظار كل شىء تحت ســطح الأرض ، وظهرت قطع الذهب والأحجار الـكريمة فى صناديق وقدور مكومة أكواما فى الموضع الذى كانوا يقفون فوقه ، وتوقدت عينا بيترو واصابه دوار ، وامسك بالسكين كمن أصابته لوثة ، وانبثق الدم الطاهر امامعينيه ، وجلجلت من حولهضحكات شيطانية ، واخذت وحوش مخيفة تقفز قطعــانا امامه ، وقبضــت الساحرة بيــديها على الجثة المقطوعة الرأس، وراحت ترتوى من الدماء كأنها الذئب ، ودار راس بيترو ، وبذل جهد اليائس حتى استطاع أن يسلم ساقيه للريح ، وغشى كل شىء من حوله ضــوء أحمر ، وبدت الأشجار وهى غارقة فى الدماء كأنها تشتعل وتئن ، وكانت السماء الحمراء المتوهجة تنتفض وترتجف ، وومضت أمام عينيه ومضات من نار كأنها البرق ، وجرى يلهث لهثا شــديدا حتى بلغ كوخه ثم ارتمى على الأرض فاقد الوعى ، واستغرق فى نوم شبيه بالموت .

ونام بيترو يومين وليلتين دون ان يستيقظ ، وأفاق من غشيته فى اليوم الثالث ، وانبعث يحملق فى اركان الكوخ ، وعبثا حاول ان يذكر ماوقع له ، فقد كانت ذاكرته كجيب الشيخ البخيل يتعــذر عليك أن تخرج منها فلسا ، ثم تمطى قليلا فسمع صـــــوت شىء يخشخش عند قدميه. لقد كان ثمة كيسان من الذهب عند موطىء قدميه ، وتذكر عندئذ فحسب ، أجل تذكر كما لو كان فىحلم ، انه كان يبحث عن كنز، وانه كان وحيــدا مستطار اللب فى الغابة ، ولكنه لم يستطع أن يتذكر الثمن الذى دفعه لقاء هــذا الـكنز ولا الوسيلة التى توسل بها للحصول عليه .

ورأى كورز الـكيسين فلان قلبــه ، وأخذ يثنى على بيترو بكيت وكيت، مبديا انه لايستطيع ان يفيه حقه : « أو لم يك مشغوفا

به دائما ؟ أو لم يكن منى فى منزلة الابن؟» ، ومضى الثعلب العجوز مشتطا فى ثنائه حتى تأثر بيترو وطفرت الدموع من عينيه ، وانطلقت بيدوركا تحدثه كيف خطف بعض النور الذين مروا بهم ايفـاس ، ولكن بيترو لم يستطع ان يذكر وجه الغلام نفسـه ، ذلك ان تلك الفعال الشيطانية الملعونة كانت قد اذهلته واطارت منه اللب .

ولم يك ثمة داع للتمهل والتأخير ، فقد ردوا العروس البولندى خائبا مقطوع الرجاء ، واخذوا يعدون العدة للزفاف وخبزوا كعك الزفاف وطرزوا المناشف والمناديل وأخرجوا برميـلا من الفودكا ، واجلسوا الشاربين الى المائدة وقطعوا كعكة الزفاف ، وعزفوا على المزمار والقيثارة و « البندورة » (١) ودقوا الصنوج ، ثم راحوا يلهون ويمرحون .

ولا وجه لمقارنة حفلات الزفاف اليوم بما كانت عليه فى هاتيك الأيام التى الفت عمة جدى أن تحدثنى عنها ، ويالها من ولائم ! لقد كانت تقص على كيف كانت الفتيات يرقصن مطوفات بالغرفة فى رشاقة الطواويس ، ويحففن بك طاويات الأرض كالزوبعة ، وقد ارتدين لباسا للرأس انيقا من شرائط صـفر وزرق وفى لون الورد وعصبنه بضفيرة ذهبية ، وقمصانا جميلة طرزت كل طية من طياتها بالحرير الأحمر وزينت بالأزهار الفضية الصغيرة ، ووضعن فى اقدامهن احذية مراكشية من ذوات الكعوب العالية والنعال الملبسة بالحديد ، وكيف كانت الزوجات الشابات يرتدين غطاء للراس يشبه القارب ، صنعت قمته كلها من نسيج حريرى موشى بالذهب وقـد شق من الخلف شقا صغيرا تبص من تحته القبعة الذهبية ، وحلى هذا الغطاء بقرنين صغيرين من ارقى أنواع الفراء الأستراخانى الأسود ، أحدهما فى مقدم الراس والآخر فى مؤخره ، كما ارتدين سـترات زرقا من احسن انواع الحرير لها اهداب حمر ، وقـد وضـعن أذرعهن فى خواصرهن فى اباء واعتزاز بالنفس ، ورحن يخرجن الواحدة فى اثر الأخرى من الحلقة ليرقصن رقصة «الهوباك» فى ايقاع رتيب منتظم ، وكيف كان الفتيان بقبعاتهم القوزاقية الطويلة ، وستراتهم البـديعة النسج ، واحزمتهم الموشاة بالفضة واسنـانهم مطبقـة على غلايينهم

(١) البندورة آلة موسيقية روسية .

يزاملون هؤلاء الزوجات الشابات فى الرقص ويقفزون كل أنواع القفز. وشاهد كورز الفتيان فلم يسعه الا أن يستعيد شبابه ، وراح يرقص ويغنى والبندورة فى يديه والغليون فى فمه ، واخذ فى الوقت نفسه يثبت كأسا على راسه . الا ما اغرب ما يفكر فيه القوم عندما يأخذون فى اللهو ! انهم يبدءون مثلا بوضع القناعات على وجوههم، يا الهى ! انهم ليبدون عندئذ كالوحوش سواء بسواء ! آه ! لقدكان الأمر فى تلك الأيام يختلف كل الاختلاف عما يأخذ به الناس أنفسهم الآن من لباس فى حفلات الزفاف التى تقام اليوم ، فماذا يفعلون اليوم ؟ انكل مايفعلون هو أن يلبسوا ملابس عجيبة تحاكى ملابس النور أو المسكوفيات ، أما فى الأيام الخالية فقد كان القوم ما بين يهودى وشيطان يبدءون بأن يقبل الواحد منهم الآخر ثم يشرع فى شد قنزعة رأسه ، تالله أن المرء كان يضحك حتى ينشق جنباه من الضحك . وكان القوم يرتدون الملابس التركية والترية تتألق جميعها تألق النار ، فاذا شرعوا فى العبث واداء الاعيبهم لم يك ثمة حد لما يفعلون ! وقد وقعت لعمة جدى حادثة مضحكة وكانت قد حضرت ذلك الزفاف ، ترتدى ثوبا تتريا فضفاضا ، وتقدم الخمر الى الجمع من قدح فى يدها ، ذلك ان الشيطان أوعز الى شخص من الحاضرين بأن يرش الفودكا عليها من الخلف ، وكان بين الحاضرين شخص آخر لا يقل فيما يظهر مهارة من ذلك الشخص ، فقد اشعل فى الوقت نفسه عود ثقاب وأوقد فيها النار ، وتأجج اللهب ، وتملك الرعب عمتى المسكينة وانبعثت تخلع ملابسها جميعا امام الجمع كلهم ، وارتفعت الضوضاء وعلا الضحك وانطلق الضجيج عنيفا صاخبا حتى اصبح المكان كالسوق ! والحق ان الشيوخ لم يبق فى ذاكرتهم زفاف بلغ فيه المرح ما بلغه فى ذلك الزفاف .

وبدات بيدوركا وبيترو يعيشان عيشة الزوج والزوجة من افاضل القوم ، وتيسر لهما من كل شىء نعيم وافر ، وكان كل ما عندهما جديدا كل الجدة ، ولكن أهل التقى والصلاح كانوا يهزون رءوسهم قليلا وهم يراقبون حياتهما ، وراحوا يقولون جميعا كأنهم رجل واحد : «لاخير فيما يأتى به الشيطان ، ترى من أين له بهذه الثروة ان لم تكن قد اتته من ذلك الذى يضل المسيحيين الصالحين

بفوايته ؟ أجل من أين له هذا الكوم من الذهب ؟ ولم اختف باسافريوك فى اليوم الذى أثرى فيه بيترو ؟ »

ولعلك ترى ان الناس ـ تتقول الأقاويل! ولكن الحق انه لم ينقض على هذه الحال شهر حتى كان يتعذر على اى انسان معرفة بيترو، ولم يكن يعلم الا الله ماذا حدث له ، فقد كان يجلس ساكتا لايأتى بحركة ولا ينطق بكلمة لأى مخلوق ، كان دائما مستغرقا فى تأملاته ، يحاول فيما يظهر ان يتذكر شيئا ، فاذا افلحت بيدوركا فى حمله على الكلام بدا له انه نسى ما يشغل باله ، ثم يواصل معها الحديث ، بل قد يظهر عليه المرح ، فاذا وقع نظره مصادفة على الكيسين قال : « انتظرى انتظرى ، لقد نسيت ! » ثم يعود الى الاستغراق فى تأملاته محاولا أن يتذكر شيئا . وكان يخلد الى السكون وقتا طويلا، ثم يبدو عليه انه على وشك أن يتذكر كل شيء .. على ان هذا الخاطر لايلبث أن يختفى . وخيل اليه مرة انه كان جالسا فى حانة ثم جاءوا بالفودكا ، فألهبت جوفه ، ذلك انها كانت رديئة ، واقبل عليه شخص وربت كتفه ـ ثم غم عليه بعد ذلك كل شيء كأنما غشيته ضبابة ، وكان العرق يتصبب على وجهه فيعود الى الجلوس وقد نال منه التعب والاجهاد حتى أضناه .

ولكن هل تركت بيدوركا شيئا فى وسعها ولم تفعله من أجله ؟ لقد فزعت الى الدجالين تلتمس عندهم المشورة ، وصبت الشمع فى الماء ، واحرقت قطعة من القنب (١) على ان ذلك كله لم يجده نفعا. وولى الصيف ، وكان كثير من القوزاق قد فرغوا من حصد محصولهم وجمعه ، وخرج للقتال اكثرهم اقداما واستهتارا بالحياة ، وكانت اسراب البط لاتزال كثيرة فى مستنقعاتها ، ولم يكن بينها صعوة واحدة ، واصطبغت السهوب باللون الأحمر، وانتشرت فى أرجاء الحقول

(١) اذا تملك الرعب احدا وأراد القوم أن يعرفوا السبب فى ذلك صبوا الشمع أو القصدير الذائب فى الماء فيتخذ صورة ذلك الشيء الذى أثار الرعب فى قلبه ، ويزول عنه هذا الرعب . وكان القوم يحرقون القنب شفاء للمريض أو ابراء لداء المعدة فتشعل النار فى قطعة من القنب ، وتلقى فى كوز يقلب على طاس من الماء يوضع على معدة المريض، ثم يرددون تعويذة ويعطونه ملء ملعقة من الماء يشربها .

المؤلف

اكداس من القمح تحاكى قلانس القوزاق ، وكنت تصادف فى الطرق العربات محملة بحزم الحطب وكتل الخشب ، وازدادت الأرض رسوخا وصلابة فى مواضع ، والم بها الصقيع فى مواضع ، وبدا الجليـــد يتساقط وكسا غصون الأشجار حلته ، فبدت كفراء الأرنب البرى ، وانطلق الدقتاش « وهو العصفور الأحمر الصدر » فى يوم شـــديد الصقيع مفتشا عن البذور فى أكوام الجليد يتبختر كأنه سيد بولندى انيق ، وكان الأطفال يضربون دواماتهم الخشبية على الجليد بعصى غليظة ، على حين جلس آباؤهم ساكنين على أريكة الموقد يخرجون من ديارهم بين الفينة والفينة قابضين بأسنانهم على غلايينهم المشتعلة ليلعنوا صراحة ذلك الصقيع المسيحى الصالح ! أو يستنشقوا الهواء ويدرسوا الحنطة المخزونة فى غرفة دارهم الخارجية .

وبدا الجليد يذوب آخر الأمر ، وحطمت الحربة بذيلها الجليد كما يقولون !

ولكن بيترو ظل على حاله، بل ازداد بمرور الزمن كآبة على كآبة ، فكان يجلس فى وسط الكوخ كأنه تسمر فى مكانه وكيسا الذهب عند موطىء قدميه ، ويتحاشى الاختلاط بالناس وقد ترك شعره ينمو وبدات ملامحه تتغير تغيرا بشعا ، ولم يك يفكر الا فى شىء واحد. لقد ظل يحاول ان يتذكر شيئا ، وأقلقه اشد القلق وأغضبـــه أعظم الغضب عجزه عن تذكره ، وكثيرا ما كان يهب واقفامن مقعـــده جامحا مهتاجا ، يلوح بذراعيه ويحملق فى شىء كأنما يريد ان يمسكه، وكانت شفتاه تتحركان كمن يريد ان ينطق بكلمة طال عليه نسيانها — ثم يظل بعد ذلك ساكنا بلا حراك . كان قد غلبه الغضب والهياج على امره وكان يقرض يديه ويعضهما كمن به جنة ، ويمزق شعر راسه حفانا من شدة الضيق والكرب حتى يعود الى الهـــدوء مرة اخرى ويبدو كأنه فى لجة النسيان ، ثم يبدأ من جـــديد فيعـــاود التذكر، ويرجع الى شأنه ، فيستبد به الهياج والعذاب . لقد كان ذلك نقمة أنزلتها به السماء !

اما بيدوركا فلم يعد فى حياتها مايستحق ان تعيش من أجله ، ذلك انها كانت فى اول الأمر تخاف ان تظل وحيدة فى الـــكوخ ، ثم الفت المسكينة ما رماها به القدر من شقاء وتعس ولكن ما من أحد

كان يعرف انها هي بيدوركا المعهـودة ، فقد غاض الدم في وجنتيها ، واختفت الابتسامة من شفتيها ، كانت تذوب أسى ويضمحل جسمها ويذوى ، وكانت تبكى بكاء يطفىء ضياء العين ويذهب بنورها. وأشفق عليها مرة انسان فنصحها بأن تمضى الى الساحرة المقيمة فى أخدود الدب ، التى اشتهر عنها انها تشفى جميع الأمراض فى هذا العالم .
واستقر رأيها على ان تجرب هذه الوسيلة الأخيرة ، واقنعت الساحرة شيئا فشيئا بأن تأتى معها الى الدار ، وكان ذلك فى ليلة عيـد القديس يوحنا بعد ان غربت الشمس ، وكان بيترو مستلقيا على الأريكة وقد استغرق فى تأملاته فلم ير الزائرة وهى تدخل ، ولكنه أخذ يهم بالجلوس رويدا رويدا وينظر اليها ، ثم انتفض فجأة كأنه على المشنقة ، ووقف شعر رأسه ثم انفجر ضاحكا ضحكة ذهبت بلب بيدوركا ، وصاح فى فرح مخيف : « تذكرت ! تذكرت ! » وتناول فأسا بسرعة وألقى بها بكل قوته على العجوز ، ونفذت الفأس فى الباب المصنوع من السنديان بوصتين ، واختفت العجوز، واذا بطفل فى السابعة أو نحوها يرتدى قميصا ابيض ويغطى رأسـه بغطاء ، يقف فى وسط الكوخ ، وانحسر النقاب عن رأسه فهتفت بيـدوركا قائلة : « ايفاس ! » ثم هرعت اليه ، الا ان الشبح كان ملطخـا بالدم من قمة رأسه الى اخمص قدمه ، وانبعث منه ضوء أحمر غمر انحاء الكوخ جميعا ، وجرت بيدوركا الى الغرفة الخارجية وقد ملأ الرعب قلبها، ولكنها ثابت الى رشدها وتاقت نفسها الى مساعدة اخيها ، ولكن هيهات ! فقد انصفق الباب من خلفها حتى تعذرعليها فتحه ، وجاء الجيران ركضا وراحوا يقرعون البـاب ثم اقتحموه ، ولكنهم لم يجدوا داخل الكوخ أحدا ، فقد امتلأت ارجاؤه جميعـا بالدخان ، وانما كان يقوم فى وسطه حيث كان يقف بيترو ، كوم من الرماد لايزال يتصاعد الدخان منه ، واندفع الجيران صوب الكيسين فوجدوهما مليئين بكسرمن الشقف بدلا من قطع الذهب ، وأوقعت هذه المعجزة فى قلوب القوزاق من الرعب والفزع ما جعلهم يقفون كأنهم تسمروا فى الأرض ، وقد انفغرت افواههم وجحظت عيونهم ، ولم يجدوا فى انفسهم من الشجاعة ما يسمح لهم بتحريك رمش واحد من رموشهم .

ولست اذكر ماحدث بعد ذلك ، فقد نذرت بيدوركا ان تخرج فى رحلة للحج ، فجمعت كل ماخلفه لها أبوها من متاع واختفت بعد ايام قليلة من القرية ، ولم يدر احد أين ذهبت ، الا ان بعض الثرثارات من العجائز تفضلن فأعلن انها لحقت ببيترو ، على ان قوزاقيا قادما من كييف زعم انه رأى فى الدير راهبة ذوى جسمها ، ونحل حتى بدت كالشبح ، وانقطعت للصلاة انقطاعا ، وقد عرف القرويون مما وصفها به ان هذه الراهبة هى بيدوركا ، وانبأهم الرجل أيضا بانه لم يسمعها احد قط تنطق بحرف ، وانها جاءت الى الدير سعيا على قدميها ، وحملت معها رصيعة لأيقونة السيدة العذراء ضمت من الجواهر المتلألئة ما يبهر كل عين تقع عليها .

ولكن اسمحوا لى بأن اقول لكم ان القصة لم تنته عند هذا الحد، فقد عاد باسافريوك الى الظهور فى اليوم الذى قتل فيه الشيطان بيترو ، ولكن الناس جميعا كانوا يهربون منه ، فقد تبينوا الآن اى صنف من المخلوقات هو ! اذ ما من مخلوق يتنكر فى صورة الانسان ليستخرج من باطن الأرض كنزا دفينا الا الشيطان نفسه . على ان الأيدى الدنسة لم تكن لتمس الكنز ، فعمد الشيطان الى اغراء الشبان المستهترين بمعاونته ، وفى السنة نفسها هجر الناس جميعا اكواخهم القديمة وانتقلوا الى قرية كبيرة تجاور قريتهم ا ولكنهم لم يسلموا فى هذه القرية نفسها من شر باسافريوك الملعون ، وقد جرت عمة جدى على القول بأنه غضب عليها خاصة لأنها هجرت حانتها القديمة التى كانت فى طريق ابوشنيا ، وبذل قصارى جهده ليشتريها منها .

واجتمع شيوخ القرية ذات يوم فى حانتها ، وراحوا يتداولون كل على قدر عقله ، كما يقول المثل ، وقد جلسوا حول المائدة وكان يتوسطها كبش كامل مشوى ، وانى لأجانب الحق لو قلت انه صغير . أجل كانوا يتداولون فى شتى الموضوعات ، وفى المعجزات والوقائع الغريبة ، وتراءى لهم فجأة ان الكبش يرفع راسه وتتألق عيناه السوداوان الماكرتان وتدب فيهما الحياة ، ولو ان واحدا منهم فحسب هو الذى تراءى له ذلك لهان الأمر بطبيعة الحال ، ولكنهم جميعا شاهدوا هذا الذى حدث دفعة واحدة ــ ونبت الكبش فجأة شارب خشن أسود اخذ يفتله فى وجه الجماعة فتلا له مغزاه ، ولم

يلبثوا جميعا ان تبينوا فى راس الكبش وجه باسافريوك ، بل خيل الى عمة جدى انه لم تمض لحظة حتى يبادر بطلب الفودكا ، وتناول الشيوخ الفضلاء قبعاتهم وهرعوا الى بيوتهم .

وحدث فى يوم آخر ان سادن الكنيسة الذى الف ان يخلو الى كأس الأسرة نصف ساعة يقضيها فى هدوء وسكون ، لم يكد يفرغ ما فى الكأس مرتين حتى رآها تنحنى له فصاح قائلا : « الا فليذهب بها الشيطان ! » ، واخذ يرسم اشارة الصليب . ووقع فى الوقت نفسه حادث غريب لشريكة حياته ، ذلك انها ما ان أشرفت على ان تنتهى من خلط الدقيق فى قصعة كبيرة حتى قفزت القصــعة فجاة وطارت بعيدا عنها ، فصاحت الزوجة : « قفى ! قفى ! » ، ولكن لا حياة لمن تنادى . فقد وضعت القصعة ذراعيها فى خاصرتيها ، وراحت ترقص فى وقار ورزانة فى ارجاء الكوخ جميعا . وقد يثير فيكم ذلك من الضحك مايثير ، ولكن الأمر لم يكن يدعو الى الضحك عند جدودنا ، وقد انطلق الأب افنــاسى فى القرية يرش ارجاءها جميعا بالماء المقدس ، ويطرد الشيطان بالرشاشة من كل طريق ، الا ان عمة جدى ظلت تشكو زمنا طويلا قائلة : ان المساء لم يكن ليحل حتى تسمع شخصا يقرع على السقف ويخربش فى الجدار .

ولــكن رويدكم ! فقد يذهب بكم الظن الى أن الهدوء والطمأنينة قد شملا فى الوقت الحاضر ذلك المكان الذى تقوم فيه قريتنا ، على انكم تعلمون أن الأحوال ظلت على ما هى عليه الى عهد ليس ببعيد ، عهد يذكره أبى، بل اذكره أنا حقا ، فقدكان الرجل الصالح لايستطيع ان يمر بالحانة الخربة التىاصلحها اهلالدنس بعد ذلك بأمدطويلعلى حسابهم ، اذ كان الدخان يتصاعد ســـحائب من المدخنة القذرة ، ويضرب فى السماء حتى كانت قبعة المرء خليقة بأن تسقط عن راسه وهو يتطلع اليه ، وينشر الجمر فى أرجاء السهب . وقد الف الشيطان ــ وقانا الله ذكره لعنة الله عليه ــ ان ينتحب فى وكره نحيبا محزنا يلقىالرعب فى قلوب الغربان المرتاعة ، فتفزع منالغابة المجاورة اسرابا اسرابا ، وتنتشر فى السماء مطلقة صرخات آبدة مستوحشة .

ليلة من ليالي شهر مايو
أو العذراء الغريقة

ليلة من ليالى شهر مايو

أو العذراء الغريقة

لا يعلم هذا الأمر الا الشيطان وحده ! فما أن يشرع المسيحيون فى عمل من الأعمال حتى يرهقوا انفسهم ثم يرهقوها كانهم كلاب تطارد أرنبا برية ، وتذهب جهودهم جميعا هباء ، فاذا ما تدخل الشيطان لم يقتض ذلك منه الا انتفاضة من ذيله !

- ١ -

حنـــة

انسابت اغنية فى طرقات القرية انسياب النهر مجلجلة تتردد وتتردد ، وكان ذلك فى الساعة التى ينفض فيها الفتيان والفتيات عن كاهلهم ما ينوء به من مشاغل اليوم ومتاعبه ، ويجتمعون فى نور المساء الصافى المورد يتدفق المرح والبهجة من قلوبهم انغاما لا تخلو من رنين الحزن والأسى . وكان المساء الحانى يحتضن هائما فى أحلامه السماء الزرقاء الداكنة ، فيضفى على كل شىء جـوا من الغموض

والسمو . وكان الغسق قد حل ولكن الغناء لم يكف ، وانفلت ليفكو ، الشاب القوزاقى وابن شيخ القـــرية ، من زمرة المنشدين وفى يده بندورة ، وكان يرتدى قبعة من الاستراخان ، واجتاز الطريق وهو يضرب على اوتار البندورة ويرقص على نغماتها ، ثم وقف آخر الأمر فى هدوء امام باب كوخ تحيط به أشجار الكرز القصيرة العود . ترى من كان صاحب الكوخ ؟ ولمن كان هذا الباب ؟ وساد الصمت لحظات لم انطلق ليفكو يعزف ويغنى :

ها هى ذى الشمس قد انحدرت ، واوشك المساء ان يحل فاخرجى الى يا حبة قلبى !

وفرغ القوزاقى من اغنيته وقال : « ايه يا فتاتى الجميلة المشرقة العين ، يخيل الى انها مستغرقة فى النوم » ثم اقترب من النافذة وراح يهتف : « حنة! حنة ! انائمة انت ام تراك لا تريدين الخروج الى؟ أظن انك تخافين أن يرانا أحد ، أم لعلك لاتريدين أن تطلى بوجهك الصغير الفاتن فى هذا البرد ! لا تراعى ، فالمكان خال ، والمساء دافىء، ولئن الم بنا احد غطيتك بسترتى ولففت حزامى حولك ووقيتك بذراعى ، فلا يرانا احد ، واذا انبعثت فى الجو لفحة من البرد ضممتك الى قلبى اكثر واكثر، واشعت الدفء فى جسمك بقبلاتى ، ووضعت قبعتى على قدميك الصغيرتين البيضاوين ، يا بهجة قلبى ، وحبة فؤادى ، وقرة عينى ! اطلى على لحظة ، وان شئت فحسبى أن تمدى يدك البيضاء الصغيرة من النافذة » ، ورفع صوته وهتف فى لهجة تنم عن خجله من انه اذل نفسه لحظة : « كلا ! لست نائمة ايتها الغادة الأبية المتعالية ، وانما يسرك أن تسخرى منى، فوداعا »

ودار على عقبيه ، وسوى قبعته على رأسه ، ومضى رافع الراس ، يضرب أوتار البندورة فى رقة وعذوبة ، واذا بالمقبض الخشبى يدور وينفتح الباب فى صرير ، وتطل فتاة فى ربيعها السابع عشر وقد شاع

فى وجهها خفر وحياء وطواها الفسق فى غلالته ، واجتازت الفتـاة عتبة الباب دون أن تترك المقبض ، وتألقت عيناها المشرقتان فى الضوء الخافت كالنجوم ، ولمعت قلادتها المصنوعة من المرجان الأحمر ، بل ان حمرة الخجل الرقيقة التى صبغت وجنتيها لم تخف على الفتى الحديد البصر .

وقالت له الفتاة فى صوت خفيض : « ما اقل صبرك ! وفيم هذا الغضب الذى اعتراك ؟ ولم اخترت هذه الساعة ؟ ان جموعا من الناس يسيرون فى الطريق روحة وجيئة ، وانى لانتفض اذا ... » .

وجلس الفتى معهما على باب الكوخ ، وراح يطوقها بذراعيه ، والقى الى جانبه بندورته التى كانت معلقة فى عنقه بسير طويل من الجلد ، ثم قال : « اواه ! لا ترتعدى يا ريحـانة قلبى ! والتصقى به اكثر واكثر ! فانك لتعلمين مقدار ما أحس به من عذاب اذا بعدت عنك ساعة من زمان » .

وقالت الفتاة وهى ترمقه بنظرات المستغرق المتأمل : « أتدرى ما افكر فيه ؟ يخيل الى ان شيئا لا ينفك يوسوس فى قلبى بأننا لن نلتقى كثيرا ، ذلك أن القوم هنا ليسوا من خيار الناس ، فالفتيات جميعا ينظرن الى والحسد يأكل قلوبهن ، وكذلك الفتيان ، بل انى لالاحظ ان امى قد جرت أخيرا على التشدد فى مراقبتى ، ولا انكر عليك ان الحيـــاة كانت تطيب لى اكثر عندما كنت أقيم بعيدا عن هذه الديار » .

وعلت وجهها مسحة من الحزن وهى تنطق بهذه الكلمات الأخيرة .

« هل تقضين شهرين فى هذه الديار فحسب ثم يدركك السأم ؟ لعلك سئمتنى انا أيضا ! » .

فأجابته وهى تبتسم : « كلا ، لم اسأمك ، بل انى لأحبك أيها القوزاقى الكحيل العين ! اجل احب فيك عينيك العسليتين ، ويخيل

الى حين ترنو الى أن السرور يغمر قلبى فيفيض بالبشر والسعادة ! واحب فيك انك تفتل شاربك الأســـود على نحو يبعث فى النفس البهجة والسرور ! واحب فيك انك تسير فى الطرقات مغنيا وعازفا على البندورة ، ثم ان الاستماع اليك متعة » .

فصاح الفتى وهو يقبلها ويضمها الى صدره : « آه يا حبيبتى حنة ! » .

« امسك ! وحسبك يا ليفكو ! وقل لى اولا : هل انبأت اباك ؟ .

فقال وكأنه يستيقظ من نوم كان مستغرقا فيه : « أخبره بماذا ؟ بأننى أريد ان أتزوج وانك ستكونين زوجتى ؟ أجل ، لقد انبأته » ، على أن عبارته الأخيرة قد شابها الحزن وهى تخرج من بين شفتيه .

« وبعـــد ؟ » .

وما حيلتى معه ؟ لقد تظاهر هذا الوغد العجوز بالصم كشـــأنه دائما ، واشاح بسمعه عنى ، ثم راح ينهرنى على تسكعى ، والله يعلم اين ، ويلومنى على الانطـــلاق فى الطرقات انا وخلانى نمرح ونعبث ، ولكن لا تحزنى ايتها الحبيبة حنة ! فانى اعدك وعد قوزاقى بأن اتحايل عليه » .

« حسبك أن تنطق بالكلمة يا ليفكو فيكون لك كل ما تريد ، وانى لاتبين ذلك فى نفسى ، فقد يبدو لى فى بعض الاحيان الا اطيعك ، ولكنك ما ان تنطق بكلمة واحـــدة حتى اجدنى مسوقة الى فعل ما تريد » ، ثم مضت تقول وهى تلقى برأسها على كتفه وتلتفت متطلعة الى السماء الأوكرانية العامرة بالدفء تتجلى بزرقتها الداكنة من خلال غصون أشجار الكرز المورقة التى انتصبت امامهما : « انظر! انظر ! انظر ، هنالك تجد على البعد النجوم تتلألأ ــ واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة ، خمسة ، انهـــا ملائكة الخالق تفتح نوافذ مساكنها المتألقة فى السماء وتطل علينا ، اليس كذلك يا ليفكو ؟ انهـــا ترمق

ارضنا بنظراتها أليس كذلك ؟ لو أن للناس أجنحة كالطيور لارتفعوا اليها فى عليائها ، آه من هذا الأمر الرهيب ! أليس هنا شجرة سنديان واحدة ترتفع الى عنان السماء ؟ ولكنهم يقولون ان ثمة شجرة فى بلاد نائية تبلغ عنان السماء ، وسينزل الله عليها الى الأرض فى ليلة عيد الفصح » .

« كلا يا حنة ، فان لله سلما يصل بلا عوج من السماء الى الأرض ، وينصبه رؤساء الملائكة الأبرار قبل احد الفصح ، وما أن يضع الله قدمه على الدرج الأول منه حتى تخر جميع الارواح الشريرة منكبة على وجوهها وتهوى زمرا فى قرار الجحيم ، ولذلك لا تجدين روحا شريرة واحدة على ظهر الأرض فى عيد قيامة المسيح » .

ومضت حنة تقول : « ما اعذب خرير الماء يتناغى كالطفل يرقد فى المهد ! » وراحت تشير الى البركة وهى تبدو فى اطارها الداكن من شجر الاسفندان والصفصاف النائح تحنو عليها اغصانه حتى تغوص فى مائها ، وتضم السماء النائية المظلمة كالشيخ الواهن فى حضنها البارد ، وتمطر بقبلاتها المقرورة الكواكب تتألق فى ذلك الخضم الدافىء من هواء الليل كأنها كانت تحس بمقدم ملكة الليل الزاهرة ، وهجع فوق التل بجوار الأجمة بيت عتيق من الخشب اغلقت مصاريع نوافذه ، وغطى الطحلب والعشب سقفه ، ونشرت أشجار التفاح غصونها أمام النوافذ . وكانت الأجمة تلف البيت بظلالها وتلقى عليه شبحا من الظلام تفزع له القلوب ، وقام فى طرف الأجمة دغل من اشجار البندق ينحدر حتى يصل الى البركة .

وقالت حنة وهى لا ترفع عينيها عن البيت : « انى لأذكر كما لو كنت فى حلم أن الناس منذ أمد بعيد ، بعيد جدا ، حين كنت اقيم

مع أمى ، كانوا يروون عن هذا البيت قصة تلقى الفزع فى القلوب ، ولا شك أنك تعرف تلك القصة يا ليفكو ، أفلا تقصها على ؟ » .

« دعيك من تلك القصة يا فاتنتى ، فان العجائز والحمقى يروون من القصص اشكالا وانواعا ، ولن ينالك منها الا بلبلة الخاطر والفزع والنوم المضطرب » .

فقالت وهى تلصق وجهها بخده وتطوقه بذراعها : « بل قصها على ! قصها على أيها الحبيب الكحيل العين ! ما بالك تحجم ؟ اذن فأنت لا تحبنى ، وانما تحب فتاة أخرى ، لن ينتابنى الخوف ، وسأستغرق فى النوم بالليل ، ولن يزور الكرى اجفانى ان لم تقصها على ، بل سيستبد بى القلق . واغرق فى لجة من التفكير ، فبالله قصها على يا ليفكو ! » .

« يبدو ان القوم قد أصابوا بقولهم ان الفتيـــات مصابات بداء الفضول الذى لا يكف عن الالحاح عليهن ، ليكن ما تريدين واعيرينى سمعك » :

« حدث منذ أمد بعيد ياحبة القلب ان كان ضابط من القوزاق قد الف العيش فى ذلك البيت ، وكانت له ابنـــة ، غادة حسناء ، ناصعة البياض كالثلج بل فى بياض وجهك الصغير . وكانت زوجته قد توفيت منذ وقت طويل ، فقر رايه على أن يتزوج مرة اخرى ، فسألته ابنته « أبتاه أوتظلنى برعايتك كعهدك حين تتخذ لك زوجة اخرى؟» فأجابها ابوها بقوله : « اجل ، وانى لفاعل يا ابنتى ، وسأضمك الى قلبى فى حنان يفوق ما عهدت من قبل ! اجل سيكون هذا شأنى ، وسأعطيك أقراطا وقلائد اشد تألقا من كل ما نلت منى من قبل ! » .

« وحمل الأب زوجته الشابة الى بيتها الجديد ، وكانت بهية

الطلعة بيضاء متوردة ، ولم يكن من هذه الزوجة الا ان حدجت ابنة زوجها بنظرة مخيفة حتى ان الفتاة صرخت عندما راتها . ولم تقل لها زوجة ابيها العاتية كلمة واحدة اليوم بطوله ، وجن الليل ، ومضى الاب مع زوجته الشابة الى غرفة نومه ، واغلقت الفتاة الحسناء باب غرفتها الصغيرة عليها ، وشــــعرت بالحزن يغشى فؤادها ، فراحت تبكى ، ورفعت راسها فرات قطة سوداء بشعة الخلقة تتسلل اليها ، وكانت فروتها تلمع وبراثنها الفولاذية تخدش الأرض ؛ فقفزت الفتاة وقد استبد بها الفزع الى اريكة ، ولكن القطة لحقت بها ، فارتقت اريكة الموقد ، فوثبت القطة خلفها أيضا ، ثم انقضت فجاة على عنقها وشرعت تخنقها ، فتخلصت من القطة وهى تصرخ والقت بهـــا على الارض ، وعادت القطة المخيفة تتسلل اليها ، فغلبها الخوف على امرها ، وكان سيف أبيها معلقا على الجدار ، فانتزعته انتزاعا وهوت به حتى ارتطم بالأرض محدثا صوتا مجلجلا، واطار مخلبا من مخالب القطة ببراثنه الفولاذية واختفت القطة وهى تعوى فى ركن مظلم من أركان الغرفة .

« اما الزوجة الشابة فلم تبرح غرفتها يومين كاملين ،وفى اليوم الثالث خرجت من الغرفة معصوبة الذراع ، ووقع فى روع الفتاة المسكينة أن زوجة ابيها ساحرة وانها قطعت ذراعها . وفى اليوم الرابع طلب الأب من ابنته أن تأتى بشىء من الماء ، وتكنس المنزل كما تفعل الفلاحة الذليلة ، وحرم عليها دخول الغرف الخاصة به ، وهكذا كان حظ الفتاة البائسة سيئا ، ولكن لم يك لها فى الأمرحيلة ، قلبت مطالب ابيها ، وطرد الأب ابنته فى اليوم الخامس ، فخرجت من المنزل عارية القــدمين ، ولم يتفضل عليها بكسرة خبز تتبلع بها ، وعنـــــدئذ فحسب ، ركعت الفتـــاة ، وراحت تنتحب مخيفة

وجهها الأبيض بين يديها ، وهتفت به : « ابتاه ! لقد رميت بابنتك الى التهلكة ! وانزلت الساحرة الدمار بروحك الآثمة ! غفر الله لك ، ان مشيئة الله قد قضت بألا اعيش فى هذا العالم الجميل » ، والتفت ليفكو الى حنة مشيرا الى المنزل واردف يقول : « وهناك . . . اترين ؟ انظرى فى هذا الاتجاه ، هنالك من اعلى جزء فى الشاطىء ! اجل ، من تلك الضفة القت الفتاة بنفسها فى الماء ، ولم يرها احد منذ تلك الساعة » .

وسألته حنة فى صوت ينم عن الرعب والفزع ، وهى تحملق فيه بعينين دامعتين و « الساحرة » ؟ .

« الساحرة ؟ تستنتج العجائز مما حدث ان جميع الفتيات اللاتى اغرقن انفسهن فى البركة يخرجن منذ ذلك الحين الى الحديقة فى الليالى المقمرة طلبا للدفء ، وعلى رأسهن ابنة ذلك الضابط . وقد رات الفتاة الغريقة زوجة ابيها بجانب البركة ذات ليلة ، فانقضت عليها ، وجرتها الى الماء وهى تصرخ ، ولكن الساحرة استطاعت أن تنقذ نفسها حتى فى ذلك الوقت ، فقد تقمصت تحت الماء صورة فتاة من الغريقات ، ونجت بذلك من الجلد باليراعات الخضر التى كن ينوين أن يضربنها بها ، ولتثق بقول هؤلاء العجائز ! ثم انهن يقلن ايضا : ان ابنة الضابط تجمع الفتيات الغريقات كافة كل ليلة وتنظر فى وجه كل منهن ، محاولة أن تجد الساحرة ، ولكنها لم توفق بعد ، وما أن تلقى اى انسان حتى تحمله على التكهن : اى الغريقات هى الساحرة ؟ فان امسك ، هددته باغراقه فى الماء وهذه يا عزيزتى حنة هى رواية العجائز للقصة ، اما صاحب الأرض الحالى فيود أن يقيم معملا لتقطير الخمور فى ذلك الموضع ، وقد أرسل مقطرا للخمور الى

هنا ليعمل على تنفيذ الفكرة .. ولكنى أسمع أصواتا ! انها أصوات رفاقنا فى طريقهم الى العودة من العنـــاء . طابت ليلتك يا حنة ! استغرقى فى النوم،ولا تفكرى فى قصص أولئك النسوة العجائز ! » .

وما أن قال هذا حتى طوقها بذراعيه فى حرارة ، وقبلها ثم مضى الى حال سبيله .

فقالت حنـة وهى تحدق حالمة فى الأجمة المظلمة : « طابت ليلتك ياليفكو » .

وفى تلك اللحظة بدأ قمر كبير يتوهج ويرتفع من وراء الأفق فى عظمة وجلال ، وكان نصفه لا يزال مختفيا وراء الأفق ، الا أنه غمر الكون جميعا بفيض من ضوئه السنى المهيب ، وتألقت البركة وتلألأت، وبرزت ظلال الأشجار واضحة جلية على صفحة العشب القاتم .

« طابت ليلتك يا حنة ! » ، وقد انبعثت هذه الكلمات من خلفها مقرونة بقبلة .

وقالت وهى تلتفت الى الخلف : « هأنت ذا قد عدت ! » ، ولكنها رأت فتى لم تكن تعرفه ، فأدارت رأسها وسمعت مرة أخرى من يهتف بها : « طابت ليلتك ياحنة ! » وأحست للمرة الثانية بقبلة تنطبع على خدها .

فقالت غاضبة : « لقد جاء الشيطان بفتى آخر ! » .

« طابت ليلتك ياحبيبتى حنة ! » .

« وهذا هو الثالث ! » .

« طابت ليلتك ، طابت ليلتك يا حنة ! » وانهمرت عليها القبلات من كل جانب .

فصاحت حنة : « وى ! انهم لعصبة كاملة من الفتيان » ، وراحت تنتزع نفسها من بين ذلك الحشد من الفتيان الذين كانوا يتزاحمون على تقبيلها ، ومضت تقول : « عجبى لهم ، لا يسأمون من هذا التقبيل الذى لا ينقطع ! لن يمضى وقت طويل حتى يستحيل على ان أخرج الى عرض الطريق ! » .

« وانصفق الباب وهى تنطق بهذه الكلمات ، ولم يسمع من بعد صوت الا صوت المزلاج الحديدى وهو يصر مستكنا فى بيته .

- ٢ -

راس القــرية

ترى هل اتيح لك أن تشهد ليلة من الليالى فى اوكرانيا ؟ ولكن ، هيهات ان تكون قد شهدت ليلة من تلك الليالى ! الا فلتنظر اليهــا تجد القمر يطل على الأرض من عليائه فى كبد السماء ، وقد ازدادت قبتها الهائلة رحابة على رحابة ، وراح القمر يتلألأ ويتنفس ، فغمر الارض جميعا بضوئه الفضى ، وانطلق الهواء العليل ينعش النفوس ويعمر القلوب بالدفء ، ويثير فيها الرغبة والاشتهاء ، وينشر فى الأرجاء دنيا من الأريج والعبير . ويا لها من ليلة علوية تسحر وتفتن ! وقفت فيها الغابات ساكنة بلا حس ولا حركة ، وغشيها جو من الغموض ، وشاع فى جنباتهــا الوجوم ، والقت على الأرض ظلالا ضخمة ، وهدأت البرك ، وخمدت حركتها ، وحف بمائها البارد الكئيب اطار من البساتين الخضر الداكنة ، ومدت الأدغال البكر من شجر الكرز البرى جذورها فى استحياء الى الماء البارد ، وانبعثت غصونها تهمهم من حين الى حين كأنها غضبى ساخطة ، اذ يتسلل اليها نسيم الليل ، ذلك الماكر الظريف ، ويقبلها وهجع الريف كله ، واستسلم للنعاس ، على حين ظل كل العالم الذى يرف عليه يتنفس حافلا بآيات الروعة وانتصــــار ، وتمتلىء النفس بهذه الرحابة والروعة ، وتنبعث الأحلام الجميلة من اعماقهــا محلقة زمرا يجمع بينها التناسق والانسجام .

يا لها من ليلة علوية تسحر وتفتن ! ثم تدب الحياة في كل شيء فجأة : في الغابات والبرك والسهوب ، ذلك أن صيحات البلبل الأوكراني الرائعة تنطلق ، فتقطع سكون الليل ، ويخيل للمرء ان القمر نفسه راح ينصت اليها في كبد السماء ، وتهجع القرية القائمة على النجد كأنما مسها السحر بسلطانه ، وتتألق الأكواخ جماعات في ضوء القمر ، فتزداد نصوعا وحسنا عن المألوف ، وتتبدى جدرانها المنخفضة في الظلام مجلوة تخايل النظر اكثر واكثر ، وكان الفناء قد توقف وشمل السكون كل شيء ، وأخذ القوم الصالحون الذين يخشون الله الى النوم ، الا من ضوء يبص هنا وهناك من النوافذ الضيقة ، وعائلة تأخر بها النوم تجلس أمام باب هذا الكوخ أو ذاك تتناول عشاءها .

وراح فلاح كهل ثمل كان يرقص في الطريق ، يقول بينه وبين نفسه : « ولكن هذه ليست الطريقة المتبعة في رقصة الهوباك ، وقد كنت اعلم انها خطأ ، ترى ما الذي كان يقوله لي خلي القديم ؟ اي نعم ، هوب !. ترا ــ لا !. هوب ، ترا ــ لا ! هوب ، هوب ، هوب ! واني لأقسم ان هذه ليست الطـــريقة المتبعة في رقصة الهوباك ، واي داع يدعوني الى الكذب ؟ أجل ، اني لأقسم انهـــا ليست الطريقة الصحيحة ، هلم ، هوب ، ترا ــ لا ! هوب ، ترا ــ لا ! هوب ، هوب ، هوب ! » .

وصاحت امرأة مكتهلة كانت تمر به حاملة ملء ذراع من القش : « انظروا الى ذلك الأبله الثمل ! انه ليس بالفتى اليافع ، وانما هو خنزير عجوز يرقص في الطريق ليلا كأنما يريد ان يحمل الأطفال على الضحك ! عد الى دارك !و قد كان أولى بك ان تكون مخلدا الى فراشك منذ وقت بعيد ! » .

فقال الرجل وهو يكف عن الرقص : « انى للداهب ، انى للداهب ، ولست احفل بأى راس من الرءوس ، أيظنن ـ كتب الله على ابيه أن يرى الشيطان ـ انه يستطيع ان يشمخ بانفه على كل انسان لأنه راس القرية ولأنه يسكب الماء البارد على الناس ابان الصقيع ! ومن يكون هذا الراس حقا ؟ انما انا راس نفسى ! الا فليهلكنى الله أن لم اكن ، اننى راس نفسى » ، ثم استرسل يقول : « هذا هو الحق وما من حق سواه » ومضى فى طريقه ، ثم يمم شطر اول كوخ قادته اليه قدماه ، ووقف امام النافذة ومر بأصـــابعه على لوح الزجاج محاولا ان يجد مقبض الباب ، ثم هتف : « افتحى ايتها الزوجة ! ودعى الـكسل ، افتحى ! لقــد آن لهذا القوزاقى ان يأوى الى فراشه ! » .

وصــاحت بعض الفتيات من خلفه متضاحكات ، وهن فى طريق عودتهن من ذلك الغناء والمرح : « الى اين ياكالينيك ؟ ليس هذا بكوخك ! أو ندلك على خوكك ! »

« ارشددننى اليه ايتها الغادات الرحيمات ! »

وقالت احــداهن : « « الغــادات الرحيمــات ! او ســمعتن ؟ ياكالينيك من رجلجم الأدب ! يجب علينا أن ندله علىالطريق الى كوخه جزاء أدبه ، ولــكن مهلا ! ولتتحفنا أولا برقصة »

وقال كالينيك فى بطء وتثاقل وهو يضحك ويهز اصبعه اليهن : « رقصة ؟ يا لكن من فتيات ماكرات ! » ، ثم خطــا الى الأمام مترنحا ، فقد كانت ساقاه أعجز من ان تحملاه فى ثبات ، ومضى يقول : « وهل لى أن اقبلكن جميعا اذا رقصت ؟ لأقبلكنجميعا ، اجل كل واحدة منكن » وجرى وراءهن فى خطا مترنحة ، فأطلقت الفتيات صرخة ، ثم للذن جميعا بعضهن ببعض ، ولكنهن ادركن ان

كالينيك لايستطيع ان يجرى على قدميه بالسرعة المطلوبة ، فازددن جراة ، وركضن الى الجانب الآخر من الطريق .

وصحن به وهن يبتعدن مشيرات الى كوخ اكبر كثيرا من سائر الاكواخ « هاك كوخك ! » ، وكان ذلك الكوخ هو كوخ راس القرية ، وأطاعهن كالينيك ، وانعطف فى ذلك الاتجاه ، وانطلق يذم راس القرية مرة اخرى .

ولكن من يكون هذا الراس الذى اثار مثل هذه الانتقادات والآراء القبيحة ؟ الحق انه كان شخصا ذا شأن فى القرية ، ولاشك اننا نستطيع ان نستغل الوقت الذى يمضى فيه كالينيك الى كوخه ، ونقول عنه كلمة : كان جميع القرويين يخلعون قبعاتهم عندما يرونه ، وكانت الفتيات ، حتى أصغرهن سنا ، يحيينه تحية الصباح واى فتى لا تتوق نفسه الى ان يكون راس القرية ؟ لقد كان راس القرية هذا مطلق التصرف يستطيع ان يصيب من سعوط اى امرىء ما يصيب ، وكان الفلاح القوى يقف له باحترام وقبعته فى يده ، ويمضى شيخ القرية متحسسا صندوق سعوطه المصنوع من لحاء شجر البتولا بأصابعه المكتنزة ، وكان رايه دائما هو الأعلى فى مجلس القرية ، وان كان سلطانه لايتعدى بضعة أصوات ، وكان له الحق وحده تقريبا أن يرسل من يشاء لتمهيد الطرق واصلاحها أو حفر الخنادق . وكان الرجل عبوسا كالح الوجه مقتصدا فى الحديث. وقد حدث منذ زمن بعيد ، بعيد جدا عندما كانت القيصرة كاترين العظمى طيب الله ثراها ، قاصدة الى بلاد القريم ان اختير مرشدا لها .

وادى راس القرية مهمته هذه يومين كاملين ، بل عد اهلا لان

يجلس على المقعد بجوار حوذى القيصرة ، وقد الف منذ ذلك الحين ان يحنى رأسه فى حركة يشيع فيها الوقار والتأمل وان يربت شاربه الطويل المسترخى ، ويرمق الناس من تحت حاجبيه بنظرات كنظرات الصقر. ومنذ ذلك الحين ايضا كان شيخ القرية يدير دائما دفة الحديث بمهارة مهما كان الموضوع المطروح على بساط البحث ، مصطنعا الطريقة التى كان يوجه بها القيصرة ، ويجلس بها على مقعد الحوذى من عربتها . وكان يحب احيانا ان يتظاهر بالصمم ، وخاصة اذا سمع شيئا لايحب ان يسمعه ، وكان الرجل لا يطيق الحذلقة ، يرتدى على الدوام سترة طويلة من نسيج اسود من غزل المنازل ، ويتمنطق دائما بحزام من الصوف الملون ، وما من احد شاهده قط فى اى زى آخر الا حين ارتحلت القيصرة الى القريم ، فقد ارتدى فى تلك المناسبة شملة قوزاقية زرقاء داكنة . وكان من العسير ان يذكر احد فى القرية ذلك الزمن ، اما الشملة فلا يزال يحتفظ بها فى صندوق .

وقد كان رأس القرية هذا ارمل ، ولكن اخت زوجته كانت تقيم معه فى المنزل ، وكانت تطهو له الغذاء والعشاء وتنظف الأرائك وتبيض الكوخ بالجير، وتنسج له القمصان وتعنى بالمنزل . وقد زعم ناس فى القرية انها لم تك أخت زوجته قط ، ولكننا قد تبينا وشيكا ان الكثيرين كانوا يضمرون الشر للشيخ ، وكان يسرهم ان يشيعوا عنه شائعات السوء ، على ان هذه الشائعات ربماكانت تتسم بشىء من الصحة ، فقد لوحظ ان أخت زوجته كان يبدو عليها الاستياء كلما خرج الى حقل فيه حشد من الفتيات يحصدن، او ذهب لزيارة قوزاقى له ابنة جميلة . ولم تك للشيخ الا عين

واحدة ، ولكن تلك العين كانت له بمثابة الداهية الأريب تستطيع ان تلمح الفتاة القروية الجميلة على بعد شاسع ، على انه لم يك يحدق بها فى وجه مليح فاتن الا بعد أن يتلفت جيدا ليرى هل كانت أخت زوجته تراقبه؟ وهانحن أولاء قد قلنا عن شيخ القرية كل ماتقتضينا الحال ان نقوله تقريبا ، فى الوقت الذى كان فيه كالينيك الثمل يسير فى طريقه الى كوخه . وكان الرجل لايزال ماضيا على سنته ينتقى خير النعوت يصف بها شيخ القرية بقدر ما كان يسمح له لسانه البطىء الثقيل .

- ٣ -

غريم مفـــــاجىء

مكيـــــدة

وقال ليفكو لرفاقه الذين استخفهم المرح وأرادوا منه ان يشاركهم في ضروب جديدة من اللهو : « كلا أيها الرفاق ! كلا ، لن أشاركم في لهوكم ! أما زلتم تطلبون اللهو؟ واعجبا ! ألم يكفكم ما أحدثتم من ضر ؟ ان الناس يقولون ، علم الله ، اننا سفلة أوغاد على قدر مارأوا منا حتى الآن ، وقد كان أولى بكم ان تأووا الى فراشكم ! وداعا أيها الرفاق ! وطابت ليلتكم ! » ، ثم سار يضرب في الشـــارع بخطا سريعة .

وتساءل وهو يقترب من الكوخ الذى فيه أشجار الكرز وقد مر بنا وصفه : « ترى هل أخلدت حبيبتى حنـــة المشرقة العين الى النوم ؟ » ، وكانت أصوات خفيضة تترامى الى السمع وسط هذا السكون. ووقف ليفكو مكانه ، وكان يستطيع ان يرى قميصا أبيض من خلال الشجر، وتساءل قائلا: « مامعنى هذا ؟ » . ثم اقترب قليلا وهو يتلصص واختبأ خلف شجرة ، وكان وجه الفتـــاة التى وقفت أمامه يتألق فى ضوء القمر. لقد كانت هى حنة ! ترى من يكون هذا الرجل الطويل الذى كان يوليه ظهره ؟ وحدق فيه النظر محاولا معرفته ، فذهبت محاولته أدراج الرياح ، ذلك ان الظلال

كانت تغمره من قمة راسه الى اخمص قدمه ، اللهم الا بعض الضوء كان يلقى عليه شعاعا من الأمام ، ولو قد خطا ايفكو اقل خطوة الى الأمام لتعرض للخطر من ان يكتشف أمره ، فاستند الى الشجرة فى هدوء وسكون واستقر رايه على ان يبقى حيث هو ، وهتفت الفتاة باسمه فى وضوح ، فغمغم الرجل الطويل من بين اسنانه يقول فى صوت أجش : « ليفكو ؟ ان ليفكو لمخنث ، ولو انني شاهدته معك لنزعت قنزعته من جلد شعره ! »

وتمتم ليفكو يقول فى صـوت خافت : « بودى أن أعرف ذلك الوغد الذى يقول مفاخرا انه سينتزع قنزعتى من جلد شعرى ! » ؛ ومد عنقه محاولا الا تفوته كلمة واحدة ، ولكن الفريب واصل حديثه فى صوت خفيض جدا فلم يستطع ليفكو ان يسـمع كلمة واحـدة مما يقول .

وقالت حنة عندما فرغ الرجل من حديثه : « الا تخجل من نفسك ؟ انك تكذب ، وتخدعنى ! انك لا تحبنى ، ولن أصدق أبدا انك تحبنى ! »

ومضى الرجل الطويل القامة فى حديثه قائلا : « انى لأعلم ان ليفكو قد القى على مسامعك هراء كثيرا ، فأدار رأسك » ، وخيل الى الشاب عندئذ ان هذا الصوت لم يكن غريبا على أذنه كل الغرابة ، وبدا انه قد سمعه من قبل ، واسترسـل الغريب يقول باللهجـة نفسـها : « لأرين ليفكو من أى معدن صـنعت ! انه يظن اننى لا أدرك الاعيبه الشهوانية ، وليـذوقن هـذا الوغد الصـغير طعم قبضة يدى ! »

وما ان سمع ليفكو هذا حتى عجز عن ان يكبح جماح غضبـه ،

فخطا ثلاث خطوات ، وطوح قبضة يده ليلطمه لطمة على أذنه قـد تقذف به فى الهواء على الرغم مما كان يبدو عليه من القوة واليأس، الا ان ضوء القمر اضاء وجه الفريب فى تلك اللحظـة ، وعقـدت الدهشة لسان ليفكو ، اذ رأى اباه واقفا امامه ، واهتزت رأس ليفكو على غير وعى منه ، وسمعت حنة حفيفا ، فانفلتت الى الكوخ، وصفقت الباب وراءها ! »

وصاح أحد الشبان فى تلك اللحظة متسللا ، وطوق شيخ القرية بذراعه « طابت ليلتك ياحنة ! » ثم صـــادفت يده شارب الشيخ الخشن ، فتراجع مذعورا .

وصاح شاب آخر: « طابت ليلتك يا فاتنتى ! » ، الا ان الشيخ دفع هذا الشاب دفعة قوية قذفت به فى الهواء .

وصاح عدد من الشبان متعلقين بعنقه : « طابت ليلتك ، طابت ليلتك ياحنة ! »

وصاح الشيخ وهو يدفعهم عنه ويركلهم بقدمه : « اليكم عنى ايها المستهترون الملاعين ! احقا تطلبون حنة ! اذهبوا ، ولتشنقوا انتم وآباؤكم يا أولاد الشيطان ! انهم يتساقطون على المرء تساقط الذباب على الشهد ! تالله لأؤدبنكم ! »

وصاح الشبان : « انه شيخ القرية ! انه الشيخ ! » ، وتفرقوا شذر مذر ! ..

وقال ليفكو ، وقد افاق من دهشته ، واخذ يشيع الشيخ بنظراته وهو يبتعد صابا لعناته : « اذن فهذا هو أبى على حقيقته ! وتلك هى الحيل التى ينسج خيوطها ! يا له من أمر طريف ! وقدكنت

اتساءل : « لم يتظاهر بالصمم فى كل مرة أهم فيها بالحديث فى الموضوع ؟ انتظر قليلا أيها التيس ! لأعلمنك كيف تكون عاقبة التسكع تحت نوافذ الحسان ! أجل ، لأعلمنك كيف تكف عن غواية حبيبات غيرك من الرجال ! » ، ثم صاح ، ملوحا بيده الى الشبان وكانوا قد اجتمعوا زمرة واحدة مرة أخرى : « ايه أيها الرفاق ! تعالوا هنا ، تعالوا هنا ، من هذا الطريق ! تعالوا هنا ! لقد حاولت ان أحملكم على الايواء الى فراشكم ، ولكنى عدلت الآن عن رأيى ، وانى على استعداد ان ألهو معكم الليل بطوله »

وقال شاب بدين عريض المنكبين كان يعد أكثر فتيان القرية مرحا واشدهم ميلا للأذى : «هكذا يكون الكلام! وانى لأشعر دائما بالسأم اذا عجزنا عن ان ننعم بقدر مناسب من اللهو ، بل أحس دائماكاننى قد فاتنى شيء ، اجل ، كأننى فقدت قبعتى أو غليونى ، والحق ان هذا ليس من شيمة القوزاق ! »

« ما قولكم فى ان نهز شيخ القرية هزا ؟ »

« شيخ القرية ؟ »

« أى نعم ، ماحسب هذا الرجل ؟ وماذا يظن فى نفسه ؟ انه يحكمنا كما لو كان زعيما من زعماء القوزاق ، ولا يكفيه أن يعاملنا كما لو كنا بعض عبيده ، بل يجرى أيضا وراء حبيباتنا ، ولا اعتقد انه ترك حسناء واحدة فى القرية بأسرها ألا غازلها »

وصاح الفتيان : « هذا صحيح ! هذا صحيح ! »

« أعبيده نحن ايها الفتيان ؟ السنا من طينة واحدة سواء بسواء؟ نحمد الله ، فما نحن الا قوزاق أحرار ، ولنرينه أيها الرفاق اننا قوزاق أحرار ! »

فصـاح الفتيان : « لنرينه هذا ! اما وقد صح عزمنا على ان نشن الغارة على الشيخ فلن نرحم كاتبه أيضا ! »

« لن نرحم الكاتب ! ولقد فرغت لتوى من وضـع أغنية رائعة تنطبق على الشيخ كل الانطباق » ، ثم مضى ليفكو يقول وهو يضرب على أوتار بندورته : « هلموا بنا ، ولأعلمنكم الأغنية ، ولترتدوا من الملابس ما يقع فى أيديكم ! »

وقال الشاب القوى المتهور وهو يضرب قدما بقدم ويصفق بيديه: « هلموا ايها القوزاق الشجعان ، يا للمجد ! ويا للمتعة ! ان المرء اذا أخذ نفسه بشيء من اللهو احس كأنه يحتفل بالسنوات الخوالى فيفيض قلبه بالبشر، ويخلو باله من الهم وبدا له كأن روحه انطلقت الى الفردوس ، هلموا أيها الرفاق ، هلموا بنا ننعم بشيء من اللهو!»

وسار الجمع صاخبا مضوضيا يجتاز الطريق ، واستيقظت عجائز النسوة الصالحات من نومهن على صياح الفتيان ، وأغلقن نوافذهن ، ورسمن اشارة الصليب والنوم يداعب جفونهن ، ثم قلن : « وى ! لقد شرع الفتيان يمرحون ! »

- ٤ -

الفتيان يمرحون

لم يبق فى القرية أكواخ مضاءة الا كوخ واحد فى طرفها هو كوخ شيخها ، وكان الرجل قد فرغ من تناول عشائه منذ وقت طويل ، ولاشك انه كان حريا بأن يكون مستسلما للنوم فى مثل هذه الساعة لولا ان زائرا كان قد ألم به ، فقد أرسل صاحب ملك له قطعة صغيرة من الأرض بين املاك القوزاق الأحرار هذا الرجل ليقيم على هذه القطعة معملا لتقطير الخمور، وكان الزائر رجلا قلة بدينا قصير القامة له عينان صغيرتان لا تكفان عن الابتسام ، والظاهر انهما كانتا تعبران عما يحس به من سرور حين يدخن .

وجلس الزائر فى مكان الشرف تحت الأيقونات ، وقد دأب على البصق وعلى ان يضغط بابهامه رماد التبغ الذى ظل يتساقط من غليونه القصير ، وأخذت سحب الدخان تنتشر بسرعة من فوقه وشملته بضبابة زرقاء داكنة حتى بدا كأنه مدخنة كبيرة لمعمل من معامل تقطير الخمور ملت البقاء على سقفه ، وظنت انها فى حاجة الى تغيير، فاتخذت المكان اللائق بها فى كوخ شيخ القرية . وبرز شارب كث قصير من تحت انف الزائر ، على أن معالمه لم تتضح فى هذا الجو المشبع بالدخان ، فبدا كأنه فأر أمسك به مقطرالخمور وقبض عليه بفمه مفتاتا على القط الذى ألف مخزن الحبوب .

وأحس شيخ القرية بانه ملازم بيته ، فجلس مرتديا قميصه وسروالا من الكتان ، وكان يزر عينه الشبيهة بعين النسر رويدا رويدا ، فيخمد بريقها خمود الشمس الغاربة . وكان أحد شرطة القرية « كونستابل » الذى يساعد شيخها ، يدخن غليونا فى طرف المنضدة ، وكان لايزال يرتدى شملته احتراما لمضيفه .

وسأل الشيخ مقطر الخمور ، وهو يرسم اشارة الصليب على فمه بعد ان تثاءب : « أتنوى اقامة معمل تقطير الخمور فى وقت قريب؟»

« ربما بدأنا التقطير بعون الله فى اغسطس ، وانى لأراهن على انه ما ان يحل عيد الشفاعة حتى يكون شيخنا المحترم ماضيا فى لعبة الكلمات المتقاطعة يخط رقعتها بقدميه فى الطريق » .

واختفت عينا مقطر الخمور عن الأنظار وهو ينطق بهذه الكلمات، وبدت فى مكانهما تجاعيد امتدت حتى أذنيه ، واهتز جسمه كله من شدة الضحك ، وتركت شفتاه المرحتان الغليون لحظة .

وقال مضيفه ، مقطبا وجهه فيما يشبه الابتسامة : « أرجو من الله ذلك ، وانى لأحمده الآن على ازدياد معامل تقطير الخمور بعض الزيادة ، فقد حدث منذ سنوات ، عندما كنت دليلا للقيصرة فى طريق بيريياسلاف ، ان بيزبورودكو ، رحمة الله عليه ... »

« ايه ياصديقى العزيز! مابالك تذكر تلك الأيام ، وى ! لم يكن يقوم فيما بين كريمينشوج ورومنى الا معملان لتقطير الخمور فى تلك الأيام ، اما فى يومنا هذا .. ترى هل سمعت بما ينتوى الألمان الملاعين فعله ؟ انهم سيعدلون عن حرق الخشب فى معامل تقطير الخمور كما يفعل المسيحيون من أهل الرزانة والوقار ، وسيستبدلون به فى

وقت قريب نوعا من البخار الشيطانى ، على ما يقولون ! » ، ونظر مقطر الخمور ، وهو يقول هذا ، الى المنضدة والى يديه المستندتين عليها ، فى تأمل وتفكير ، ومضى يقول : « لا أستطيع أن أتصوركيف يدور المعمل بالبخار ! »

وقال شيخ القرية : « يا لغباوة هؤلاء الألمان ، وليغفر الله لى! وددت لو جلدتهم ، اولاد الشيطان ! او قد سمع أحد بمثل ما يقولون من غلى شيء بالبخار ؟ لو صدق هذا ما استطعت ان تتناول ملء ملعقة من الماء الا اذا الهبت شفتيك كالخنزير الرضيع » .

وقالت أخت زوجة الشيخ ، وهى تجلس على أريكة الموقد متربعة : « وانت ايها الصديق ، أو تبقى هذا الوقت كله من غير زوجتك؟»

« وى ! وما حاجتى اليها ؟ لو كانت تستحق لاختلف الأمر »

وسأله الشيخ وهو يحدجه بعينه الواحدة : « اليست بهية الطلعة ؟ »

« بهية الطلعة حقا ! انها عجوز كالشيطان نفسه ، أما وجهها فقد امتلأ بالتجاعيد كأنه الكيس الخاوى »

واهتز مقطر الخمور القصير البدين بالضحك حتى شمل كيانه كله.

وفى تلك اللحظة اخذ شيء يتحسس الباب ، ثم انفتح البـــاب واجتاز العتبة فلاح دون ان يخلع قبعته ، ووقف فى وسط الكوخ مترددا ، وقد فغر فاه واخذ يحملق فى السقف ، وكان هذا الفلاح هو صديقنا كالينيك .

وقال كالينيك وهو يستوى على الأريكة قرب الباب غير آبه بالجماعة : « هأنذا قد عدت أخيرا الى دارى ، لقد اطال الشيطان ربيب الشر

الطريق ! اجل اطاله حتى ليسير المرء فيه ويسير فلا يبلغ نهايته ! ايه ، انى لأشعر كأن احدا كسر ساقى . أيتها الزوجة ، ائتى بجلد الماعز وافرشيه لى ، فلست بجالس معك على الموقد ، اجل لن افعل ذلك ، فان ساقى تؤلمنى ، ابحثى عنه ، انه هناك تحت الأيقونات. ولـكن حذار أن تقلبى القدرالتى فيها السعوط ، بل كفى.. لاتلمسيه لاتلمسيه ! فربما كنت ثملة الليلة . دعينى آت به بنفسى ! »

وحاول كالينيك النهوض ، ولكن قوة لا قبل له بها جعلته يتسمر فى مقعده .

وقال شيخ القرية : « ما اعجب هذا ! رجل يدخل بيت رجل آخر، ويلقى بالأوامر كما لو كان فى بيته ! القوا به بقضه وقضيضه خارج الدار ! »

وقال مقطر الخمور وهو يجذبه من ذراعه : « دعه يسترح أيها الصديق ! انه لرجل نافع ، ولو قد أكثر الله من امثاله لراجت سوق معمل تقطيرنا ! »

ولم تكن سماحة الطبع هى التى حملت مقطر الخمور على قول ما قال ، ذلك انه كان متطيرا يؤمن بالخرافات على اختلاف انواعها وأشكالها ، ويعتقد ان طرد رجل اتخذ مجلسه بالفعل على اريكة يجر الويلات والمصائب .

وغمغم كالينيك وهو مستلق على الأريكة : « ترى ماذا يصيبنى عندما اتقدم فى السن ؟ لوكنت ثملا ما ازعجنى الأمر، ولكننى لست ثملا ، اجل لست ثملا وأيم الحق ، ولم اكذب ؟ انى لمستعد ان أصرح لشيخ القرية نفسه بهذا ، وماذا يهمنى من امر الشيخ ؟

وددت لو غص حلق هذا الكلب ! وانى لأبصق عليه ! ولشــد ما اتمنى ان تدهم عربة هذا الأعور الملعون ! ما باله يفرق الناس بالماء ابان الصقيع ؟ »

وقال الشيخ وهو ينهض من مقعده فى غضب : « اذن فقد شق الخنزير طريقه الى الكوخ ، وهاهو ذا يضع قائمتيه على المائدة !» وفى تلك اللحظة سقط عند قدميه حجر ثقيل حطم النافذة تحطيما، فتوقف عن الكلام برهة ، ثم مضى يقول وهو يلتقط الحجر: « لو كنت أعرف أى مجرم هذا الذى ألقى بالحجر لعلمتــه الا يقــذف الناس بالحجارة ! » ، واردف وهو ينظر الى الحجر الذى فى يده بعين يتطاير منها الشرر : « يا للألاعيب ! وددت لو غص حلقــه بهذا الحجر ! »

فقال مقطر الخمور وقد شحب لونه : « كف ياصديقى ! عصمك الله فى الدنيا والآخرة من أن تنعم على أحد بهذا السباب ! »

« هاكم بطلا ! لعنة الله عليه ! »

« انزع هذا من مخيلتك ياصديقى ! وانى لأحسب انك لم تسمع بما أصاب المرحومة حماتى ؟ »

« حماتك ؟ »

« أى نعم ، فقد حدث ذات مساء ، وربما كان ذلك فى ســاعة ابدر قليــلا من الساعة التى نحن فيها ــ ان كانت حماتى وحمى وأجيرهما واجيرتهما الفتاة وأولادها الخمسة يجلســون على مائدة العشاء ، واخذت حماتى تهز بعض لقيمات القاضى مسقطة اياها من القدر فى طاس لتبرد ، وكان الجوع قد عضهم جميعا بنابه بعد أن

فرغوا من أعمالهم ، فلم يصبروا على اللقيمات حتى تبرد ، واقبلوا عليها بأعواد من الخشب طويلة يلتقطونها ويأكلونها ، ولاح لهم فجأة رجل لم يعرف أحد من أين هبط عليهم ولا من يكون الا الله .

«وطلب الرجل منهم ان يسمحوا له بالجلوس الى المائدة ، وما كان الطعـــام ليحرم على رجل جائع ، فاعطوه هو أيضـــا عودا من الخشب . الا ان الزائر التهم لقيمـــات القـــاضى كما تلتهم البقرة الدريس ، وأصاب كل من الآخرين لقيمة واحدة ، على حين اخـــذ الرجل يضرب بعوده بحثا عن غيرها ، واذا بالطاس انظف من أديم الأرض فى دار السيد الفاضل .

« وانزلت حماتى بعض لقيمـــات أخرى من القـــدر ، وظننت ان الضيف قد أكل كفايته وانه سيلتهم هذه المرة أقل مما يلتهم ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، فقد أخذ يلتهمها بأسرع مما التهم سابقتها حتى اتى على ما فى الطاس مرة أخرى ، فقالت حماتى بينها وبين نفسها : « الا فليغص حلقك باللقيمات ! » ولم يلبث الرجل انغص حلقه وسقط على الأرض ، فهرعوا اليه ، فوجدوه قد أسلم الروح، ذلك انه كان قد اختنق » .

وقال شيخ القرية : « لقد نال جزاءه ذلك النهم الملعون ! »

« ربما كان القول ما قلت ، ولكن القصة لم تنته عند هذا الحد، فان حماتى لم تذق طعم الراحة منذ ذلك الحين ، وما ان جنالليل حتى ظهر الميت ، فقد جلس هذا الفتى الملعون على المدخنة منفرج الساقين قابضا بأسنانه على لقيمة من اللقيمات وكان الهدوء ينشر ظلاله سحابة النهار فلا يسمعون عنه شيئا ، حتى اذا حل الغسق ظهر هذا الـكلب جالسا على المدخنة ! »

« قابضا بأسنانه على اللقيمة ؟ »

« أجل ، قابضا بأسنانه على اللقيمة »

« ما أعجب ما تقول ياصديقى ! لقد سمعت بشىء من هذا القبيل فى عهد المغفور لها قيصرتنا ... »

وتوقف المتكلم عن الحديث ، فقد بلغ أسماعهم طرق أقدام ترقص تحت النافذة ، وانبعثت البندورة اول الأمر تشدو شدوا رقيقا ، ثم تلاها صوت يترنم ، وارتفع رنين الأوتار، واشتركت عدة أصوات فى الانشاد ، ثم علا الغناء كالعاصفة :

هل سمعتم ايها الفتيان آخر الأنباء ؟

راسنا « أى شيخنا » مختل العقل !

ان راسنا الأعور له راس كالبرميل

تفككت الواحه !

***

فتعال يا صانع البراميل ودقه دقا

واحزمه باطواق من الصلب !

***

تعال يا صانع البراميل ودق الراس بمطرقتك

واضرب بعزيمة صادقة !

ان راسنا أعور ، اشتعل راسه شيبا ،

انه عجوز ، عمره عمر الخطيئة نفسها . ويا لراسه الأخرق

يزخر بالأهواء والأفكار الشهوانية

يغازل الفتيات هذا الغبى !

أيجوز لك ان تحاول تقليد الشـــبان ؟
وقد كان أولى بك أن تـكون مسجى فى قبرك
تلقى فيه من قفاك وسوالفك !
ومن قنزعتك التى تزهو بها وتتعاجب !

***

وقال مقطر الخمور وهو يميل برأسه قليلا ، ويلتفت الى مضيفه الذى كانت قد أذهلته الوقاحة الشديدة : « ما أعذب هذه الأغنية ياصديقى ! ما أعذبها ! ومما يرثى له انهم يتحدثون عن رأسهم بهذه العبارات المهينة »

ثم وضع يديه على المائدة مرة أخرى ، وقد التمعت عيناه ببريق الفرح والسرور وتهيأ لسماع المزيد ، فقد كان يترامى الى الأسماع من الخارج عاصفة من الضحك والصياح : « أعد ! أعد ! ». على ان العين البصيرة كانت تستطيع ان ترى فى الحال ان الدهشة لم تكن هى التى سمرت شيخ القرية فى مكانه ، ذلك ان السنور المحنك ينتهج هذه الطريقة نفسها أحيانا ، فيدع الفأر القليل الخبرة يدور حول ذيله ، ويروح هو يدبر خطة سريعة يقطع بها على الفأر سبيل الرجوع الى جحره . وكانت عين الشـيخ الواحـدة لاتزال تحدق بالنافذة ، على حين كانت يده قد أمسكت بمقبض الباب الخشبى بعد أن أومأ بها الى الشرطى ، ثم ارتفع صـوت فى الطريق فجأة ، وأسرع مقطر الخمور فملأ غليونه وهرع الى الخارج ، فقد كان حب الاستطلاع صفة من صفاته العاطرة الكثيرة ، الا ان الفتيـان الأوغاد كانوا قد تفرقوا فى كل اتجاه .

وصاح شيخ القرية وهو يجر رجلا من ذراعه يرتدى جلد ماعز

مقلوبا : « هيهات ان تفلت منى ! »

وانتهز مقطر الخمور هذه الفرصة وجرى ليلقى نظرة على هـذا الذى عكر صفو الأمن ، ولكنه تراجع مذعورا ، اذ شاهد لحية طويلة ووجها مخيفا علاه الطلاء وصاح الشيخ : « هيهات ان تفلت منى! » وأخذ يجر الى المنزل اسيره الذى لم يك يبدى أية مقاومة ، بل كان يتبعه فى هدوء كما لو كان ذاهبا الى كوخه ، وقال الشيخ للشرطى: « افتح المخزن ياكاريو ، ولنحبسه فى المخزن المظلم ، ثم نوقظ الكاتب ونجمع الشرطة ، ونقبض على هؤلاء الصاخبين كافة ، ونصدر عليهم جميعا حكمنا الليلة ! »

وأولج الشرطى مفتاحه فى قفل صغير ، فصلصل وفتح المخزن ، وانتهز الأسير فى تلك اللحظة فرصة الظـلام ، فأتى بمجهود عنيف تخلص به من قبضته .

وصاح الشيخ وهو يشدد قبضتهعلى بنيقة ثوبه : « الى أين ؟ »

فصرخ صوت رفيع مجلجل قائلا : « دعنى ! فاننى انا من تعلم!»

« لن يجديك هذا شيئا يابنى ، ولتصرخ كالشيطان او كالمراة ، ولكنك لن تخدعنى » ، ودفعه الى المخزن المظلم دفعة ، فتأوه الأسير المسكين ، وخر على الارض ، واصطحب شيخ القرية الشرطى وقصد الى كوخ الكاتب ، يتبعهما مقطر الخمور وهو ينفخ كما تنفث الباخرة دخانها .

وسار ثلاثتهم وقد ارخو ابصارهم ، واستغرقوا فى التفكير، واذا بهم يصرخون جميعا صرخة رجل واحد فى منعطف بزقاق مظلم ، فقد اصابتهم لطمة عنيفة على جباههم ، ورجع الصدى صوت صرخة

مماثلة ، وزر شيخ القرية عينه فرأى ، والدهشة تتملكه ، الكاتب ومعه شرطيان .

« لقد كنت قادما لرؤيتك ايها الـكاتب المحترم ! »

« وانا كنت قادما للقاء سيادتكم ايها الشيخ الموقر ! »

« ان أمورا عجيبة تقع ايها الـكاتب المحترم ! »

« غاية فى العجب ايها الشيخ الموقر ! »

« عجبا ! واى أمور تعنى ؟ »

« لقد جن جنون الفتيان ، وهم يسيرون فى الطرقات عصابات كاملة على نحو شائن معيب ، ويصمون سيادتكم بعبارات يمنعنى الخجل من ترديدها . ان المسكوفى الثمل لايطاوعه لسانه القذر على النطق بهذه العبارات » وكان الكاتب الهزيل الذى ارتدى سروالا من الكتان المنقط وصديريا يحاكى فى لونه ثفالة النبيذ ، يقول هذا كله وهو يمد عنقه حينا ويرده الى مكانه حينا آخر . « وكنت قد استسلمت للنوم وشيكا عندما أيقظنى هؤلاء الأوغاد اللاعين بأغانيهم المخزية وطرقهم على الباب ، وكان فى نيتى ان أنزل بهم الجزاء الرادع لولا أنهم هربوا جميعا وانا مشغول بارتداء سروالى وصدارى ، على أن زعيمهم لم يفلت ، فهو يشدو الآن فى الكوخ الذى نحبس فيه المساجين . ولقد كنت متلهفا الى معرفة اى صنف من المجرمين هذا الذى قبضنا عليه ، لولا ان وجهه قد غشيه السواد كله فأصبح كوجه الشيطان الذى يضع المسامير لأهل المعصية » .

« وكيف كان لباسه أيها الكاتب المحترم ؟ » .

« كان يرتدى جلد الماعز مقلوبا ايها الشيخ الموقر » .

« أو تكذب أيها الكاتب المحترم ؟ وما قولك فى ان هذا الوغد يجلس الآن فى مخزنى ؟ » .

« كلا أيها الشيخ ، وانني لأحسب أن الأمر قد التبس عليك بعض الشيء ، ولست أقصد بذلك أن أسيء اليك » .

« على بمصباح ! ولنلق عليه نظرة » .

وجيء بالمصباح ، وفتحوا الباب وصرخ شيخ القرية صرخة تنم عن الدهشة اذ راى امامه اخت زوجته . وانهالت عليه المرأة تقريعا : « بالله خبرنى ، أو فقدت تلك المسكة من العقل التى لم يكن لك قط غيرها ؟ وهل كان فى رأسك ذى العين الواحدة ذرة من بصيرة عندما دفعتنى الى المخزن المظلم ؟ لقد كان من حسن حظى ان رأسى لم يرتطم هو والخطاف الحديدى ، الم اصرخ فيك بأننى انا من تعلم ؟ الا تبالك أيها الدب الملعون ، لقد قبضت على ببراثنك الحديدية ودفعتنى الى داخل المخزن ، فلتجزينك الأبالسة الجزاء نفسه فى العالم الآخر !» .

ونطقت المرأة بالكلمات الأخيرة وهى فى الطريق ، ذلك انها كانت قد خرجت لبعض شأنها .

فقال شيخ القرية متمالكا زمام نفسه : « اجل ، ارى انك انت هى . ما قولك أيها الكاتب المحترم ؟ اليس ذلك التيس وغدا ما كرا ؟ »

« انه لوغد ماكر أيها الشيخ الموقر » .

« ألم يحن الوقت بعد لنلقى على هؤلاء الأوغاد جميعا درسا قاسيا ، ونحملهم على العمل ؟ » .

« لقد حان الوقت أيها الشيخ الموقر » .

« لقد ظن هؤلاء الحمقى – ترى ماذا هناك ؟ يخيل الى اننى سمعت صوت أخت زوجتى تصرخ فى الطريق – لقد ظنوا انهم مثلى سواء بسواء ، أجل ظنوا اننى واحد منهم ، لا اعدوا أن أكون قوزاقيا من غمار القوزاق ! » . وبدا من تلك النحنحة التى اطلقها الشيخ عقب

هذه الكلمات والطريقة التى رفع بها بصره من تحت حاجبيه انه كان يهم بالحديث فى أمر ذى شأن .

« لقد حدث فى السنة السابعة عشرة ... وأنا لا استطيع أن أتذكر ابدا تلك التواريخ المربكة ــ ان صدر الأمر الى ليداتشى الذى كان وقتئذ يلى منصب المأمور ، بأن يختار من القوزاق أنجبهم جميعا ، آه ! » ، ونطق « بآه » هذه وقد رفع أصبعه فى الهواء : « أجل ! انجب القوزاق جميعا ليؤدى مهمة الدليل للقيصرة ، وكنت فى ذلك الوقت ... » .

«صدقت أيها الشيخ الموقر، واننا لنعلم هذا جميعا ، أجل نعلم كيف نلت الحظوة لدى القيصرة ، ولتسلم الآن بأننى كنت على حق ، فقد حملت نفسك وزرا عندما قلت : انك قبضت على ذلك الوغد الذى يرتدى جلد الماعز الأسود » .

«اما بخصوص ذلك الشيطان الذى يرتدى جلد الماعز الأسود ، فلنقيدنه بالأغلال ، ونعاقبه عقابا شديدا حتى يكون عبرة للآخرين ! وليعلموا معنى السلطان ! فمن الذى يولى راس القرية ان لم يكن هو القيصر نفسه ؟ ثم لنقبض على الشبان الآخرين ، فانى لم أنس أن هؤلاء الأوغاد اللاعين ساقوا قطيعا من الخنازير الى حديقة خضراواتى فأتى على جميع ما فيها من كرنب وخيار ، ولم أنس أن أولاد الشيطان هؤلاء قد رفضوا أن يدرسوا قمحى ، ولم أنس ... ولكن لعنة الله عليهم جميعا . يجب أن اكشف عن حقيقة ذلك الوغد الذى يرتدى جلد الماعز مقلوبا ! » .

وقال مقطر الخمور : « انه فيما يبدو مجرم داهية ! » ، وكانت وجنتاه أثناء هذا الحديث كله يغشاهما الدخان باستمرار وكأنهما مدفع حصار ، وأخذت شفتاه ، بعد أن خلتا الفليون القصير ، تنفثان سيلا من

الدخان حقا ، ثم اردف يقول : « ولن نخسر شيئا اذا اقمنا الفتى بالعمل فى مصنع التقطير ، وافضل من هذا ان نعلقه فى قمة شجرة سنديان بدلا من المبخرة » .

ولم تبد هذه الملحة سخيفة كل السخافة فى عين مقطر الخمور ، ولم يلبث ان صح عزمه على ان يكافىء نفسه عليها بضحكة خشنة دون أن ينتظر موافقة الآخرين ! .

وكان القوم قد اشرفوا فى تلك اللحظة على كوخ صغير أوشك ان يخر على احد جانبيه ، وازداد اصحابنا فضولا وتكأكئوا جميعا حول الباب ، واخرج الكاتب مفتاحا ، وراح يلم بالقفل مصلصلا ، فتبين انه مفتاح صندوقه ، وعيل صبر الجماعة ، ثم دس الكاتب يده فى جيبـــــه متحسسا المفتاح ، ولكنه لم يعثر عليه فاخذ يسب ويلعن .

وهتف آخر الأمر : « ها هو ذا ! » ، وانحنى يضرب فى اعماق جيبه الرحب الذى كان قد زود به سرواله الذى شاعت الوكت فى رقعته كلها ، محاولا اخراج هذا المفتاح ، وما ان نطق الكاتب بعبارته الأخيرة حتى بدا ان قلوب اصحابنا قد امتزجت جميعا وأصبحت قلبا واحدا اخذ يدق بقوة حتى ان صرير القفل نفسه لم يستطع ان يطغى على صوت دقاته المضطربة ، وانفتح الباب ، وشحب وجه شيخ القرية حتى غدا كالملاءة البيضاء ، وشعر مقطر الخمور برعدة باردة تسرى فى وصاله ، ولاح ان شعر راسه قد وقف فى الهواء ، وارتسم الرعب على محيا الكاتب ، وتسمر رجال الشرطة فى مكانهم ، وعجزوا عن اغلاق افواههم التى كانت قد انفغرت فى وقت واحد ، ذلك انهم وجدوا اخت زوجة شيخ القرية واقفة امامهم ! .

ولم تكن المراة على كل حال اقل دهشة منهم ، الا انهـــا تمالكت

نفسها ، ثم اتت بحركة كما لو كانت تريد أن تدنو منهم .

وصاح الشيخ صيحة وحشية : « مكانك ! » ، وصفق الباب فى وجهها ، ثم مضى يهتف : « أيها السادة ، انه الشيطان ، الى بمصباح ، وعجلوا ! لن أفلت هذا الكوخ ولو كان ملك القيصر نفسه ، أشعلوا فيه النار ، أشعلوا فيه النار ، حتى لا تتركوا من عظام الشيطان نفسه شيئا على الأرض » .

وصرخت اخت زوجته فزعا وهى تسمع من خلال الباب هذا الحكم المشئوم .

وصاح مقطر الخمور : « ما هذا الذى تريدون ان تفعلوه أيهـــــا الأصدقاء ؟ ان شعركم والحمد لله قد اتى عليه الشيب أو كاد ،ولكنكم لم تؤتوا الحكمة بعد . ان الساحرة لا تحترق بالنار المألوفة ! وانما نار الغليون هى التى تحرق من يتقمصه الشيطان ! فاصبروا قليلا ولن تنقضى لحظة حتى أعد للأمر عدته ! » .

وما أن فرغ من قوله حتى نفض بعض الرماد الحامى من غليونه على حزمة من القش وراح ينفخ فيها ، وكانت المرأة المسكينة قد غلبها اليأس على أمرها فى هذه الأثناء ،فانبعثت ترفع عقيرتها تبتهل اليهم وتتوسل .

وقال الكاتب : « انتظروا أيها الأصدقاء ، لماذا نحمل أنفسنا وزرا فى غير مقتض ؟ ربما لا تكون هى الشيطان ، ولئن رضى هذا المخلوق الذى يجلس هناك أيا كان شانه بأن يرسم اشارة الصليب ، كان ذلك بينة لا تنقض على أنه لا يمت للشيطان بسبب » .

وصادف هذا الاقتراح القبول لدى الجماعة .

وقال الشيخ وهو يلتفت وراءه كأنه يبحث عن ملجأ أمين يلوذ به اذا اضطره الأمر الى التراجع : « ارسمى علامة الصليب ! » .

ورسمت المراة علامة الصليب .

« يا للعنة ! انها اخت زوجتى حقا ! » .

« اى روح شريرة تلك التى رمت بك الى هذا الجحر يا أختاه ؟ » .

وقالت المراة للقوم وهى تنتحب ان الفتيان قبضوا عليها فى الطريق على الرغم مما اظهرته من مقاومة ، ودفعوها دفعا الى الكوخ من نافذته العريضة ، ثم سمروا مصراع النافذة . ونظر الكاتب الى النافذة فاذا بالمسامير التى فى عرى المصراع العريض قد نزعت من مكانها ، وثبت المصراع بلوح من اعلاه .

وصاحت المراة وهى تمضى نحو شيخ القرية فتراجع مترنحا وكان لا يزال يحدجها بعينه الواحدة : « يا لك من داهيــة ايها الشيطان الأعور ! ان حبائلك لا تخفى على ، فقد كنت تريد ، بل يسرك ، ان احترق بالنار ، حتى تغدو حرا طليقا تجرى وراء الفتيات ، ولا يرى احد الجد العجوز الذى اشتعل رأسه شيبا يمرح ويلهو . أتظن اننى لا أعلم ماذا كنت تقول لحنة هذا المساء ؟ انى لأعلم كل شيء عن ذلك ، وليس خداعى بالأمر اليسير ، فما بالك اذا كان من يروم خداعى غرا أبله مثلك ، اننى لأتحلى بفضيلة الصبر ، فاذا نفد صبرى فلا تلومن الا نفسك ! » .

وما ان فرغت المراة من قولها هذا حتى هزت قبضتها فى وجهه ، وسارت مهرولة تاركة الشيخ فى حيرة من أمره .

وقال الشيخ يحدث نفسه وهو يحك رأسه حكا قويا : « لا شك ان للشيطان يدا فى ذلك » .

واقبل عليه رجال الشرطة فى تلك اللحظة وصاحوا قائلين : « لقد قبضنا عليه ! » .

وسالهم الشيخ : « على من ؟ » .

« ذلك الشيطان الذى يرتدى جلد الماعز مقلوبا » .

فصاح الشيخ وهو يقبض على ذراع الأسير : « دعوه لى ! فلستم الا قوما مجانين ! وانما هذا الذى تمسكونه هو كالينيك الثمل ! » .

فأجاب الشرطة قائلين : « يا له من امر عجيب ! لقد وقع الشيطان فى ايدينا ايها الشيخ الموقر ! فاقبل الفتيان الملاعين والتفوا بنا فى الزقاق ، واخذوا يرقصون ويقفزون ويجذبوننا من ثيابنا ويخرجون لنا السنتهم وينتزعونه من بين أيدينا ! لعنة الله عليه ! أما كيف وقعنا على هذا الغراب وضللنا عن الشيطان فعلم ذلك عند الله وحده!» .

فقال الشيخ : « بمقتضى السلطة المخولة لى وباسم المجتمع كله اصدر اليكم الأمر بأن تلقوا القبض على ذلك الوغد فى التو والساعة ، وعلى كل من تصادفونه فى الطريق ، وتأتوا بهم الى لانظر فى أمرهم ! » .

فصاح بعضهم وهم يجثون على قدميه : « رحمــاك ايها الشيخ الموقر ! وليتك رأيت وجوههم القبيحة ، لقد ولدنا وعمدنا ولكننا لم نر قط مثل هذه الوجوهالبشعة ، وليهلكنا الله ان كنا من الكاذبين ، وهذا الذى حدث لا ينجم عنه الا الشر أيها الشيخ الموقر ، وقد يوقع هؤلاء الفتية فى قلب الرجل الطيب منالرعب ما لاتستطيع أية امراة عجوز أن تتعهد بشفائه منه » .

« الرعب حقا ! ترى ما الذى ترمون اليه ؟ اتعصون الأوامر ؟ انى لأحسب أنكم ضالعون معهم تماما ! اتشقون عصا الطاعة ؟ ما خطبكم ؟ وما معنى هذا ؟ اتعمدون الى الفتنة ؟ انتم انفسكم .. لأرفعن أمركم الى المامور ! فى التو والساعة ! اتسمعون ؟ فى التو والساعة ! عجلوا ، عجلوا ولتسابقوا الريح ! ولتعلمن اننى .. ولتعلمن انكم .. » .

وهرولوا جميعا وقد ذهب كل منهم فى واد !

- ٥ -

العذراء الغريقة

كان المحرض على هذا الشغب كله يسير ببطء شطر البيت القديم وشطر البركة دون أن يزعجه الطراد او تقلقه فرق البحث التى اطلقت فى كل اتجاه ، وما من حاجة تدعونا بعد الى القول بأن ذلك المحرض هو ليفكو ؛ وكان الفتى يمضى فى طريقه وقد فك أزرار جلد الماعز الذى كان يرتديه ، وامسك بقبعته والعرق يتصبب من وجهه . وكانت غابة اسفندان تبدو مهيبة جليلة يغشاها الظلام الكئيب ، ويلم بها فحسب لألاء من ضـــوء القمر انتشر هنا وهناك ، وراحت البركة الساكنة تنضح ذلك الجوال المتعب بأنفــــاس رطيبة منعشة تغريه بالاخلاد الى ضفتها يستروح لحظة ، وكان السكون شاملا لا يتخلله الا تغريد البلابل فى الصميم من اعماق الغابة ، وسرعان ما ادرك الفتى نعاس لا يستطيع له دفعا ، فأغمض عينيه ، وبدأ الخدر يدب فى فى أعضائه الكليلة ، ونكل رأسه ومال ، ثم هتف وهو يشد قامته ويفرك عينيه : « ويحى » لو أننى بقيت على هذه الحال لاستسلمت للنعاس فى مكانى هذا ! » .

وتلفت حوله فبدا له الليل اكثر بهاء واعظم جلالا ، وامتزج ضوء القمر لألاء فاتن غريب لم ير له الفتى من قبل مثيلا قط ، واكتسى كل شىء حوله بضباب فى لون الفضة ، وغمر الأرض جميعا عبير

نوار التفاح وشذا الأزهار ، ينفحها الليل بعطره ، واخذ الفتى ينظر مشدوها الى مياه البركة الساكنة التى انعكست عليها صورة لقصر الريفى لشريف الناحية مقلوبة ، وقد تجلى القصر فى حلة من المهابة والجلال ، واستبدلت فيه النـــوافذ والأبواب الزجاجية المشرقة بالمصاريع الكئيبة ، وتالق بريق الأشياء المذهبـــة من خلال الألواح الزجاجية الشفافة ، ثم خيل اليه أن نافذة من نوافذ القصر قد فتحت فحبس انفاسه وكف عن الحركة ، ولم يحول نظره عن البركة ، وبدا انه يغوص الى اعماقها ، واذا به يرى اول ما يرى مرفقا أبيض يظهر من النافذة ، ثم رأسا صغيرا فاتنا وعينين مشرقتين تتالقان فى رقة وعذوبة من خلال خصلات الشعر الكستنائية الداكنة ، واطل الراس من النافذة واستند على المرفق ، ثم رأى الغـادة تومىء ، برأسها ايماءة رقيقة .

لقد كانت تشير اليه ، وكانت تبتسم ، فأخذ قلبه ينبض ، وشرع الماء يهتز ، ثم اغلقت النافذة مرة اخرى ، وابتعد الفتى عن البركة فى بطء ، ونظر الى القصر ، فوجد المصاريع المظلمة مفتوحة ، والواح النوافذ الزجاجية تتألق فى ضوء القمر فقال يحدث نفسه : « عجبى للناس : لا يستطيع المرء أن يصدق من أقاويلهم الا القليل ، انه لقصر جديد غض الطلاء كأنما نفض الصانع منه اليدين بالأمس نفضا ، وبعض الناس يقيمون فيه » . واقترب من القصر فى سكون ، فلم يسمع فيه نأمة ولا حسا ، وارتفع صوت البلابل الرائع تشدو بأنغامها الشجية حتى اذا خفت صوتها وغاب فى غمرة من الوسن والاشتهاء ، علا حفيف الجنادب وطنينها ، وانبعث من هذا الطائر او ذاك من طيور المستنقع صـــوت عميق ، وهو يضرب بمنقاره الزلق صفحة المـاء العريضة ، وامتلأ قلب ليفكو بشعور عذب من الســـكينة والرحابة

والانطلاق ، فنغم بندورته وراح يعزف عليها ويشدو :

آه ، أيها القمر ، القمر الحبيب !
وانت ، يا نجمى المشرق الجبين !
تالقا واسكبا نوركما على الكوخ
ففيه تقيم فتاتى الجميلة !

وانفتحت النافذة فى بطء ، واطلت الفتاة التى راى صورتها منعكسة على مياه البركة ، واخذت تنصت الى غنائه فى امعان ، وقد أوشكت اهدابها الطويلة ان تخفى عينيها ، واتشحت كلها بحلة بيضاء كالصفحة الناصعة او كضوء القمر ، اما جمالها فكان هو الروعة والفتنة والبهاء ! وضحكت الفتاة فجفل ليفكو .

وقالت فى صوت ناعم رقيق ، وهى تميل براسها على جانب وتستر عينيها برموشها الوطف : « غن لى اغنية ايها القوزاقى الشاب ! » .

« أى اغنية تريدين ياغادتى الفاتنة ؟ » .

وسالت الدموع من عينيها وتحدرت فى بطء على وجهها الشاحب.

وقالت،وفى حديثها نبرات تبعث فى النفس من الأسى ما يعجزالقلم عن وصفه : « ايها الشاب ، أيها الشاب ، ابحث لى عن زوجة أبى ! ولن احمل لك حقدا ، بل سأجازيك ، فأجزل لك العطاء واسخو فى الاغداق عليك ، ان لدى أكماما مطرزة بالحرير والمرجان والقلائد ، وساهب لك حزاما مرصعا باللآلىء ، وعندى ذهب ايها الشاب ، فابحث لى عن زوجة أبى ! انها لساحرة رهيبة ، عكرت صفو حياتى ، فلم اعرف طعما للراحة . لقد كانت تعذبنى ، وتحملنى على العمل كأية فتاة قروية تافهة الشان . انظـــر الى وجهى تر انها توسلت

بسحرها الدنس ، فسلبت منه ورد الخدين ، وانظر الى عنقى الأبيض تر الآثار الزرق القاتمة لبراثنها الفولاذية باقية لا تمحى ولا تزول ولا يرجى لى منها خلاص ! وانظر الى قدمى البيضاوين ، لقد طوح بهما النوى ، ولكنهما لم تسيرا على الأرض الرطبة والأشواك الحادة ! وانظر الى عينى ، أجل انظر الى عينى ! لقد طمس البكاء نورهما ، واظلمتهما غشاوة ! على بها أيها الشاب ، وهات لى زوجة ابى ! ..

وخفت صوتها الذى كان قد ارتفع حتى تلاشى فى غمرة السكون ، وانهمر الدمع على وجهها الشاحب ، فانفطر قلب الشاب أسى ورحمة، وقال فى لهجة تجيش بالعاطفة : « انى لمستعد أن افعل أى شىء من أجلك يا غادتى الفاتنة ! ولكن كيف أجدها ؟ وأين ؟ » .

فردت عليه مسرعة: « انظر ، انظر ، انها هنا ، انها على الضفة تلعب مع أترابى العذارى بعض الألعاب ، وتستدفىء فى ضوء القمر ، ولكنها ماكرة داهية ، فقد اتخذت لنفسها صورة الغادة الغريقة ، ومع ذلك فانى أعلم ، بل أحس بأنها هنا ، تضيق على المسالك ، وتكتم منى الأنفاس ، وأنا لا استطيع أن اسبح كالسمكة فى سهولة ويسر بسببها ،وانما أغوص واهبط الى القاع كالمفتاح ، فابحث عنها أيها الشاب ! » .

ونظر ليفكو شطر الضفة ، فرأى من خلال الضباب الفضى الرقيق عذارى ينطلقن خفيفات كالطيف فى قمصان تحاكى المرج فى بياضها الناصع تزينها زنابق من زهر الوادى ، وقد زهت أعناقهن بالقلائد الذهبية وعقود الخرز وقطع النقود ، ولكنهن كن شاحبات ، رقت اجسامهن كأنها قدت من سحابةشفافة ، حتى بدا أن ضوء القمر الفضى يتألق فى ثناياها ، ودنت العذارى منه رويدا رويدا يغنين

ويرقصن ، فيصل غناؤهن الى سمعه .

ثم همسن : « هيا بنا نلعب لعبة الغراب وفراخ الدجاج » ، وكان صوتهن كصوت قبلة تطبعها شفتا النسيم الاثيرية على اغصان الغاب النابتة فى حافة النهر فى هداة الفجر .

« ولكن ، من تكون الغراب ؟ » .

واقترعن على ذلك ، وبرزت فتاة من صفوف العذارى ، وامعن ليفكو النظر فيها ، وكان وجهها وثوبها يحـــاكى وجوه الأخريات وثيابهن سواء بسواء ، على انه لاحظ انها لم تقبل على اداء دورها فى اللعبة ، واصطفت جماعة الفتيات فى دائرة ، وانطلقن مبتعدات عن العدو الكاسر .

وقالت الفتاة وقد ادركها التعب والاجهاد : « كلا ، فلست أريد أن اكون الغراب ، وانه ليحزننى ان اخطف الفراخ من امهن المسكينة !»

فقال ليفكو بينه وبين نفسه : « لست انت هى الساحرة ! » .

« ومن تكون الغراب ؟ » . وتهيأت الفتيات للاقتراع مرة اخرى .

وابدت فتاة كانت تتوسط الجماعة استعدادها للقيام بهذا الدور قائلة : « لأكن انا الغراب ! » .

ونظر ليفكو فى وجهها بامعان ، وانطلقت الفتاة تتابع الحلقة فى جراة وسرعة ، واندفعت متنقلة من جانب الى جانب لتقبض على ضحيتها ، واذا بالفتى يلاحظ فجاة أن جسمها لا يبلغ فى شفافيته مبلغ الأخريات، فقد كان يبدو للعين فى طوايا جسمها شىء معتم ، وانبعثت فى الجو صرخة على حين غرة ، فقد انقض الغراب على فتـــاة من الحلقة ، وامسك بها ، وخيل الى ليفكو ان الفتاة التى كانت تقوم بدور الغراب قد ابرزت مخالبها ، وتالق وجهها فجاة ببريق من الحقد والشر .

فقال وهو يشير بأصبعه اليهـا فجاة مرتدا الى شـــطر المنزل : « الساحرة ! » .

وضحكت الفتاة المطلة من النافذة ، وقادت الفتيات الآخريات وهن يصحن : الفتاة التى أدت دور الغراب .

« كيف أجزيك على ما فعلت أيها الشاب ؟ انى لأعلم انك لست فى حاجة الى الذهب ، وانما انت تحب حنة ، ويأبى ابوك الغليظ القلب أن يزوجك اياها ، على أنه لن يعترض بعد اليوم طريقك ، فهاك ! وخذ هذه الرسالة اليه » .

وامتدت يدها البيضاء ، وفاض وجهها بنور وبهاء عجيبين ، وأطبقت يد الفتى على الرسالة ، ودق قلبه فى شوق واهتمام وقد غلبه القلق على امره ، ثم ... استيقظ من نومه ! .

- ٦ -

اليقظــــــة

وتساءل ليفكو ، وهو ينهض من الرابية : « ترى هل كنت فى منام ؟ » ، ثم قال وهو يتلفت حوله : « لقد كان ذلك كله أقرب الى الحياة كأنما هو قد حدث فعلا ، يا للعجب ! » .

وتبين ليفكو اذ راى القمر يعتلى كبد السماء فوق رأسه تماما ، ان الليل قد انتصف وكان السكون يخيم على أرجاء المكان جميعه ، وانبعث من البركة هواء بارد قر ، وقام القصر القديم بمصاريعه المغلقة امامه يجلله الحزن والأسى ، وقد لاح من الطحلب والأعشاب الطويلة أن أهله هجروه منذ أمد بعيد ، ثم بسط ليفكو يده التى كانت منقبضة فى احكام وهو مستسلم للنوم ، وصاح مذهولا اذ أحس بوجود الرسالة فيها ، وقال يحدث نفسه وهو يقلب الرسـالة بين يديه ، ويتأملها من جميع نواحيها : « آه ! لو كنت أستطيع ان اقرأ ! » وفى تلك اللحظة سمع صوتا ينبعث من خلفه .

« لا تخافوا ، واقبضوا عليه فى الحال ! ما بالكم تخافون ؟ اننا اثنا عشر ، وانى لأراهنكم بأى شىء على أنه رجل وليس بشيطان ! » وهكذا أخذ شيخ القرية يصيح فى رفاقه ، وأحس ليفكو بأيد تمسك بتلابيبه ، وكان بعضها يرتعد خوفا وفزعا ، وقال الشيخ وهو يقبض عليه من بنيقة ثوبه : « اخلع هذا الثوب المخيف ياصديقى ! ودعك من السخرية

بالناس ! » ، ولكن الدهشة عقدت لسانه عندما وقع بصره عليه ، فصاح وهو يتراجع مذهولا ويرخى يديه : « ليفكو ولدى ! هل هو أنت يابن الكلب ! آه ربيب الشيطان ! لقد كنت أتساءل : من يكون ذلك الوغد ؟ وأى شيطان تقمصه فراح يلعب تلك الألاعيب ؟ اذن فهذا كله من صنعك ! الا فليغص حلق أبيك بهلام لم يتم نضجه ! أيطيب لك أن تثير كل هذا الشغب فى الطـــريق وتؤلف هذه الأغانى ؟ آه يا ليفكو ! ما معنى هذا ؟ يبدو ان ظهرك يتحرق شوقا للعصا ! شدوا وثاقه ! » .

فقال ليفكو : « اصبر قليلايا ابت ! فقـد طلب منى أن اسلمك الرسالة » .

« ليس هذا بالوقت المناسب لتلقى الرسائل يابنى ! شدو وثاقه ! »

وقال الكاتب وهو يفض الرسالة : صبرا أيها الشيخ الموقر ، فانها بخط المأمور » .

« بخط المأمور ؟ » .

وردد الشرطة من غير وعى : « بخط المأمور ؟ أليس هذا بعجيب ؟ وى ! لقد ازداد الأمر غرابة على غرابة !.

وقال ليفكو يحدث نفسه : « بخط المأمور ؟ » .

وقال الشيخ : « اتلها ، اتلها ! وقل لنا ماذا كتب المأمور ؟ .

وقال مقطر الخمور وهو يقبض على غليونه بأسنانه ويشعل عودا من الثقاب :

« لنسمع ما كتب المأمور » .

وتنحنح الكاتب واخذ يقرأ :

« امر الى شيخ القرية بيفتوخ ماكو جونينـكو : بلغنا أيها الغبى

العجوز انك انصرفت عن جمع الضرائب المتأخرة وحفظ النظام فى القرية ، وركبت مركب الحماقة وسلكت سلوكا مشينا .. » .

فقاطعه الشيخ قائلا : « اقسم بشرفى اننى لا استطيع ان اسمع كلمة مما تقرأ ! » .

وشرع الكاتب يقرأ من جديد :

« امر الى شيخ القرية بيفتوخ ماكو جونينكو : بلغنا ايها الغبى العجوز أنك ... » .

فصاح الشيخ : « كف ! كف ! ولا تقرأ هذا ، فاننى — وان كنت لم اسمعه — لأدرك انه ليس هو بيت القصيد ، اقرأ ما بعده ! » .

« ولذلك فانى آمركم بأن تعقد لابنك ليفكو ماكو جونينكو على حنة بتريشينكو وهى فتاة قوزاقية من قريتكم ، كما آمركم باصلاح الجسور القائمة فى الطريق العام ، والا تعطو الخاصة من رجال المحاكم جياد القرويين بغير اذن منى ، ولو جاءوا اليـــكم رأســا من ديوان الحكومة ، واذا وجدت حين قــدومى اليكم أن هذه الأوامر لم تنفـــذ عددتك مسئولا دون سواك عن ذلك — المأمور : الملازم المتقـــاعد كوزومادركاش دريشبانوفسكى .

وقال الشيخ وقد فغر فاه عجبا : « وى ! او سمعتم هذا ؟ سيكون الشيخ مسئولا عن ذلك كله ، ومن ثم وجب عليكم أن تطيعونى بلا قيد ولا شرط أن يحل بكم العقاب » ، ثم التفت الى ليفكو ومضى يقول : « اما انت ، فسأزوجك اياها ، ما دام المأمور قد قضى بذلك ، وان كنت لا ادرك كيف بلغه النبأ ، على انك ستذوق اولا طعم سوطى ! وانت تعرف السوط الجديد المعلق على الجدران قرب الأيقونات ، ولاستعين به غدا ، ولكن من اين لك بالرسالة ؟ » .

وعجب ليفكو مما آلت اليه الأمور ، على أنه كان من الحصافة بحيث أعد فى ذهنه جوابا عن هذا السؤال وان اخفى الحقيقة عن الوسيلة التى حصل بها على الرسالة .

ثم قال : « لقد كنت فى المدينة الليلة الماضية ولقيت المأمور وهو يهبط من عربته ، فلما علم أننى قادم من هذه القرية ناولنى الرسالة، وطلب منى أن انقل اليك يا ابت انه سيمر بنا فى طريق عودته ويتناول العشاء معنا » .

« هل قال هذا ؟ » .

« اى نعم » .

قال الشيخ فى شىء من العزة والاعتداد بالنفس وهو يلتفت الى رفاقه : « هل سمعتم ؟ ان المأمور قادم بشخصه ليزور من هم على شاكلتنا ، اجل انه قادم الى ليتناول العشاء ، ورفع اصبعه ثم رفع رأسه كأنما كان ينصت الى شىء ، واردف يقول : « المأمور ـ اتسمعون ؟ المأمور ـ قادم ليتناول العشاء معى ، فما رأيك أيها الكاتب المحترم ؟ وما رأيك انت أيها الصديق ؟ ان هذا لتكريم لا يمكن أن يستخف به المرء . أليس كذلك ؟ » .

وقال الكاتب : « لم يسبق لشيخ قرية فيما اذكر ان حظى بجلوس المأمور الى مائدته لتناول العشاء ! » .

وقال الشيخ فى لهجة الفخور المختال : « فرق بين شيخ وشيخ » ثم التوى فمه ، وانطلق من بين شفتيه شىء قريب من الضحكة الخشنة ، بل اقرب الى قصف الرعد يترامى اليك من بعيد ، ومضى يقول : « الا تظن أيها الكاتب المحترم انه ينبغى علينا اكراما لهذا الضيف الجليل المقام ان تصدر الأوامر بأن يساهم كل كوخ بدجاجة

على الاقل وشيء من الكتان ، ثم بشيء غير ذلك . فما رأيك ؟ .

« أجل ، هذا ما ينبغي لنا أيها الشيخ الموقر » .

وسأل ليفكو : « ومتى يكون الزفاف يا ابت ؟ » .

« الزفاف ؟ كان بودي أن اريك كيف يكون الزفاف ! ولكن ليأتين القس غدا اكراما لضيفنا الجليل المقام ويعقد قرانك ، لعنة الله عليك ! وليعلمن المأمور كيف تكون المبادرة الى أداء لواجب . والآن أيهـــا الفتيان ، لقد حان وقت النوم فعودوا الى دياركم ! فان ما حدث اليوم ليذكرني بالأيام التي كنت فيها .. » وما ان نطق الشيخ بهـــذه الكلمات حتى القى بنظرة من تحت حاجبيه أفصحت عما ألفه من التباهي بخطر مركزه واعتزازه بنفسه .

وقال ليفـكو : « وليحدثنا الشيخ الآن كيف قـام بمهمة الدليل للقيصرة ! » ثم مضى مسرع الخطى ، وقلبه يطفح بشرا ميمما شطر الكوخ المألوف الذي تكتنفه أشجار الكرز القصيرة العود ، وقال يحدث نفسه : « جعـــل الله ملكوت السموات بين الملائكة الأبرار في العالم الآخر ! تالله لن أقص على احد نبأ تلك الأعجوبة التي حدثت الليلة ، وحسبي أن أقصها عليك أنت وحدك يا حنة ، ولنصلين أنا وأنت مبتهلين الى الله ان ينزل سكينة على تلك العذراء الغريقة المنكودة الطالع ! » .

واقترب من الكوخ فألفى نافذته مفتوحة ، وضوء القمر ينساب من خلالها ، فيغمر حنة وهي مستسلمة للكرى وقد توسدت ذراعها ، وتوردت وجنتاها بقبس ناعم رقيق ، وتحركت شفتاها تهتفان باسمه في همس رقيق : « نامي يا ريحانة القلب ، واحلمي بخير ما في هذا العالم ، ولو انه لا يفضل ما حل بنا من يقظة » .

ورسم عليها علامة الصليب ثم اغلق النافذة ومضى يسترق الخطى .

وما انقضى على ذلك بضع لحظات حتى كانت القرية كلها قد اخلدت للنوم ، ولم يبق الا القمر يسبح وحده متالقا رائع الحس فى فضـــاء السماء الاوكرانية الرائعة الذى لا يعرف نهايته الا الله ، اجل ، لقد كان يشرف على القرية من عليائه ذلك الجلال المعهود ، وكان الليل ، الليل القـــدسى ، يشيع فى مناكبه تلك العظمة المهيبة المأثورة . اما الأرض فلم تكن دون ذلك سناء وسنا وهى ترقد فى فيض من هــذا الضوء الفضى البديع ، الا ان اهل القرية جميعــا كانوا قــد اسلموا جفونهم للنوم ، فلم يستمتع احد بهذا المنظر الجميل ، وخيم السكون الا من نباح الكلاب ينبعث من حين الى حين ، وظل كالينيك الثمل يترنح فى الطرقات الهاجعة وقتا طويلا يلتمس الطريق الى كوخه .

الخطاب الضائع

الخطاب الضائع

قصة حقيقية يرويها قندلفت

اتريدون منى اذن ان أروى لكم قصة عن جدى ؟ لا بأس ، وماذا على اذا رويت لكم قصة من قصصه ؟ آه من هاتيك الأيام الخالية ! ولشد ما يبهج القلب ويثلج الفؤاد ان يسمع المرء بما حدث فى هـذا العالم منذ أمد بعيـد تعجز الذاكرة عن رده الى موقعه من السنة والشهر ! فاذا ما تناولت القصة قريبا من اقربائى سواء كان جدا أو جدا لجد ، خيل الى ـ وليدهمنى السعال وأنا اترنم بنشيد القديسة فارفار الشهيدة لو كنت من الكاذبين ـ اننى أقوم بدوره جميعا فى تلك القصة كأنما تقمصت روح جدى الأكبر، أو أن روح هذا الجد قد اخذت تتولانى بالاعيبها .

ويحق لى أن اذكر فتياتنا ونساءنا الصغيرات هن أكثر الناس ازعاجا لى واقلاقا لراحتى ، ذلك انهن ما أن يلحمننى حتى يهتفن : « فوما جريجوريفتش فوما جريجوريفتش ! هلم ، وارو لنا قصة مخيفة ! اروها لنا وعجل ! « ويمضين فى الحاحهن فلا اضن عليهن بطبيعة الحال ، ولكن ليتك ترى ما يقع لهن حين يأوين الى فراشهن ! وانى لأعلم وأيم الحق ان كل واحدة منهن ترتجف أوصـالها تحت اللحاف كأنما ركبتها الحمى ، ويطيب لها أن تنطوى تحت جلد الماعز تخفى فيه راسها وجسمها جميعا ، ولو أن جرذا نبش فى قدر أو لمست

هى بقدمها محرك النار لأخرجها ذلك عن وعيها أو كاد ، ولكنها تعود فى اليوم التالى فتلح على الحاحا مزعجا لأقص عليها قصة مخيفة كأنما لم يصبها من قبل شىء ، فماذا عساى ان اروى لكم ؟ لا يحضرنى شىء فى هذه اللحظة ولكن صبرا ! لأقص عليكم كيف سخرت الساحرات بجدى ، ولا حيلة لى فى ان ابدأ قصتى برجاء أتوجه به اليكم ايهـــا الأصدقاء الأعزاء ، وهو الا تقاطعونى والا اختلطت القصة على اختلاطا لا يستسيغه أحد :

كان جدى ، ولا اخفيكم ، زعيما من زعماء القوزاق فى أيامه ، يعرف القرءة والكتابة ويعرف الى ذلك كيف يستعمل علامات الترقيم ، وكان اذا حل عيد من أعياد القديسين راح يتلو سفر اعمال الرسل فى صوت يتضاءل بجانبه صوت ابن اى قس من ابناء القسس اليوم ، وانكم لتعلمون من غير حاجة الى ان اقول لكم ما اقول ، أنكم لو جمعتم فى تلك الأيام كل من يعرف القراءة والكتابة فى باتورين بأسرها ما احتجتم الى قبعة أحدكم لوضعهم فيها ! ذلك انهم لم يكونوا يتجاوزون جميعا حفنة اليد ، ولا عجب اذن فى أن جدى كان لا يلقاه احد الا انحنى له ، وبالغ فى الانحناء أيضا .

وطرا على بال زعيمنا القوزاقى النبيل ذات يوم ان يبعث بخطاب الى القيصرة ، وارسل كاتب الفرقة فى تلك الأيام ـ وانا لا استطيع ان اذكر هل كان اسمه هو فيسكرياك أو موتوزتشكا أو جولوبوتسك او شيئا من هذا القبيل ؟ وكل ما أذكره انه كان اسما غريبا يبدأ بداية غريبة ـ اقول ان كاتب الفرقة فى تلك الأيام ارسل فى طلب جدى ، وانباه ان الزعيم القوزاقى نفسه قد اختاره رسولا الى القيصرة ، ولم يك جدى يحب ان يضيع الوقت فى التأهب والاستعداد ، فخاط الخطاب فى قمة قبعته واخرج جواده وقبل زوجته وخنزيريه الرضيعين كما

الف ان يسمى ولديه ـ وكان ابى احدهما ـ واثار من الغبار فى ذلك اليوم ما يثيره خمسة عشر صبيا يلعبون لعبة صاخبة فى عرض الطريق، ووصل جدى الى كونوتوب فى صبيحة اليوم التالى قبل ان يصيح الديك للمرة الرابعة ، وكانت السوق وقتئذ قائمة فيها ، وقد امتلات طرقاتها بزحمة من الجماهير تصيب راسك بالدوار اذا أمعنت النظر فيها ، الا ان الوقت كان مبكرا وقد تمـدد القوم جميعا على الأرض واستغرقوا فى النوم ، واستلقى فتى عربيد أحمر الانف كالدقناش (١) بجوار بقرة .

وراحت بائعة متجولة ، تبيع صوان الزناد ورزما من « الرش » الصغير الأزرق وحزما من التبغ ، تغط فى النوم حيث تهاوت على مقربة منه ، واستلقى رجل من النور تحت عربة ، واعتلى صاحب عربة من القوم عربة مملوءة بالسمك ، وانبطح مسكوفى متلح يحمل الأحزمة والقفازات فى عرض الطريق وقد برزت ساقاه . وصفوة القول ان المكان كان حافلا بسوقه من القوم على اختلاف الانواع والاشكال ، كما هى العادة فى الأسواق جميعا ، ووقف جدى يلقى نظرة حوله ، على حين دبت الحركة فى الخيام ، فأخـــذت اليهوديات يقعقعن بقواريرهن ، وارتفع الدخان حلقـــات هنا وهناك ، وغمرت رائحة الكعك الساخن المخيم كله ، وتذكر جدى انه لم يك يحمل معه صوفانة أو تبغا ، فشرع يتجول فى السوق ، وما أن سار عشرين خطوة حتى لقى قوزاقيا من زابوروجى كالشعلة المرحة ، كما يستبين لأول وهلة من وجهه ! ونظرة واحدة الى سرواله الأحمر الوهاج ، وسترته الزرقاء الكاسية ، وحزامه المزدان بالأزهار الزاهية الألوان ، وسيفه المثبت الى جانبه ، وغليونه ذى السلسلة النحاسية الجميلة تسترسل حتى

(١) الدقناش ٠ عصفور صدره أحمر ٠

تبلغ كعبيه ـ كافية للدلالة على انه يمثل قوزاق زابوروجى أصدق تمثيل . آه ! لقد كان هؤلاء القوزاق من ابرع الراقصين ! وحسب الواحد منهم أن ينهض ويتمطى ويربت شاربه الأنيق ، ويضرب كعبيه الحديدين كل بالآخر ـ ثم يبدأ ! ويا لها من بداية ! ان ساقيه لتدوران كأنهما المغزل فى يد امراة ، وتجذب أصابعه أوتار البندورة جميعا كالاعصار ، ثم يضع ذراعيه فى خاصرتيه ويشرع فى الرقص أو يأخذ فى انشاد اغنية تثير فى قلبه ما تثير ! أجل ، لقد ولت الأيام الخالية بحلوها وخيرها ، ولم تعد ترى اليوم زابوروجيا واحدا من هذا القبيل !

والتقى الرجلان ، وكان بينهما حديث ، ولا يطول الأمر باثنين حتى يصبحا من الأصدقاء ، وراحا يتحدثان ثم يتحدثان حتى نسى جدى كل ما يتصل برحلته ، وسكرا سكرة على مألوف القوم فى حفلات الزفاف تقام قبل الصوم الكبير ، وانى لأحسب انهما لم يكفا عن الشراب الا بعد ان حل بهما التعب آخر الأمر وكلت أيديهما من تحطيم القدور والقاء النقود على الناس ، واى سوق تدوم الى ما شاء الله ؟ وهكذا اتفق الصديقان الجديدان على أن ألا يفترقان وأن يمضيا معا فى رحلتهما . وكان المساء قد أوشك ان يحل عندما ركبا جواديهما وخرجا فى العراء ، وغربت الشمس فلم يبق فى موضعهما الا خيوط حمر تتوهج هنا وهناك فى السماء ، وكان الريف يزهو بالحقول وقد اختلفت الوانها ، فبدت اشبه بالنقبات المبرقشة ترتديها فتياتنا الكحيلات العيون ايام الراحة .

وانطلق لسان القوزاقى بالحديث انطلاق من اصابته جنة مما حمل ابى وفتى آخر خفيف الروح كان قد لحق بهما على الظن بأن الرجل قد ركبه الشيطان . وتساءلا فى دهشة : من اين له بكل هذا الحديث

الذى حوى من اعاجيب الحكايات والقصص ما كاد ينشق له جنبا جدى من الضحك ؟ على ان الظلام اخذ يشتد كلما اوغلوا فى السير ، واخذ الحديث المرح يزداد هلهلة وتفككا ، والتزم راوينا الصمت آخر الأمر ، وكان يجفل اذا احس بأقل حفيف .

فقالا له : « واها لك ايها الجار ! لقد بدأت تومىء فى جد ووقار وانك لتتمنى الآن أن تكون فى دارك مخلدا الى أريكة الموقد ! » .

فقال فجاة وهو يلتفت اليهما ويحدق فيهما بنظراته : « ما بى من حاجة الى اخفاء الأمر عنكما ، أو تعلمان أننى قد بعت روحى للشيطان منذ أمد بعيد ؟ » .

« كأنما جئت بنبأ جديد لم يسمع به احد من قبل ! ومن ذا الذى لم يعامل الشيطان فى يومه ؟ وهذا هو السر فى المثل الذى يقول : « لتجرعن كأس السرور حتى الثمالة » .

فقال وهو يشد بيده على أيديهما : « آه ياصاحبى ! لقد كنت أحب أن اجرع كأس السرور ، ولكن ساعتى الأخيرة سوف تحل هذه الليلة ، ولن انسى صداقتكما ما حييت ! » .

وما ضر لو ساعد المرء اخاه اذا نزل به مثل هذا البلاء ؟ واقسم جدى لتوه انه لخير عنده أن تنزع قنزعته عن جلد رأسه من أن يسمح للشيطان بأن يتشمم بانفه الذى يشبه انف الكلب نفسا مسيحية .

ولعل أصحابنا القوزاق كانوا خليقين بأن يمتطوا صهوات جيادهم ويمضوا فى طريقهم لو لم يغش السحاب رقعة السماء جميعا كأنه نسيج اسود من غزل البيوت ، أو لم يضرب لونها الى الظلمة الحالكة كأنما غطاها جلد الماعز ، وكان ينبعث على البعد ضوء يتلألأ ،

واحست الجياد بوجود حظيرة قريبة ، فأسرعت الخطى وهى ترهف آذانها وتحملق فى الظلام ، ولاح الضوء كأنه يتطـــاير طيرانا لملاقاة القوزاق الثلاثة ، وراوا امامهم حانة تميل على جانب كأنها فلاحة تسير فى طريق عودتها الى دارها من حفلة عماد مرحة ، ولم تكن الحانات فى تلك الأيام كما هى عليه اليوم ، فقد كانت أضيق من ان تتسع لرجل طيب يدور أو يرقص رقصة الهوباك ، او يجد حقا مكانا يرقد فيه لو قد حدث أن الخمر شعشعت فى راسه واخـــذت ساقاه ترسم حلقات على أديم الأرض ، وكان فناء الحانة قد حفل بعربات الحوذية وازدحمت جنباته جميعا ، وكان الرجال يرقدون تحت السقائف وفى المذاود ومخازن الحبوب ، يغطون فى نومهم بين متربع ومستلق الا صاحب الحانة ، فقد كان يقظان يجلس أمام مصباحه الصغير الذى اتخذه من قدر ، يحز فى عصاه حزوزا يسجل بهــــا عدد ما شربه الحوذية من اثمان الجالونات وأرباعها .

وطلب جدى ثلث سطل له ولصاحبه ، ثم يمم شطر مخزن الحبوب، واستلقى الرجال الثلاثة على الأرض جنبا الى جنب ، وما أن هم جدى بالالتفاف حتى كان صاحباه قد استغرقا فى النوم استغراقا ، وأيقظ جدى القوزاقى الثالث الذى كان قد لحق بهمــا وذكره بالعهد الذى عاهدا عليه رفيقهما ، وجلس الرجل وفرك عينيه ثم أخلد للنوم مرة اخرى ، ولم يجد جدى فى الأمر حيلة ، فاضطر الى القيام بالحراسة وحده ، واراد ان يدفع الكرى عن عينيه بأى وجـه فأخذ يتفحص العربات جميعا ويلقى نظرة على الجياد ، ثم اشعل غليونهوعادأدراجه.

وجلس مرة اخرى بجوار صاحبيه ، وشمل السكون كل شىء حتى لقد بدا انه ما من ذبابة واحدة كانت تتحرك ، ثم خيل اليه أن شيئا أصهب اللون قد دفع بقرونه من تحت عربة قريبة منه ، على أن عينيه

اخذتا تطوفان ، فحمله ذلك على أن يفركهما كل لحظة بقبضة يده وان يعمل جاهدا على أن تظلا مفتوحتين مستعينا بما بقى من الفودكا، وكانت الغشاوة لا تنجاب عنهما حتى يختفى كل شيء أمام ناظريه . وظهر الشبح مرة اخرى بعد ذلك بقليل من تحت العربة ، وفتح جدى عينيه بقدر ما وسعه ، ولكن النعاس الملعون اغطش كل شيء ، ودب الخدر فى يديه ، ومال راسه على جانب ، واستغرق فى نوم هادىء كأنه أصبح فى عداد الأموات ، ونام جدى ساعات وساعات ، ولم ينتصب واقفا على قدميه الا عندما اخـــذت الشمس تلسع راسه الحليق ، وتمطى مرات ومرات وحك ظهره ، ثم لاحظ أنه لم يبق فى الفناء ذلك العدد الكبير من العربات الذى كان فيه بالأمس ، ذلك ان الحوذية كانوا قد رحلوا بلا ريب قبل طلوع الفجر ، وبحث عن صـــاحبيه ، فتبين له ان القـــوزاقى لا يزال يغط فى نومه ، أما الزابوروجاوى فكان قد رحل ، ولم يستطع أحد أن ينبئه بشيء عن ذلك الرجل ، ولم يجد فى مكانه المعهود اثرا ينم عليه الا معطفه .

وتملك جدى الرعب واختلط عليه الامر،ومضى يبحث عن الجوادين فلم يجد اثرا لجواده أو جـواد الزابوروجاوى ! ترى ما السر فى ذلك ؟ وهب ان الشيطان قد اخذ الزابوروجاوى ، فمن يكون ذلك الذى اخذ الجوادين ؟ وفكر جدى فى الأمر مليا وخرج من ذلك بأن الشيطان قد اقبل على الأرجح سيرا على قدميه ، فلما أنس بعـد الشقة بينه وبين الجحيم استولى على جواده هو ، واشتد اضطراب جدى لانه لم يف بما عاهد عليه القوزاقى .

وقال يحدث نفسه : « ليس فى الأمر حيلة ، ولأمضين سيرا على على قدمى ، وارجو ان يصادفنى تاجر خيل فى طريق عودته من السوق فتتهيأ لى الفرصة لشراء جواد » . ولكنه ما ان شرع يبحث عن قبعته

حتى وجد أنها قد اختفت ايضا ، واخذ يفرك يديه كل بالاخرى ، اذ تذكر انه كان فى اليوم السابق قد بادل الزابوروجاوى قبعته الى حين ، وهيهات ان يكون قد سرق قبعته الا الشيطان نفسه ! يا له من رسول امين ! ويا للمهمة الجليلة التى اضطلع بها لتسليم ما جمله فيمـا أحسب يعطس فى الجحيم مرة فى اثر مرة ، الا ان السباب لا يفيد كثيرا .

وعجز جدى عن الاهتداء الى اية خطة على الرغم من انه اخذ يحك راسه كثيرا ، وسقط فى يده وتحير : ماذا يفعل ؟ورجع الى القوم يلتمس عندهم الراى ، وجمع من كان يلوذ بالحانة فى ذلك الوقت من أهل الصلاح ، اجل جمع الحوذية وعابرى الطريق من البسطاء ، وحدثهم بما كان من امره وما نزل به من كرب ، وفكر الحوذية طويلا وأسندوا ذقونهم على أسواطهم ثم هزوا رءوسهم وقالوا انهم لم يسمعوا قط فى العالم المسيحى بعجيبة كهذه يختلس فيها الشيطان خطاب زعيم من زعماء القوزاق ، وزاد آخرون بانه اذا سرق الشـيطان او اى شخص من المسكوف شيئا جاز لك أن تسترده باطـلاق صفارة من فمك ، ولم يشذ عن الجماعة الا صاحب الحانة ، فقد جلس ملتزما الصمت فى ركن الغرفة ، فقصد جدى اليه ، ذلك ان الرجل اذا امسك عن الكلام كان حكيما ، على أن صاحب الحانة كان يتحاشى الكلام ، ولو لم يخرج جدى من جيبه خمس قطع ذهبية لظل الرجل على الأرجح واقفا امامه لا ينال منه منالا .

وقال صاحب الحانة وهو ينتحى به جانبا : « لأرشدنك الى طريقة تجد بها الخطاب » ، وانزاح حمل ثقيـل عن صدر جدى ، ومضى صاحب الحانة يقول : « فانى ألمح فى عينيك انك قوزاقى أصيل ولست غرا ابله ، فالق الى بسمعك ! ان ثمة منعطفا فى الغابة بالقرب

من هذه الحانة ، وما عليك الا ان تتأهب للرحيل اذا اخذ الليل يرخى سدوده ، ولتجدن فى الغابة قوما من النور يخرجون من أوكارهم لطرق الحديد فى الليالى التى لا يخرج فيها الى العراء الا الساحرات يسعين على محركات النار ، وخير لك الا تسأل عن حرفتهم الحقيقية ، ولتسمعن طرقا كثيرا فى الغابة ، فلا تمض الى حيث تسمع الطرق ، ولتجدن ايضا دربا صغيرا يواجهك قرب شجرة محروقة فاسلك هذا الدرب ، وواصل السير ، وقد تخدش الأشواك قدميك ، وتسد عليك شجيرات البندق الكثيفة مسالك الطريق ، فلا تكف عن السير وامض فى سبيلك حتى تبلغ جدول ماء صغيرا ، تجد هناك بغيتك ، ولكن لا تنس أن تضع فى جيوبك ما صنعت من اجله الجيوب ، فانك تعلم ان الشياطين والأناسى على السواء يطيب لهم ذلك » .

وما ان فرغ صاحب الحانة من قوله هذا حتى مضى الى الركن الذى كان يأوى اليه ، وابى ان يزيد .

وكان جدى رجلا جرىء القلب لا يهاب شيئا ، اذا صادف ذئبا لا يتردد فى ان يمسكه من ذيله ، ولو اعمل قبضة يده بين القوزاق لسقطوا على الأرض سقوط الكمثرى من الشجر فى اعداد غفيرة . على انه احس بالخوف يدب فى قلبه عندما دخل الغابة فى تلك الليلة الحالكة التى غابت نجومها عن الأنظار فلم يبد منها نجم واحد ، لقد كان الظلام سائدا والهدوء شاملا كأنك فى قبو من أقبية الخمر ، وانبعثت ريح باردة من اجواز الفضاء تعصف بقمم الأشجار ، فأخذت تتمايل على غير هدى كأنها رءوس القوزاق عبوا من الخمر حتى ثملوا ، وراحت اوراقها تهمس بأغنية نشوى تهتز اعطافها بفصل الراح ، ثم هب اعصار بارد جعل جدى يفكر فى جلد ماعز ، ولم يلبث أن سمع صوتا كأنه ينبعث من مائة مطرقة اخذت تدق فى الغابة

محدثة من الدوى والضجيج ما يصيب الأذن بالطنين .

وغمر الغابة لحظة ضوء لا تعهده الا فى بروق الصيف ، ولمح جدى دربا صغيرا يلتف بين الأشجار القصيرة العود فى هذا المكان ، وهنا وجد الشجرة المحروقة ، وهنا وجد شجيرات الحسك ! أجل ، لقد وجد كل شيء على الحال التى وصفت له ، اذن فقد صدق صاحب الحانة ولم يكذبه ! على أن نفسه لم تطلب لما وجد وهو يشق طريقه شقا خلال الشجيرات الشائكة ، ذلك انه لم يعرف فيما مر من حياته قط أن تلك الغصون والأشواك الملعونة تصيب المرء بمثل هذه الخدوش الأليمة . وكان يحس فى كل خطوة يخطوها بعذاب يوشك ان يبعثه على البكاء . وسار رويدا رويدا حتى خرج الى ممر ، ورأى على قدر ما امتد بصره أن الأشجار أخذت تتفرق ويزداد ما بينها اتساعا ، وكلما مضى فى سيره صادف أشجارا تزيد فى ضخامتها من كل ما رآه فيما وراء بولندا ، ثم وقع نظره فجأة على جدول صغير يتألق بين الأشجار ، أسود كالصلب المقسى ، ووقف جدى وقتا طويلا على ضفة الجدول يتلفت حوله ، ولاح من الضفة الأخرى وميض يتلألأ لحظة ثم يوشك ان ينطفىء ، ثم يعود فينعكس على صفحة الجدول وينتفض انتفاض البولندى فى أيدى القوازق ، ثم ها هو ذا الجسر الصغير قد تكشف ! .

« انى لأحسب ان هذا الجسر لا تستطيع عبوره الا عربة الشيطان نفسه ! » .

على ان جدى تقدم غير هياب ولا وجل ، وبلغ الضفة الأخرى للجدول قبل أن تتاح الفرصة لأى مخلوق آخر ان يخرج صندوق سعوطه المصنوع من قرن الحيوان ويصيب منه شيئا . ولم يلبث أن رأى فى هذه اللحظة فحسب قوما يجلسون حول نار مشتعلة ، أجل

راى ويا لهول ما راى ! راى سحنا بديعة كسحن الخنازير لو قد رآها فى اى وقت آخر لبذل ـ علم الله ـ كل مرتخص وغال لتحاشيها ، ولكنه لم يجد بدا من التودد الى هؤلاء القوم ، وهكذا حنى جدى هامته ، وبالغ فى ذلك مبالغة وقال هاتفا : « كان الله فى عونكم ايها القوم الصالحون ! » .

ولم يهتز راس منهم بايماءة واحدة ، بل جلسوا سكونا كأن على رءوسهم الطير ، وظلوا يلقون بشىء فى النار ، ورأى جدى مكانا خاليا فجلس دون أن يحفل بالأمر كثيرا ، ولم تنطق وجوه الخنازير البديعة بحرف ، ولم ينبس جدى ايضا ببنت شفة ، واخلد الجمع الى الصمت طويلا ، وبدا السأم يدرك جدى ، فراح يضرب بيده فى جيبه واخرج غليونه وتلفت حوله ، ولكن احدا منهم لم يرمقه بنظرة .

« افلا تتفضلون على ايها السادة الموقرون ؟ فانى والحق يقال ، اذا سمحتم لى ـ وكان جدى قد طوف بالعالم كثيرا وعرف كيف يصوغ الخطاب ولم يكن يعوزه اللفظ وان مثل فى حضرة القيصر ـ اجل اذا سمحتم لى ، دون ان ابخس نفسى حقها او اخرج عن حدود الأدب معكم ، لأود أن أقول : ان عندى غليونا لا اجد ما أشعله به » .

وامسك القوم عن الكلام هذه المرة ايضا ، ولم يجب احدهم بحرف ، الا ان واحدا من ذوى السحن الخنزيرية قذف جمرة حامية فى وجه جدى مباشرة لو لم يحد عنها قليلا لاودت بعين من عينيه الى ما شاء الله ، وتبين له آخر الأمر أن الوقت يمر هباء ، فصح عزمه على ان يقص عليهم قصته ، سواء استمع له هؤلاء القوم الأنجاس او لم يستمعوا . وارهف القوم آذانهم ومدوا مخالبهم ، وادرك جدى ما يريدون ، فاخرج كل ما كان يحمل من مال والقى

به اليهم كانهم الكلاب ، وما أن القى بما معه حتى اضطرب كل شيء أمامه ، فاهتزت الأرض ، ووجد نفسه فجأة فيما يشبه الجحيم ، ولم يستطع جدى قط أن يطل هذا الجزء من قصته .

وتأوه جدى اذ القى بنظرة فاحصة حوله ثم هتف . « رحماك ربى ! » تالله ما كان ابشع من تلك الوحوش ! فقد كان كل وجه أقبح من اخيه ، وكانت الساحرات كثيرات كثرة شقف الجليد تتساقط أحيانا فى عيد الميلاد ، وقد تأنقن جميعا فى لباسهن وصبغن انفسهم بالطلاء كما تفعل الحسـان اذا أممن سوقا من الأسواق ، ورحن يرقصن ضربا من رقصة الهوباك على طريقة الشياطين كأنما لعبت الخمر برءوسهن . اما الغبار الذى اثرنه فحدث عنه ولا حرج ! .

واما القفزات التى اخذت هؤلاء الساحرات من بنات الشيطان يضربن بها فى أجواز الفضاء فقد كانت خليقة بأن ينتفض لها قلب أى مسيحى ! وفزع جدى الا انه اغرق فى الضحك اذ رأى الشياطين بوجوههم الشبيهة بوجوه الكلاب وسيقانهم التى تحاكى المغازل ، يهزون ذيولهم ويلفون حول الساحرات ويدورون كما يفعل فتياننا بالفتيات الجميلات . واخذ الموسيقيون يضربون خدودهم بقبضات أيديهم كأنها الطبول ويصفرون بأنوفهم كأنها الأبواق ، وما أن رأوا جدى حتى تكأكئوا عليه ، وامتدت اعنـاق وجوه الخنازير ووجوه الكلاب ووجوه الماعز ووجوه الحبارى ووجوه الخيول ، أجل امتدت أعناقها جميعا محاولة ان تقبله ، ولم يسع جدى الا أن يبصق ، وقد نال منه الاشمئزاز مناله ، ثم امسكوا به آخر الأمر واجلسوه على مائدة طويلة لعلها تبلغ فى الطول مبلغ الطريق من كونوتوب الى باتورين .

وقال جدى يحدث نفسه ، اذ رأى على المائدة لحم الخنزير والمقانق والبصل المفروم بالكرنب وغير ذلك من الأطايب الكثيرة : « لا بأس

بهذا على الاطلاق ! واني لاحسب ان هؤلاء الطغام من اهل الجحيم لا يصومون الفرض ! .

ولا اخفى عليكم ان جدى لم يكن ليدع الفرصة تفوته اذا تهيأت له اللقمة الطيبة ، اجل لقد كان هذا الجد العزيز يستطيب الطعـــام ويتلذذ به ، فلم يضيع وقتا فى الكلام ، بل جذب اليه طاسا من شرائح دهن الخنزير وفخذ خنزير مدخن ، وتناول شوكة لا تقل كثيرا عن تلك التى يذرى بها الفلاح التبن ، وانتقى أكبر قطعة ووضعها على كسرة خبز ، ولكن يا للعجب ! لقد اندست هذه القطعة فى فم آخر بجوار اذنه تماما .

وانبعث بلا ريب صوت فكى فتى آخر يمضغها وتلوكها اسنانه مقعقعة قعقعة تصل الى اذن كل من كان يجلس الى المائدة ، ولم يبال جدى ما حدث ، بل تناول قطعة اخرى وبدا انه قد امسك بها بين شفتيه ، ولكنه لم يفلح هذه المرة ايضا فى ان يدفع بها الى حلقه ، وحاول مرة ثالثة فاخفق ايضا ، واستشاط جدى غضبا ، ونسى ما كان فيه من رعب ، كما نسى القوم الذين وقع بين براثنهم ، وهرع الى الساحرات « اتحاولن ان تهزأن بى يا سليلات هيرودس ؟ تالله ان لم تردن الى قبعتى القوزاقية فى التو والساعة انى برىء من كاثوليكيتى ان لم الو خطومكن الخنزيرية حتى تبلغ قفاكن ! .

وما ان القى بهذه الكلمة الاخيرة حتى كشرت الوحوش عن انيابها ، واطلقت ضحكة مدوية اشاعت الرعدة فى اوصال جدى .

وصاحت ساحرة منهن خيل الى جدى انها زعيمتهن ، فقد كانت اكثرهن جمالا او تكاد . « لا باس ! ولن نرد اليك قبعتك الا اذا فزت بها منا فى ثلاثة أدوار من لعبة « العبيط » ! .

فكيف يكون موقفه ؟ أيصح لقوزاقى أن يقعد ويلعب لعبة «العبيط» مع بعض النساء ؟ وظل جدى يرفض اللعب ثم يرفض ولكنه جلس آخر الأمر ، وجاءت الساحرات بأوراق اللعب ، فكانت حزمة يغشاها الشحم على غرار تلك التى تستعملها بنات القسس فحسب ليكشفن عما يضمره لهن الغيب من أزواج .

وصاحت به الساحرة مرة اخرى فى صوت كالنباح قائلة : « استمع الى ! لتكونن القبعة من نصيبك اذا فزت فى دور واحدا ، أما اذا خرجت من الأدوار الثلاثة وكان من نصيبك « العبيط » فلن ترى قبعتك ومن يدرى لعلك لا ترى العالم مرة اخرى ؟ » .

« هلمى ، وزعى الورق أيتها الساحرة الحيزبون ! وليكن مايكون! » .

ووزع الورق ، وتناول جدى نصيبه منه ، فألفاه كله تافها لا غناء فيه ، فأشاح عنه اشمزازا ، وكأنما أراد القدر أن يسخر منه فلم يواته بورقة واحدة رابحة ، اما بقية الورق الذى وقع فى يده فكان اعلى ورقة فيه هى « العشرة » ولم يكن معه ورقة واحدة من ورقات « الاثنين » وظلت الساحرة تدفع اليه بالورقات خمسا خمسا ، وشاء القدر أن يكون جدى فى هذا الدور هو « العبيط » وما أن خرج من الدور بهذا النصيب حتى ارتفعت أصوات الوحوش من كل جانب تصهل وتنبح وتقبع وتنادى هاتفة « عبيط ! عبيط ! عبيط ! » .

فصاح جدى وقد سد اذنيه بأصابعه : « فلتصيحوا حتى تنشق حناجركم ايها الشياطين ! » .

وقال بينه وبين نفسه : « ان الساحرة لم تكن أمينة فى اللعب ، ولأوزعن الورق بنفسى » ، ووزع الورق ، وكشف عن الورقة الرابعة ثم ألقى نظرة على نصيبه من الورق ، فوجده مواتيا يشتمل على بعض

أوراق رابحة ، وبدت الأمور فى البداية على خير ما يمكن أن تكون حتى وضعت الساحرة على الأرض خمس ورقات بينها بعض الملوك .

ولم يك فى يد جدى الا أوراق رابحة فضارب بها فى سرعة البرق كل الملوك .

« ها ! ليس هذا من شيمة القوزاق ! ما الذى تضاربها به أيها الجار ؟ » .

« بماذا ؟ بالأوراق الرابحة ! » .

« قد تكون فى اعتقادك أوراقا رابحة ، أما فى اعتقادنا فلا ! » .

يا للعجب ! لقد كان نصيبه من الورق من نوع آخر فعلا ! ترى أى حيلة من حيل الشياطين هذه ؟ وخرج من الدور « العبيط » للمرة الثانية ، وراح الشياطين يشقون حناجرهم مرة أخرى صائحين : « عبيط ! عبيط ! » ومضوا فى ذلك حتى اهتزت المائدة وراح الورق يتراقص عليها .

واستشاط جدى غضبا ، ووزع الورق للمرة الأخيرة ، ووافاه الحظ هذه المرة أيضا بورق موات ، وعادت الساحرة فوضعت على الأرض خمس ورقات فضاربها جدى ، وأخذ من الورق عددا من الأوراق التى تربح .

وصاح : « ورقة رابحة ! » والقى ورقة على المائدة فى قوة جعلتها تنثنى وتتغضن .

وغطتها الســـاحرة بثمانى ورقات من نوع آخر دون أن تنبس ببنت شفة .

« بماذا تضربين ورقتى الرابحة أيتها الشيطانة الحيزبون ؟ » .

ورفعت الساحرة ورقتها فاذا تحتها ست ورقات من نوع عادى .

وقال جدى : « يا للحيل الشيطانية ! » ، وضاق صدره ، فضرب

المائدة بقبضة يده باقصى ما يستطيع من قوة ، ومن حسن التوفيق أن الورق الذى مع الساحرة كان تافها لا غناء فيه ، وشاء الحظ ان يكون مع جدى فى هذه المرة ورقات من ذوات « الاثنين » ، وشرع يسحب الورق من الرصة ، فالقاه عديم الجدوى . اجل لقد بلغ من تفاهة الورق الذى كان من نصيب جدى أن يئس الرجل فسقطت يده الى جنبيه ، ولم يبق فى الرصة ورقة واحدة ، فاضطر ان يلعب باية ورقة فى يده ، وكانت هى ورقة الست ! ولم تجد الساحرة بدا من اخذها ، ذلك انه لم يبق معها ورقة يمكن أن تضاربه بها « وى ، وى ! ما هذا ؟ لا شك ان فى الأمر شيئا ! » ثم رسم جدى اشارة الصليب خفية فوق الورق من تحت المائدة ، ولكن اى شىء وجد ! لقد وجد فى يده الآس والملك والغلام من الاوراق التى تربح ، ولكن الورقة التى القى بها لتوه هى ورقة الست بل ورقة الملكة ! » .

« يا لغباوتى ! ملك الأوراق الرابحة ! اذن فقد اخذته انت ؟ يا سليلة القطط ! اتحبين ان تأخذى الآس ايضا ؟ الآس ! والغلام ! » .

وساد الجميع هرج ومرج ، وتشنجت الساحرة ، وطارت القبعة فجاة ، واندفعت بقوة وارتطمت هى ووجه جدى .

وصاح جدى مستجمعا اطراف شـــجاعته ، ووضع القبعة على راسه « لا يكفينى هذا ! وتالله ان لم ار جوادى الأصيل يقف امامى فى التو واللحظة لارسمن عليكم جميعا علامة الصليب المقدس ، أو تصعقنى الصاعقة فى هذا المكان الدنس ! » ، ورفع يده لينجز وعده واذا بعظام جواده تقعقع امامه ! .

« هاك جوادك » .

وانفجر الرجل المسكين باكيا كالطفل وهو ينظر الى هذه العظام ، وانفطر قلبه اسى على رفيقه العزيز ثم قال : « اعطونى جوادا من اى

نوع كان اخرج به من وكركم ! » ، وفرقع شيطان بسوط ، فبرز من تحته جواد كالشهاب ، وحلق به جدى فى الهواء كأنه الطير .

وتملكه الفزع عندما أخذ الجواد يطوى به الأخاديد والمستنقعات طيا غير عابىء ، بصياح او بلجام ، وكانت الأماكن والبقاع التى اجتازها مخوفة مفزعة بعثت الرعـدة فى أوصـــاله وهو يذكرها فى سياق قصته ، والقى الرجل بنظره الى ما تحته مرة فازداد خوفا ورعبا ، فقد ابصر هوة ، بل هاوية مخيفة ! الا ان الجواد الشيطانى لم يلق اليها بالا ، بل قفز من فوقها لساعته ، وحاول جدى أن يوقف الجواد ولكنه لم يستطع ، وطار الجواد فوق اصول الأشجار والاكام ، ثم انكفأ على وجهه فى هوة من الأرض ، وضرب اسفل الهوة بقوة حتى بدا أنه قد أسلم الروح ، على ان جدى عجز عن أن يتذكر شيئا مما وقع له ، وما أن أفاق قليلا حتى تلفت حوله ، فوجد النهار يعلوه ، ثم لمح بعض الأماكن المألوفة ، فتبين له انه ملقى على سقف كوخه .

ورسم جدى اشارة الصليب وهو يهبط من السقف ، الا ما اغرب الحيل التى يأتى بها الشيطان ! لعنة الله عليه ! وما اعجب ما يصادف الانسان من امور ! ونظر الى يديه فاذا بهما مخضبتان بالدم ، ثم نظر فى برميل من الماء فاذا بوجهه هو هو لم يتغير ، واغتسل جيدا خشية ان يفزع الأطفــال منه ثم ولج الكوخ فى هدوء ، ويا للمنظر الغريب الذى وقع عليه بصره ! ذلك انه راى الأطفــال يتراجعون لائذين فى رعب ، ثم هتفوا : « « انظر ! انظر ان امنا تقفز كالمجنونة ! » ،والحق ان زوجته كانت تغط فى نومها وهى جالسة امام مشط الصوف وفى يدها مغزلها ، وراحت فى نومهــا تقفز صاعدة هابطة على الأريكة فتناول جدى يدها برفق وأيقظها قائلا : « طاب صباحك يا زوجتى ، هل انت بخير ؟ » ، وحملقت فيه المراة طويلا ، ثم عرفته آخر الأمر

وقالت له : انها رات فى نومها ان الموقد كان يمتطى صهوة جواد يدور به حول الكوخ ، ويخرج منه بمجرفة القدور والبراميل وغير ذلك مما لا يعلمه الا الله .

فقال جدى : « لا بأس عليك ، فقد رايت هذه الرؤيا فى منامك ، اما انا فرايتها فى يقظتى ، ولا ريب ان الأمر يقتضبنى ان اسعى الى مباركة كوخنا ، ولكننى لا أستطيع ان اطيل المكوث هنا بعد » .

واستراح جدى قليلا بعد ان فرغ من قوله هذا ، ثم التمس جوادا من بعض الناس ، ومضى فى رحلته يواصل الليل بالنهار حتى بلغ غايته، وسلم القيصرة نفسها الخطاب ، وهنالك شاهد جدى أمورا غاية فى العجب حتى انه أصبح بعد ذلك بوقت طويل لا يمل من قص قصتها علينا ، وراح يروى لنا كيف جاءوا به الى القصر ، وكيف وجده مرتفعا ارتفاعا عجيبا لا تبلغ اليه وان وضعت عشرة أكواخ بعضها فوق بعض ، وكيف نظر فى غرفة فلم يجد القيصرة فيها ، ثم مد بصره فى غرفة ثانية فثالثة بل فى رابعة فلم يفز بطائل ، ثم وجدها فى الغرفة الخامسة تجلس وعلى راسها تاجها الذهبى ، وترتدى ثوبا رماديا جديدا وحذاء احمر ، وتأكل لقيمات القاضى الذهبية ، وكيف انها أصدرت الأمر بملء قبعة الى الحافة بالأوراق المالية الزرق من ذات خمسة الروبلات ، وكيف وكيف .. ولكننى لا استطيع ان اذكر ذلك كله .

أما عن معاشرة جدى للعفاريت فقد نسى الرجل ذلك الأمر وانقطع تفكيره فيه انقطاعا تاما . واذا اتفق ان ذكره أحد بما وقع له لزم الصمت كأن الأمر لا يعنيه ، والحق أنه كان من اشق الأمور أن يقنعه مقنع بأن يروى لنا القصة من أولها الى آخرها . وكان يحدث لزوجته فى الموعد المعهود من كل عام حادث غريب ، كأنما كان ذلك عقابا له

على تقاعده عن المبادرة الى التماس البركة لـكوخه بعد ان وقع له ما وقع ، ذلك ان زوجته كانت تقفز صاعدة هابطة ولا تستطيع لذلك دفعا ولا ردا ، وتنطلق ساقاها على هواهما مهما جاهدت كأنما كان يدفعها الى الرقص دافع لا حيلة لها فيه ! .

تم الجـــزء الأول ويليه
الجزء الثانى ان شاء الله

اشترك فى روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة :	**السيد /هاشم على نحاس** جدة ــ ص . ب رقم ٤٩٣ المملكة العربية السعودية
البرازيل :	M. Miguel Maccul Cury, B. 25 de Maroc, 990 Caixa Postal 7406. Sac Paulo, BRASIL.
انجلترا :	THE ARABIC PUBLICATIONS DISTRIBUTION BUREAU 7, Bishopsthrope Road London S.E. 26 ENGLAND.

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

دار الهلال

هذه الرواية

كان جوجول كاتبا روسيا كبيرا حلو الفكاهة ، تشرق كتاباته بالسخرية المريرة ،وله قصص قصيرة وروايات ومسرحيات قيمة ، وهو يعد صاحب الفضل الاول فى التقاليد العظيمة فى الرواية التى رفعت الادب الروسى الى مرتبة الآداب العالمية .

نشا الكاتب فى اوكرانيا موطنه الحبيب ، ووصف حياة أهل الريف فيها ومناظرها الطبيعية الساحرة وصفا رائعا كان السبب فى ذيوع صيته فى جميع انحاء روسيا ، وصور تصويرا ساخرا فكاهيا القصص الشعبية ومزج فى هذا الوصف بين الواقع وتهاويل الخيال ، وفكاهته فى هذه القصص فكاهة مطمئنة طبيعية لا افتعال فيها ، وقد اصطنع فيها حياة البسطاء من الناس بمعتقداتهم فى الارواح والعفاريت واسواقهم ونوادرهم ولهوهم وعبثهم ، وهى تشبه فى ذلك كثيرا ريف مصر واهله .

وقد كتب هذا الجزء سنة ١٨٣١ وهو يضم مقدمة ظريفة بلسان بانكو مربى النحل، وقصة سوق سورو تشنستى ، وهى البلدة التى شهدت مولده ، وقصة ليلة عيد القديس يوحنا ، وقصة العذراء الغريقة ، وقصة الخطاب الضائع .

روايات الهلال

أمسيات قرب قرية ديكانكا

الجزء الثانى

نيقولاى جوجول

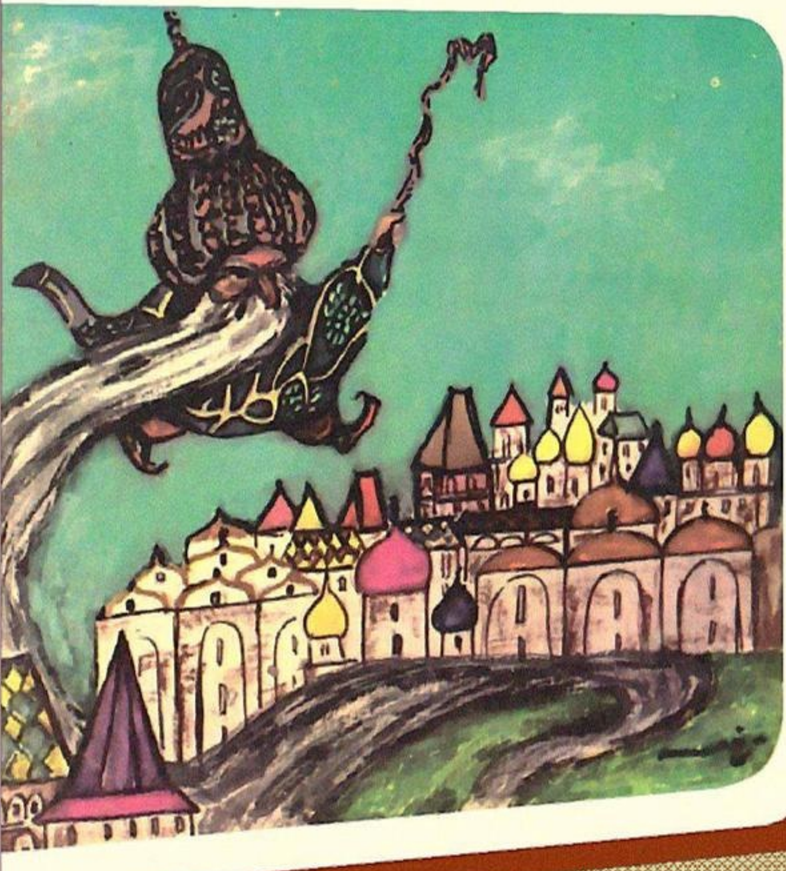

روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٦٥ - مايو ١٩٧٩ - جمادى الثانى ١٣٩٩
No. 365 — May 1979

رئيسة مجلس الإدارة : **أمينة السعيد**

نائب رئيس مجلس الإدارة : **صبرى أبو المجد**

رئيس التحرير : **الدكتور حسين مؤنس**

سكرتير التحرير : **موسى عبيد**

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى - ١٢ عددا - فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى . وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

اسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية للاعداد العادية من «روايات الهلال» الشهرية اعتبارا من شهر يناير عام ١٩٧٩:

بسعر ٢٠ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا ٣٠٠ ق . س « ثلاثمائة قرشا سوريا »
لبنان ٢٥٠ ق.ل «مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الاردن ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا اردنيا »
الكويت ٣٥٠ فلسا «ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلسا عراقيا »
السعودية ٤٫٥ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »
الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب القاهرة .
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغلاف بريشة الفنانة
تماضر محمـد تركى

أمسيات قرب قرية ديكانكا

الجزء الثانى

بقلم

نيقولاى جوجول

ترجمة

إبراهيم زكى خورشيد

دار الهلال

الجـزء الثانى

مقدمة

هاكم الجزء الثانى ، وخير لى ان أقول الجزء الأخير ! ولم تكن بى رغبة فى ان أخرجه الى الناس ، اجل لم اكن اريد ان اخرجه قط ، ذلك انه لايجوز للمرء ان يطيل حتى يثقـل ، ولا اخفى عليكم ان اهل القرية بدءوا يسخرون منى قائلين : « لقد اختـل عقل الرجل العجوز ، فراح يتسلى بلعب الأطفال فى شيخوخته!» ، والحق انه قد آن لى ان استريح ، ولعلكم ايها القراء الأعزاء تظنون اننى انما أدعى الكبر، فكيف بى ولم يبق فى فمى سن واحـدة ! وانا الآن اذا وقعت على شيء لين أحاول ان أمضـغه ، ولـكننى لا أستطيع أمرا اذا أصبت شيئا يابسا .

وهأنذا ادفع اليكم بكتاب آخر ! وكل ما اريده ، الا تتناولونى باللوم ، فليس اللوم من شيمة الـكرام عند الفراق ، فما بالك اذا جهلوا متى يكون اللقاء ، وما يعلمه الا الله ؟ وستجدون فى هـذا الكتاب قصصا رواها قوم لا تعرفهونهم على الاطلاق ، اللهم الا اذا كنتم تعرفون منهم فوماجريجوريفتش الذى لم يلم بهذه الناحية منذ وقت طويل ، اجل ذلك السيد الذى كان يرتدى سترة فى لون البازلاء ، ويتحدث بتلك اللغة الفصيحة التى كانت تند عن افهام كثير من ذوى العقول الراجحة بمن فيهم اهل موسكو انفسهم . انه لم يزرنا منذ تشاجرنا جميعا ، وانى لأحسب اننى لم أحدثكم بأمر هذا الشجار ام ترونني حدثتكم به ، لقد كان مهزلة ولاشك .

فقدحل بى فى يوم منأيام الصيف الماضيضيوف جاءوا لزيارتى، وكان ذلك على ما اظن فى عيد القديس شفيعى . ولا اخفيكم أيها القراء الأعزاء أن جيرانى ، متعهم الله بالصحة والعافية ، لاينسون الرجل العجوز . لقـد انقضى خمسون عاما منـذ بدأت احتفل بعيد القديس شفيعى ، أما عمرى ، فلا أنا ولا زوجتى العجوز نستطيع

أن نحدده ، ولاشـك انه نحو السـبعين . أما الذى يعلم تاريخ مولدى فهو الأب خارلمبى ، القسيس الذى كان فى ديكانكا ، على أنه يؤسفنى ان اقول انه توفى منـذ خمسين عاما . اذن فقد حل بى ضيوف جاءوا لزيارتى وهم زخاركيريلوفتش شوخوبوبنكو، وستيفان ايفانوفتش كوروشكا ، وتاراس ايفانوفتش سماتشننكى ، ومساعد القاضى خارلمبى كيريلوفتش خلوسطا ، وكان بينهم زائر آخر نسيت اسمه .. اوسيب .. اوسيب .. تالله ان كل من فى ميرجورود يعرفه ! فانه ما ان يبدأ فى الكلام حتى يفرقع باصابعه ويضع ذراعيه فى خاصرتيه ، ولكن دعونا من هذا ! ولأذكرن اسمه حالا . وجاء ايضا ذلك السـيد البلتاوى الذى سـبق ان عرفتم امره . أما فوماجريجوريفتش فلم ادخله فى عداد الضيوف لأنه واحـد منا . وراح كل من الحاضرين يتحدث ، ولا اخفيكم اننا لا نتحدث ابدا فى توافه الأمور ، ذلك اننى دائما أحب الحديث اللائق الظريـف حتى اجمع بين المتعة والمنفعة كما يقولون ، وكان حديثنا يدور حول تخليل التفاح ، وقالت زوجتى : ان التفاح يجب ان يغسل اولا غسلا جيدا ثم ينقع فى الجعة الخفيفة ، ثم ..

وهب السـيد البلتاوى يقاطعها وهو يضرب يده فى جيب سترته التى فى لون البازلاء ويذرع الغرفة فى رصانة ووقار : « لا غناء فى ذلك كله على الاطـلاق ! بل يجب أولا ان تذرى حشيشـة الدود على التفاح ثم .. » ولكننى أسألكم ايها القراء الأعزاء : «هل سمعتم بتفاح يذر بحشيشة الدود؟ ان الناس قد يستعملون أوراق الزبيب الأسود وعشب الخنزير والحندقوق ، اما ان يضاف على التفاح حشيشة الدود فشىء لم اسمع به من قبل ، وانى لأحسب انه ما من احد يعرف فى هذه الشئون اكثر مما تعرف زوجتى ، ولكن هذا هو ما حدث ! » وانتحيت بالرجل جانبا فى هدوء كما يفعل الجار الطيب وقلت له : « على رسلك يامقارنازاروفتش ، ولكن لاتجعل الناس يضحكون منك ! فانك رجل ذو شأن ، وقد تناولت عشاءك على المائدة التى تناول عليها المحافظ عشاءه على حـد قولك انت نفسك ، ولئن قلت شيئا من هذا القبيـل جعلت القوم جميعـا يسخرون منك ! » فكيف كان جوابه فيما تظنون ؟ انه لم يجر

جوابا ! بل بصق على الارض وتناول قبعته ثم مضى . لقد كان خليقا به ان يلقى بكلمة وداع الى انسان ،او يومىء الينا براسه ايماءة واحدة ، ولـــكن كل ما سمعناه هو صوت عربته بجرســـها المثبت فوقها ، ثم وقفت عند الباب فركبها وسارت به ، ثم .. مع السلامة ايضا !

ذلك اننا لانريد ضيوفا على شاكلته ،ولا اجد مفرا ايها القراء الاعزاء من ان اقول لكم انه ليس فى هـــذا العالم اسوأ من اولئك الناس الذين ينتمون الى الطبقة العليا . ان الرجل يشمخ بأنفه على كل انسان لأن عمه كان مأمورا فى يوم من الأيام ، كأنما لا يوجد فى العالم طبقة أعلى من طبقة المأمور ! ولاشك ان من الناس من هم اعظم من المأمير . كلا ! اننى لا احب أولئك الناس الذين ينتمون الى الطبقة العليا ، ولـكن مثلا فوما جريجوريفتش ، فهـــو ليس من هذه الطبقة ،ولكن انظروا اليه ،ان وجهه ينم عن العزة والكرامة فى هدوء ووقار ، ولا يســـعك الا ان تحبه وتحترمه ، حتى حـين يصيب قدرا من السعوط المألوف . ويعجز القلم عن وصف مايبلغه صوته من اثر فى النفس عندما ينشد مع فرقة المرنمين فى الكنيسة ، ان قلوبكم لخليقة بأن تذوب ذوبانا عند سماعكم هـذا الصوت ! على حين ان الرجل الآخر ، ولـــكن دعونا منه ، فانه يظن الا غنى لنا عن قصصه ، ولا عليكم فهاكم كتابا من القصص لاشأن له به .

وانى لأذكر اننى كنت قد وعدتكم بأن اضمن هذا الكتاب قصتى انا أيضا ، وقد صـــح عزمى على أن ادخلهـــا فيه فعلا ، الا اننى وجدت انها سوف تقتضينى ثلاثة كتب من هذا الحجم على الأقل، فاستقر رايى على ان اطبعها على حدة ، وقـد فـكرت فى الأمر مليا ؛ فانى قد خبرتكم ، ولو اننى فعلت هذا لسخرتم من الرجل العجوز ، كلا ! لن اطبعها ! ووداعا ! وليمضين وقت طويل قبل ان نلتقى مرة اخرى اذا قـدر لنا ان نلتقى ، ولكنكم لن تعبئـــوا بهذا ، بل لن تعبئوا بوجودى ابدا ، ولسوف تتوالى الأعوام عاما فى اثر عام ولن يذكر احدكـم مربى النحل العجوز أو يحزن عليه !

بانكو الاحمر الشعر

ليلة عيد الميلاد

ليلة عيد الميلاد

انقضى آخر يوم قبل عيد الميلاد ، وأسدل الظلام ستاره ، وحلت ليلة من ليالى الشتاء صافية الأديم ، وبصبصت النجوم ، وطلع القمر مهيبا جليلا يظل بنوره اهل الصلاح ، بل يظل القوم جميعا حتى ينعم الكل بانشاد اناشيد الكوليادكى (١) ويسبحون بحمد الله ، واخذ الصقيع يشتد عما كان فى الصباح ، وازداد السكوت شمولا حتى كان صوت الجليد يترامى الى الأسماع وهو يقرقع تحت وطء الحذاء على بعد نصف ميل ، ولم تك قد ظهرت بعد جماعة واحدة من جماعات الفتيان تحت النوافذ ، وانما كان القمر يختلس النظر اليهم كأنما يهيب بالفتيات اللواتى كن يرتدين اغلى ما عندهن من ثياب ، ان يعجلن ويركضن على الجليد المقعقع ، وانبعث الدخان فى تلك اللحظة يرتفع حلقات من مدخنة كوخ ويسبح كالسحاب فى اجوازالفضاء ، وارتفعت فى الجومع الدخان ساحرة تمتطى مكنسة .

ولو ان مساعد القاضى فى بلدة سوروتشينتسى قد برز بقبعته التى حليت أطرافها بجلد الشاة وسويت على طراز قبعة

---

(١) من عاداتنا أن تنشد تحت النوافذ ليلة عيد الميلاد أناشيد تسمى « كوليادكى » وتلقى ربة البيت او ربة اى شخص بقى فيه من أهل الدار ، فى كيس المنشد دائما بعض السجق أو الخبز او قطعة من النقود النحاسية أو ما استطاع اليه سبيلا ، ويقال : انه اتفق يوما ان كان ثمة شخص غبى يقال له كوليادا فحسبه الناس الها ، ومن ثم نسبت هذه الاناشيد اليه ، ومن يدرى ؟ لعله لا يجوز لقوم بسطاء من امثالنا أن يدلوا برأيهم فى موضوع كهذا ، وقد حرم الاب أوسيب على الناس فى العام الماضى أن ينشدوا الكوليادكى فى المزارع قائلا : انهم انما يمجدون الشيطان بفعلهم هذا ، مع أن هذه الاناشيد قد خلت من كلمة واحدة تشير الى كوليادا ، وهى تدور فى كثير من الاحيان حول مولد المسيح ، ثم يتمنى القوم فى نهايتها الصحة السابغة لرب البيت وربته واطفالهما وافراد الاسرة جميعا .

« تعليق مربى النحل »

الأوغلان (١) ، ومعطفه الأزرق القاتم المبطن بفراء استراخان الأسود، ومر فى تلك اللحظة بعربته المشدودة الى جياده الثلاثة المستأجرة وسوطه المجدول جدلا جهنميا الذى الف ان يستحث به حوذيه ، لرآها بلا شك ، ذلك انه ما من ساحرة فى العالم تستطيع ان تفلت من عين مساعد قاضى سوروتشينتسى ، فهو يستطيع أن يعد على أصابعه عدد ماوضعته خنزيرة كل فلاحة من صغار ، ومقدار ما تحتفظ به فى صندوقها من كتـــان ، واى ثوب من اثوابهم أو متاع من امتعة المنزل يرهنه القوم الصالحون فى الحانة يوم الأحـد ، ولكن مساعد قاضى سوروتشينتسى لم يمر بهذا المكان فى عربته ، واى شأن له فيه حتى يمر ؟ لقد كان حسبه ان يعنى بشئون ناحيته .

ولم تلبث الساحرة فى هذه الأثناء ان شقت اجواز الفضاء حتى غدت نقطة سوداء صغيرة فى كبد السماء ، وكلما ظهرت هذه النقطة السـوداء اختفت النجوم واحدا فى اثر آخر ، وسرعان ماجمعت الساحرة منها ملء ردنها ، وبقى من النجوم ثلاثة او اربعة ظلت تتالق ، ثم ظهرت فجاة نقطة صغيرة أخرى من مكان آخر ، واخذت تكبر وتكبر ثم تستطيل وتستطيل ، فلم تعد نقطة فحسب ، وما كان لشخص قصير النظر ان يعرف قط ما الذى صارت اليه ولو وضع على انفه عجلتى عربة المامور بدلا من النظارات . لقد كان الشكل الذى انتهت اليه يبـــدو من الأمام كالألمانى القح (٢) وكان وجهه الصغير الطويل ، الذى راح يتلوى ويتلفت ويتشمم كل شىء فى الحاح لاينقطع ، ينتهى بزر كالزر الذى تنتهى به خطم خنازيرنا، وبلغت ساقاه من النحافة مبلغا لو قدر لشيخ قرية ياريسكى ان يكون له مثلهما لكسرهما ولاشك فى أول رقصة قوزاقية يؤديها ، اما من الخلف فقد بدا فى نظر الناس جميعا وكيلا للنيابة فى زيه الرسمى ، فقـــد كان له ذيل طويل مستدق الطرف كالسترات

(١) الاوغلان هم رجال الحرس من التتر .

(٢) لقد اصطلحنا على ان نطلق على اى شخص قادم من بلد أجنبى اسم الالمانى ، فهو المانى عندنا حتى لو كان فرنسيا أو هنغاريا او سويديا .

المؤلف

الرسمية فى هذه الأيام ، وانما كانت لحية التيس التى فى اسفل ذقنه والقرنان الصغيران البارزان فى جبهته ولونه الذى لايزيد فى بياضه عن لون كناس المداخن ، أجل كان ذلك كله هو الذى يجعل المرء ينكر انه كان المانيا او وكيلا لنيابة ناحية من النواحى ، ويجزم انه من الشيطان . وقد بقيت له ليلة واحدة فحسب يطوف فيها بهذا العالم الفسيح ليقود القوم الصالحين الى المعصية ؛ ولكن ما ان ينبلج الصبح ، وتدق الاجراس دقاتها الأولى تدعو الناس الى صلاة الفجر ، حتى يضع ذيله بين ساقيه ويمضى الى وكره لايلوى على شىء .

واسترق الشيطان الخطا فى هذه الأثناء صاعدا الى القمر . ومد يده ليمسك به ، ولكنه استردها بسرعة كأنما لسعه القمر بحرارته، ومص اصابعه ، وراح يرقص هنا وهناك ، ثم طار ملتفا به من الجانب الآخر، ثم انقلب مرة اخرى وقد رد يده ، الا ان الشيطان الخبيث لم يكف عن الاعيبه بالرغم مما أصابه من خيبة فوقخيبة، فقد طار مصعدا وامسك بالقمر فجأة بكلتا يديه ، وراح يقذف به بيد ليلقاه بالأخرى وهو يقطب حاجبيه وينفخ فيهما كما يفعلالفلاح اذ يلتقط جذوة نار لغليونه بأصابعه المجردة ، ولم يلبث ان وضعه فى جيبه آخر الأمر ، ومضى فى طريقه كأن لم يحدث شىء البتة .

ولم يلحظ احد من اهل ديكانكا ان الشيطان قد سرق القمر ، صحيح ان كاتب الناحية راى القمر ، وهويخرج من الحانة يدب على اربع ، يتراقص فى السماء لغير ما سبب ، واقسم على ذلك للقرية بأسرها ، ولكن الناس هزوا رءوسهم بل سخروا منه . ترى ما الذى دعا الشيطان الى ان يسلك هذا المسلكالشائن ؟ لقد دعاه الىذلك انه علم ان القندلفت كان قد دعا شوب القوزاقى الثرى الى وليمة عشاء من العصيدة يرتدى فيها قريب من أقرباء القندلفت ، يعمل مع فرقة المرنمين التابعة للأسقف ، سترة زرقاء قاتمة ويستطيع ان يؤدى اغلظ القرارات من النغم ، وقد دعى الى هذه الوليمة أيضا شيخ القرية وسفير بيجوز القوزاقى وغيرهما ، واعد العشاء بحيث يشتمل على الفودكا المطيبة والفودكا المعالجة بالزعفران ، وأطايب المأكولات من كل لون ، فضلا عن عصيدة عيد الميلاد ، ولسوف

تترك ابنته وهى فتنة القرية ، وحيدة فى المنزل فى اثناء ذلك .

ولم يك ثمة شك فى ان الحداد ، ذلك الفتى الوسيم العظيم القوة سيزورها ، وكان الشيطان يكرهه اكثرمما يكره عظات الاب كوندرات. وكان الحداد يصرف أوقات فراغه فى النقش حتى عده الناس ابرع الفنانين فى الناحية ، ولا ادل على ذلك من ان الضابط القوزاكى ب ـ كو الذى كان لايزال على قيد الحياة فى تلك الأيام ، قد أرسل فى طلبه من بلتاوة خصيصا لينقش له السور الذى يحيط بمنزله ، وكانت جميع الطاسات التى يتناول فيها قوزاق ديكانكا عشاءهم من الحساء من نقش ذلك الحداد .

لقد كان رجلا يخشى الله وكثيرا ما نقش الأيقونات ، بل انك لترى حتى اليوم الصورة التي صنعها للوقا الأنجيلى فى كنيسة ت ، ولكن اروع آثاره هى الصورة التى رسمها على جدار الكنيسة فى الهيكل الذى الى اليمين ، وقد صور فيها بطرس الرسول يطرد الشيطان من جهنم يوم الحساب ، وتملك الشيطان الفزع وهو يتكهن بمصيره فاخذ يجرى على غير هدى ، على حين شرع أهل المعصية الذين اطلق سراحهم يطاردونه ، ويضربونه بالسياط وقطع الخشب وكل ما يقع فى أيديهم . وبينما كان الفنان يصنع هذه الصورة ويرسمها على لوح كبير من الخشب ، راح الشيطان يبذل كل ما فى وسعه ليعوقه عن عمله ، فلكزه فى ذراعه خفية ونفخ بعض الرماد من الكور الى دكان الحداد ونثره على الصورة ، الا ان الحداد انجز الصورة بالرغم من ذلك ثم حملت الى الكنيسة وركبت فى جدار الهيكل الجانبى ، فاقسم الشيطان لينتقمن من الحداد .

ولم تك قد بقيت للشيطان الا ليلة واحدة يجوس فيهما خلال الأرض ، وكان يبحث عن وسيلة يصب بها جام غضبه على الحداد فى تلك الليلة ، ولذلك صح عزمه على سرقة القمر مقدرا أن شوب العجوز كان بليدا بطىء الحركة وان كوخ القندلفت كان بعيد الشقة. وكان الطريق يمر بالطواحين وبالمقبرة التى فى خارج القرية ويلتف حول اخدود ، وكانت الفودكا المطيبة والفودكا المعالجة بالزعفران خليقتين باغراء شوب اذا كانت الليلة مقمرة ، اما اذا كانت ليلة حالكة الظلام كهذه الليلة فقد كان من المشكوك فيه ان يستطيع انسان

جره من اريكة الموقد واخراجه من الكوخ ، وما كان الحداد الذى ساءت علاقته به منذ وقت طويل ، ليجرؤ مهما كانت الحال ، ومهما بلغ من قوته ، على زيارة الابنة وابوها مقيم فى المنزل .

وهكذا كان ، فما ان اخفى الشيطان القمر فى جيبه حتى ساد الظلام العالم كله فجأة فتعذر على اى امرىء ان يشق طريقه الى الحانة ، فما بالك اذا كان مقصده هو كوخ القندلفت . واطلقت الساحرة صرخة عندما وجدت نفسها فى الظلام فجأة وهرع اليها الشيطان ، وهو يكثر لها من الانحناء والابتسام ، وامسك بذراعها واخذ يهمس فى أذنها بتلك العبارات التى الف الرجال ان يهمسوا بها فى آذان النساء جميعا . الا ما اعجب تدبير الأمور فى عالمنا هذا ! ان كل من يعيشون فيه يحاولون دائما ان يقلد بعضهم بعضا كأنهم القردة ! لقد كان القاضى والعمدة فى الأيام الخالية هما الوحيدين من اهل ميرجورود اللذين الفا ارتداء معاطف من النسيج مبطنة بجلد الماعز فى الشتاء ، على حين كان صغار الموظفين يرتدون جلد الماعز العادى .

اما اليوم فان مساعد القاضى وملاحظ الأراضى قد اكتسيا بالمعاطف الجديدة المصنوعة من النسيج والمبطنة بفراء استراخان . وقد اشترى كاتب المركز وكاتب الناحية فى العام الأسبق جلد بط ازرق قاتما ودفعا فى الياردة منه ستين كوبكا ، واكتسى سادن الكنيسة بسروال صيفى من النسيج المعروف باسم « نانكين » ، وصديرى مخطط من الصوف المغزول .

وصفوة القول ان كل انسان كان يحاول ان يكون صاحب شأن ، وا عجبا ! متى يكف الناس عن الغرور ؟ انى لعلى استعداد أن اراهن بأن كثيرا منهم تنتابهم الدهشة اذا هم رأوا الشيطان يسلك هذا المسلك . ومما تضيق له النفس اشد الضيق انه يخال نفسه بلاشك فتى وسيما بالرغم من ان منظره مشين معيب ، اما وجهه فاشنع من الشناعة كما يقول فوما جريجوريفتش ، ومع ذلك فهو يصطنع الظرف والرقة ! الا ان الظلام كان قد أسدل ستاره على السماء وما تحت السماء ، فعز على الأنظار أن ترى ما وقع بين الشيطان والساحرة من بعد !

ووجه شوب القوزاقى ، وهو يخرج من باب كوخه ، سؤالا الى فلاح طويل القامة نحيل يرتدى جلد ماعز قصيرا : « اذن فانك لم تذهب لزيارة القندلفت فى كوخه الجديد باصاح . » وبدا على لحية الفلاح الكثة انه لم تمسسها ، منذ أسبوعين على الأقل ، قطعة مكسورة من منجل الف الفلاحون ان يحلقوا بها لحاهم لافتقارهم الى الموسى ، ومضى شوب يقول وهو يبتسم ابتسامة كشف بها عن نواجذه : « لتكونن سكرة طيبة هناك الليلة ، وارجو الا نكون قد تأخرنا ! »

وشرع شوب فى اصلاح شأن الحزام الذى كان يطوق به فى احكام جلد الماعز الذى كان يرتديه ، واحكم القبعة على رأسه وأمسك بسوطه الذى كانت ترتعد منه الكلاب المزعجة ، ولكنه رنا ببصره الى السماء ثم توقف .

«يا للشيطان ! انظر ، انظر يا باناس ! »

وساله صديقه وهو يرنو ببصره أيضا الى السماء : « ما الخبر؟»

« ما الخبر ، عجبا ! ليس ثمة قمر ! »

« يا له من امر مزعج ! ليس ثمة قمر حقا ! »

وقال شوب وقد نمت لهجته عن شيء من الضيق لما أظهره صديقه من عدم اكتراث يتسم بالهدوء والرزانة : « صدقت كل الصدق ! فليس ثمة قمر ! ولاشك عندى انك لا تحفل بالأمر ! »

« وى ! وماذا استطيع ان افعل ؟ »

واسترسل شوب يقول وهو يمسح شاربه بردنه : « لاشك ان شيطانا تدخل فى الأمر . الا فليحرم هذا الكلب حرمانا حتى لايجد قدحا يصيبه من الفودكا صباحا ! لعمرى ، كأنه يريد ان يسخر منا ! لقد كنت اجلس داخل الكوخ ثم تطلعت من النافذة ، فوجدت الليل غاية فى السحر والفتنة ! كان الضوء يفيض والجليد يتألق فى ضوء القمر ، حتى لترى كل شيء كأنك فى وضح النهار، وهاأنذا لا أستطيع ، ولما أبارح باب الكوخ ، ان ارى يدى وهى مبسوطة امامى!»

وراح شوب يدمدم ويلقى باللوم وقتا طويلا ، الا انه كان فى الوقت نفسه يفكر فيما عساه أن يصنع . لقد كان يتوق الى الثرثرة بلغو الحديث على جميع أشكاله وضروبه فى كوخ القندلفت ، حيث كان

شيخ القرية ولاشك جالسا الآن ، هو وذلك المنشد الجهير الصوت وميكيتا تاجر القطران الذى ألف ان يقصد مرة كل اسبوعين سوق بلتاوة ويلقى من الملح والنكات ما تشق له جنوب القرويين جميعا من الضحك ، وكان شوب يرى بعين الخيال الفودكا المطيبة على المائدة ، وفى هذا من الاغراء ما فيه ، ولكن حلكة الليل ذكرته بحلاوة الكسل الذى يميل اليه كل قوزاقى من كل قلبه . الا ما امتع ان يستلقى الآن على اريكة الموقد ، وقد طوى ساقيه تحته ، واخذ يدخن غليونه فى هدوء منصتا فى نشوة النعاس اللذيذ الى الأغانى والكوليادكى التى ينشدها فتيان وفتيات فاضت قلوبهم بالبشر ، والتأم شملهم جماعات تحت النوافذ ! ولوكان وحده لاستقر رأيه ولاشك على هذا المسلك، اما وهما اثنان معا فلم يكن التماس الطريق فى ظلمة الليـــل بالأمر الذى يدعو الى كل هـــــذا الخوف والفزع ، زد على ذلك انه كان لايحب ان يظهر بمظهر الكسول أو الجبان فى اعين الآخرين ، وما ان فرغ من اللوم حتى التفت الى صديقه قائلا :

« اذن فليس ثمة قمر يا صاح ؟ »

« أجل »

« ما اعجب هذا حقا ! اسمح لى بنشقة من السعوط ، فان سعوطك لرائع يا صاح ، من اين لك به ؟ »

فأجاب صديقه وهو يغلق صندوق السعوط المصنـــوع من لحاء شجر البتولا والمحلى ببعض الرسوم البارزة : « ارائع هو حقـــا ؟ عجبا ! انه لايحمل دجاجة عجوزا على العطس ! »

فقال شوب : « اذكر ان زوزوليا صاحب الحانة اتى لى ببعض السعوط من نزين ، آه ، لقد كان سعوطا بحق ! اجل كان سعوطا طيبا ! والان مارأيك ياصاح ؟ ان الظلام حالك كما تعلم »

فأجابه صديقه وهو يمسك بمقبض الباب : « اذن ، فخير لنـــا فيما أظن ان نلزم الدار » .

ولو لم يقل صديقه هذا لاستقر راى شوب ولاشك على ان يلزم الدار ، الا ان شيئا كان يستحثه الآن فيما يظهر على معارضته : « كلا ياصـــاح فلنذهب ! فانه لا يليق بنا التخلف ، بل يجب ان نذهب »

واحس شوب حتى وهو يقول ما قال ، بالغيظ من نفسه لانه اقدم على هذا الفعل ، ذلك انه كان يكره كل الكره ان يخرج فى ليلة كهذه ، على انه احس بالرضا والغبطة ، فقد كان هو صاحب القرار ولم يستمع فى ذلك لنصح أحد .

وتلفت صديقه حوله وحك كتفيه بمقبض سوطه ولم تبد على وجهه اية علامة تدل على الضيق شأن من لايبالي : الزم الدار أم بارحها ؟.. وهكذا شرع الصديقان فى رحلتهما .

ولنر الآن ماذا كان من أمر ابنة شوب الجميلة وهى وحيدة فى كوخها . لقد كان الناس جميعا قبل ان تبلغ اوكسانا السابعة عشرة، لايكادون يتحدثون الا عنها سواء فى هذا الجانب من ديكانكا أو فيما وراءه ، وقد أجمع الفتيان على ان القرية لم تشهد ولن تشهد فتاة اجمل منها . وكانت اوكسانا تسمع وتعرف كل ما يقال عنها ،كما كانت كغيرها من الحسان متقلبة الأهواء ، ولو انها ارتدت من الملابس ماترتديه السيدات الفاضلات بدلا من النقبة المخططة والمئزر، مااستطاعت ان تحتفظ قط بخادم . وكان الفتيان يهرعون خلفها زرافات ، الا ان صبرهم كان ينفد ، فينصرفون عن هذه الفاتنة العنيدة واحدا بعد واحد ، ويتحولون الى غيرها من الفتيات اللواتى لم يكن فى مثل دلالها ، ولم يبق منهم الا الحداد الذى ظل يلاحقها بغزله بالرغم من انها لم تكن تعامله البتة خيرا مما تعامل سواه .

وما ان خرج ابوها حتى قضت اوكسانا وقتا طويلا ترتدى افخر ثيابها ، وتتزين وتتأنق أمام مرآة صغيرة فى اطار من الزنك ، الا انها لم ترض عن زينتها وحسنها كل الرضا .

وقالت كأنما شرد منها الفكر، فأرادت ان تتحدث الى نفسها بشىء وحسب : « ما الذى ألقى فى روع الناس ان يذيعوا عنى اننى جميلة؟ انهم يكذبون ، فلست جميلة على الاطلاق ! »

الا ان الوجه الصبوح الذى انطبع فى المرآة ، بشبابه النضير البرىء وعينيه السوداوين المتألقتين وابتسامته الفاتنة التى تجل عن الوصف وتهز النفس هزا ، كان ينقض ما تزعم فى الحال .

ومضت الفتاة تقول وهى لاتزال ممسكة بالمرآة : « أيمكن ان يكون حاجباى الأسودان وعيناى بهذا الجمال الذى لايعرف له فى

العالم مثيل ولا ضريب ؟ اى جمال فى هذا الأنف المرفوع وفى هذين الخدين وهاتين الشفتين ؟ وما بال ضفيرتى السوداوين ؟ اجميلتان هما ايضا ؟ أف ! انهما خليقتان بأن تدخلا الرعب فى قلب المرء اذا جن الليل ، فهما تلتويان وتلتفان حول راسى كأنهما الأفاعى الطويلة، وانى لأرى الآن اننى لست جميلة على الاطلاق ! » ، ثم أبعدت المرآة قليلا وصاحت : « اى نعم ، انى لجميلة ، آه ، ما اروع حسنى ! ان جمالى لعجيب ، ولأكونن قرة عين من يتزوجنى من الرجال ! ولشد ما يعجب بى زوجى ! ليستخفنه الطرب ، فيقبلنى ويقبلنى حتى ليزهق منى الأنفاس ! »

وهمس الحداد وهو يدخل الكوخ فى رفق وهدوء : « يا لها من فتاة عجيبة ! ثم الم ينل منها الغرور شيئا ؟ لقد ظلت واقفة أمام المرآة ساعة لا تستطيع ان تنتزع نفسها منها ولا تكف ايضا عن اطراء نفسها جهارا نهارا ! »

ومضت الفتاة الجميلة ذات الدلال قائلة : « أو كفء انا لكم ايها الفتيان ؟ انظروا الى وتأملوا رشاقة خطوى ان قميصى مطرز بالحرير الأحمر ، ويا للشرائط التى تزين راسى ! لن تقع عينكم ابدا على أثمن من هذه الشرائط ، لقد اشترى لى أبى كل هذا ليزوجنى زينة شباب العالم طرا » ، ثم قهقهت والتفتت فرات الحداد .

فاطلقت صرخة ووقفت تواجهه ساكنة رابطة الجاش .

وسقطت يدا الحداد الى جنبيه فى يأس .

وليس من اليسير ان نصف التعبير الذى لاح على وجه الفتاة الضارب الى السمرة ، لقد كان فيه صرامة تلمح من خلالها لونا من الوان السخرية بالحداد الذى ظهر عليه الارتباك . وشابت وجهها فى الوقت نفسه مسحة رقيقة لا تلحظ من الخجل الدال على الغضب، واختلط هذا كله ، فاكسبها حسنا يجل عن الوصف ، ولا تستطيع حياله الا ان تمطرها لتوك بفيض من القبلات لايحصى ولايدرك له عدد.

وانشأت اوكسانا تقول : « لماذا جئت ؟ أتريد منى أن ألقى بك من الباب بمجرفة ؟ ما أبرعك فى تخير الوقت لزيارتنا ! انك لتتنسم من فورك اللحظة التى يغيب فيها الآباء عن المنازل . واها لك ، فانى اعرفك ! هل اتممت صنع صندوقى ؟ »

« لأتجزنه بعد عيد الميلاد ياقرة عينى ، آه لو تعلمين مقدار ما انفقت من جهد فى صنعه ، اننى لم أبارح الدكان ليلتين ، وهيهات ان تحظى ابنة قس بصندوق مثله . ان الحديد الذى طوقته به لافضل من الحديد الذى وضعته فى عربة الضابط عندما كنت أعمل فى بلتاوة ، ويا للطلاء الجميل الذى سأطليه به ! لن تجدى له مثيلا وان فتشت فى الناحية بأسرها سعيا على قدميك البيضاوين الصغيرتين ، ولأنثرن عليه الأزهار الحمر والزرق ، فيتوهج توهج النار ، فلا تغضبى منى ، واسمحى لى على الأقل بأن احدثك وأن انظر اليك ! »

« لتحدثنى وتنظرن الى ماشئت .. فما من احد يمنعك »

وجلست على الأريكة وتطلعت فى المرآة مرة اخرى ، واخذت تصلح شعرها ، ونظرت الى عنقها والى قميصها الجديد المطرز بالحرير الاحمر ، وتلألأت شفتاها ووجنتاها الناضرتان بشعور خبيث بالرضا تجلى أثره فى عينيها .

وقال الحداد : « اسمحى لي ان اجلس بجوارك »

فقالت اوكسانا ، وما زال الشعور نفسه يتلألأ على شفتيها وفى عينيها الراضيتين « اجلس »

وقال الحداد وقد ازداد جراة : « ما اروع حسنك اى اوكسانا الجميلة ! اسمحى لى ان اقبلك ! » ، وجذبها نحوه وقد اعتزم ان يختلس منها قبلة ، ولكن اوكسانا اشاحت عنه بخدها الذى كان قريبا من شفتيه كل القرب ، ودفعته بعيدا عنها .

« او تريد شيئا آخر ؟ لن تنال الشهد حتى تلتمس الوسيلة اليه ! اغرب عنى ، فان يديك اقسى من الحديد ، ورائحة الدخان تفوح منك ، وانى لاحسب انك لوثت جسمى كله بالسناج الذى ينضح منك »

ثم تناولت المرآة ، واخذت تتأمل نفسها فيها مرة اخرى .

وقال الحداد يحدث نفسه وقد مال راسه : « انها لاتحبنى ! وانما هى تعبث فى كل هذا الأمر ، على حين اقف انا امامها كالأبله لا استطيع أن احول عينى عنها ، بل احب أن أقف أمامها دائما لا ارد عنها بصرى ابدا ! يا لها من فتاة غريبة الأطوار ! وانى لأبذل النفس والنفيس لأعلم ما فى قلبها ومن تحب ، ولكنها لا تبالى أحدا ، وانما هى تعجب بنفسها . انها تعذبنى انا المسكين ، فينفطر قلبى من

الحزن حتى لاجد نفسى فى ظلام ليس بعده ظلام . انى احبها حباً لم يكابده أحد من قبل ولا من بعد »

وقالت اوكسانا : « أصحيح ان امك ساحرة ؟ » ، ثم ضحكت ، وشعر الحداد بأن كل ما فيه يضحك ، وبدا له ان هذا الضحك يتردد صداه فى قلبه وفى عروقه التى اخذت تختلج اختلاجا عذبا ، الا ان نفسه كانت بالرغم من هذا كله قلقة لانه لم يكن يحق له ان يقبل ذلك الوجه الضاحك البديع .

« وماذا يهمنى من أمر امى ؟ انما انت ابى وامى بل كل ما هو عزيز فى هذا العالم ، ولو ان القيصر ارسل طلبى وقال لى : « ايها الحداد فاكولا تمن على أعز ما فى مملكتى اعطك اياه ـ لآمرنهم ان يصنعوا لك كورا من الذهب تعمل فيه بمطارق من الفضة ، أجل لو أن القيصر قال لى هذا لاجبته : « لست أبالى الأحجار الكريمة او مملكتك وحسبى أن تهب لى فتاتى أوكسانا » .

فقالت اوكسانا وهى تبتسم فى مكر ودهاء :« يا لك من فتى ان ابى ليس أيضا بالفر الأحمق ! ولتعلمن هذا عندما يحجم عن الزواج من امك ! ولكن الفتيات لم يحضرن بعد ، فما بالهن ؟ لقد كان أولى بنا ان نبدأ فى انشاد الكوليادكى منذ زمن طويل ، فانى قد مللت الانتظار ! »

« خير لنا أن ينأين عنا يا فاتنتى ! »

« آه ، كلا ! وانى لأحسب ان الفتيان سيأتون معهن ، فنستطيع أن نلهو ونمرح ، وانى لأتخيل القصص التى سوف يروونها ! »

« اذن ستمرحين معهم ؟ »

« اجل ، وليكونن مرحى معهم اكثر من مرحى معك ، آه ! ان بعضهم يقرع الباب ، ولابد أنهم الفتيان والفتيات »

وقال الحداد بينه وبين نفسه : « فيم بقائى بعد ؟ انها تسخر منى ، ولست عندها بأكثر قيمة من حدوة حصان قديمة علاها الصدأ . ولكن اذا كان الأمر كذلك فلن ادع رجلا آخر يهزأ بى ، فلئن تبين لى انها تعجب بشخص اكثر مما تعجب بى ، لأؤدبنه حتى يبتعد عنها »

ودوت طرقة على الباب وصيحة مجلجلة فى الصقيع ، تهتف :

« افتحي : » فقطعت عليه تأملاته .

وقال الحداد : « انتظروا ! وسأفتح الباب » ، ثم خرج وقد تملكه الغضب حتى نوى أن يكسر ضلوع أي شخص ألم بالباب .

وزاد الصقيع حدة ، واشتد البرد في الطبقات العليا من الجو حتى أخذ الشيطان ينط على ظلف تارة وعلى الظلف الآخر تارة أخرى ، وينفخ في قبضتيه محاولا ان يبعث الدفء في يديه المتجمدتين ، واى عجب في ان يشعر بالبرد وهو الذي الف ان يجوس في ارجاء الجحيم يوما بعد يوم ، حيث لا تبلغ البرودة ، على ما نعرف جميعا ، مبلغ الشتاء عندنا ، وحيث يضع قبعته على رأسه ويقف أمام الموقد ، كأنه الطاهي الحق ، يشوي أهل المعصية مغتبطا اغتباط الفلاحة وهي تقلي المقانق « السجق » في عيد الميلاد .

وشعرت الساحرة ايضا ببرودة الجو ولو انها كانت ترتدي من الملابس ما يبعث في أوصالها الدفء ، فقذفت بذراعيها الى اعلى ووقفت تمد قدما من قدميها واتخذت هيئة رجل يسابق الريح على قبقاب التزحلق دون أن تحرك عضلة واحدة من عضلات جسمها ، ثم انزلقت في الهواء كأنها تهبط منحدرا من الثلج ، ودخلت مدخنتها لا تلوي على شيء .

وتبعها الشيطان على هذا النحو نفسه ، ولكن هذا المخلوق كان اخف حركة من اى رجل متعاجب يرتدي الجوارب ، فلا غرو انه وقع على عنق خليلته عند قمة المدخنة ، ووجد كلاهما نفسه بين القدور في فرن رحب فسيح الأرجاء .

وزحزحت الساحرة باب الفرن خلسة لترى : ادعا ابنها فاكولا بعض الضيوف الى الكوخ ، أم لم يدع ؟ ولكنها لم تر أحدا ، الا الأكياس الملقاة على الأرض ، فتسللت من الفرن وخلعت عنها معطفها الدافىء وعادت الى حالتها الطبيعية ، وما كان لأحد ان يذهب في القول الى انها كانت تمتطي مكنسة منذ لحظة .

وكانت أم فاكولا لاتجاوز الأربعين من عمرها ، ولم تك بالوسيمة ولا بالدميمة ، والحق ان من العسير ان يكون اى مخلوق وسيما في تلك السن ، على انها كانت بارعة جدا في غواية القوزاق ، فلايمتنع عنها خيرهم استقامة وصلاحا « ولا يفوتنا ان نذكر ان هؤلاء

القوزاق كانوا لايحفلون بالجمـال كثيرا » حتى ان شـيخ القرية واوسيب نيكيفوروفتش والقندلفت « عندما تغيب زوجته من الدار بطبيعة الحال » ، والقوزاقى كورنى شوب والقوزاقى كاسيان سفير بيجوز قد الفوا زيارتها ، ومن آياتها انها كانت تسوسهم فى براعة عجيبة ، فلا يدور بخلد احد ان له منافسا ، ولو ان سيـدا او فلاحا ممن يخافون الله « كما يصف القوزاق انفسهم » يطرح على كتفيه دثارا ذا قلنسوة قد قصد الكنيسـة يوم الأحد او الم بالحانة، مافاته قط ان يزور سولوخا وياكل لقيمات القاضى المصنوعة من الجبن والقشدة المتخثرة ، ويثرثر فى الكوخ الدافىء مع ربته المحدثة اللبقة الأنيسة .

وكان القوزاقى يتعمد ان يلف ويدور طويلا قبل ان يبلغ الحانة ، ويسمى هذا « التطلع اثناء الطريق » ، وعندما كانت سولوخا تذهب الى الكنيسـة فى يوم من ايام الراحة مرتدية النقبات ذات الخطوط الزاهية اللون ومئزرا من القطن ، ومتشحة فوق ذلك بدثار أزرق قاتم طرز على ظهره وشى من ذهب ، وتتخذ موقفهـا بالقرب من الجانب الأيمن من فرقة المنشدين ، كان القندلفت لايفوته ان يسعل، وان يزر عينيه مومئا اليها فى غير فطنة . اما شيخ القرية فـكان يسوى شاربه ويلف قنزعة راسه خلف اذنه ، ويقـول للرجل الذى يجاوره : « آه ، هاك امراة بمعنى الكلمة ، بل داهية من الدواهى!»، وكانت سولوخا تنحنى لهما ، فيظن كل منهما انها انما تنحنى له وحده.

وما من امرىء مشغوف بأن يدس انفه فى شئون الناس الا لاحظ ان سولوخا كانت تعامل القوزاقى شوب معاملة غاية فى الكرم واللطف، ذلك ان شوب كان ارمل ، تقوم أمام كوخه دائما ثمانية اكداس من القمح ، وتطل رءوس زوجين من الثيران القوية من مخزن الحبوب المسور الى جانب الطريق ، وتخور الثيران فى كل مرة ترى فيهـا صاحبتها الوفية البقرة أو عمها الثور الربل وهو يمر بها ، وقد الف تيس ملتح ان يتسلق الى السقف ويثغو فى صوت اجش كصوت العمدة ، زاجرا الديكة الرومية وهى تخطر فى الفناء ، مدبرا اذا شاهد اعداءه الصبيان الذين جروا على السخرية بلحيته . وكانت صناديق شوب تضم ذخيرة وافرة من الكتان وكثيرا من السترات

والمعاطف العتيقة قد طرزت بالمخرمات الذهبية ، فقد كانت زوجته مغرمة بالملابس النفيسة ، وكانت قطعتان من حديقة خضره تزرعان كل عام تبغا ، علاوة على الخشخاش والكرنب وعباد الشمس . وكانت سولوخا تراود نفسها قائلة « الا ضير لو ضمت كل هذا الى مزرعتها ، وراحت بالفعل تضاعف ما تغدقه على شوب العجوز من أفضال ومنن وهى تفكر فيما تكون عليه مزرعة شوب من نظام حسن عندما تئول اليها .

وارادت ان تمنع ابنها فاكولا من مغازلة ابنة شوب والاستيلاء على مزرعته والاستئثار بها « ولو قد تم ذلك لمنعتها على الأرجح من التدخل فى أى أمر » ، فلجأت الى تلك الحيلة التى تلجأ اليها عادة السيدات فى سن الاربعين — وهى أن تثير شوب على الحداد كلما استطاعت الى ذلك سبيلا ،ولعل هذه الحيل الخبيثة وتلك التدابير التى تنطوى على الدهاء هى التى جعلت العجائز من النساء يرمين بالقول هنا وهناك اذا أفرطن فى الشراب بعض الافراط فى اجتماع مرح ، بأن سولوخا ساحرة ولاشك ، وان الفتى كيزيا كولوبينكو قد رأى ذيلا ينبت فى ظهرها لايزيد طوله على طول مغزل الفلاحة ، وانها عبرت الطريق مسرعة منذ وقت قريب يرجع الى يوم الخميس الماضى متخذة صورة هرة سوداء ، وانخنزيرة قصدت مرة زوجة القس ، وصاحت كالديك ، ثم وضعت قبعة الأب كوندرات على رأسها ، وركضت لا تلوى على شىء .

وقد اتفق ان مر بالمكان تيميش كوروستيافى حين كانت العجائز يروين هذه الروايات ، ولم يفته ان يقص عليهن كيف اتفق له فى الصيف ، قبل صيام بطرس الرسول تماما ، ان استلقى لينام فى حظيرة البقر مسندا رأسه الى شىء من القش فرأى بعينى رأسه ساحرة مرسلة الشعر لاترتدى من الملابس الا قميصا ، وقدشرعت تحلب البقر. وشلت أوصال الرجل وعجز عن الحركة ، فقدنال منه الذهول مناله ، ولطخت الساحرة شفتيه بشىء كريه جدا جعله يبصق اليوم التالى بأسره ، الا ان ذلك كله كان أمرا تحيط به الشكوك ، ذلك ان مساعد قاضى سوروتشينتسى كان هو الوحيد الذى يستطيع ان يرى ساحرة من الساحرات ، لذلك كان أعيان

القوزاق جميعا يلوحون بأيديهم وهم يسمعون هذه الروايات تلويحا ينم عن نفاد الصبر، وقد الفوا ان يجيبوا على مثل هذه الأقاويل: « انهن يكذبن ، أولئك العاهرات ! » .

ولما تسللت سولوخا من الفرن وعادت الى حالها الطبيعية اخذت ترتب شئون الدار وتضع كل شيء فى مكانه شـــأن ربة البيت الصالحة ، ولكنها لم تلمس الأكياس ، وقالت تحدث نفسها : «لقد جاء فاكولا بهذه الأكياس ، فعليه ان يخرجها بنفسه » ، وفى هذه الأثناء اتفق ان التفت الشيطان وهو يطير مندسا فى المدخنة ، فلمح شوب يتأبط ذراع جاره وهما يسيران على مسافة كبيرة من دارهما، فخرج من المدخنة طائرا وقطع عليهما الطريق وراح يثير اكواما من الجليد المتجمد ،فهبت عاصفة ثلجية ، وساد البياض الجو، وكان الجليد يدور بسرعة خلف الصديقين وامامهما حتى اوشك ان يطمس عيونهما وآذانهما وفمهما ، وعاد الشيطان طائرا الى المدخنة وهو مقتنع كل الاقتناع بأن شوب سيعود الى داره بصحبة صديقه ، وسيجد الحداد فى بيته ، ولعله يؤدبه تأديبا يكفه عن ان يمســك فرشاة الرسم زمنا طويلا حتى يمتنع عليه أن يرسم صوره الهزلية الساخرة .

والحق انه ما ان بدات العاصفة الثلجية فى الهبوب واخذت الريح تصك وجهيهما صكا ، حتى تمنى شوب أن لم يشرع فى رحلته ، ثم شد قبعته المصنوعة من الفراء على رأسه شـدا محكما وراح يصب اللعنات على نفسه وعلى الشيطان وعلى صديقه ، غير ان غضبه كان مفتعلا ، ذلك ان هبوب العاصفة الثلجية افعم قلبه بالسرور ، فقد كان لايزال امامهما من الطريق ثمانية امثال ما قطعوه منهحتى يبلغا كوخ القندلفت ، فعادا أدراجهما ، وكانت الريح تلفح مؤخر رأسيهما ، الا انهما لم يستطيعا أن يريا شيئا فى غمرة الجليـد الذى كان يدور بسرعة .

وقال شوب بعد ان سارا قليلا : « قف ياصاح ! فانى لأحسب اننا ضللنا الطريق ، اذ لا أرى امامى كوخا واحـدا ، يا لها من عاصفة ثلجية ! امض قليلا فى ذلك الاتجاه ، وانظر انكنت تستطيع ان تجد الطريق ، أما انا فسأرقب الناحية الأخرى ، وما هذا الا

من فعل الشيطان الملعون الذى هيأ لى ان اضرب فى هذه العاصفة، لا تنس أن تنادى عندما تجد الطريق ، آه ، يا لكوم الجليد الذى القى به الشيطان فى عينى ! »

على ان الطريق غاب عن انظارهما ، فقد ابتعد صديق شوب عنه ، واخذ يتخبط على غير هدى منتعلا حذاءه الطويل ، ووقع آخر الأمر على الحالة المعهودة ، وسرته هذه اللقية الموفقة حتى نسى كل ما عداها ، ونفض الجليد عن ملابسه ، ودخل الحانة لتوه ، غير عابىء مثقال ذرة بصديقه الذى تركه فى الخارج. وخيل الى شوب فى الوقت نفسه انه قد وجد الطريق ، فوقف وصاح باعلى صوته ، الا ان صديقه لم يظهر، فاستقر رايه على ان يسير وحده ، ومضى قليلا فشاهد كوخه تحيط به اكوام الثلج من كل جانب وتعلو سقفه ، وصفق بيديه المتجمدتين ، ثم قرع الباب وصاح فى لهجة حازمة هاتفا بابنته أن تفتح له الباب .

وصاح الحداد فى تجهم وعبوس وهو يخرج اليه : « فيم مجيئك الى هنا ؟ »

وعرف شوب صوت الحداد فتراجع قليلا ، وقال يحدث نفسه: « آه ، اذن فهذا ليس كوخى ، وما كان الحداد ليهبط على كوخى، على اننى قد تبينت بعد ان أنعمت النظر انه ليس بكوخ الحداد ايضا . ترى كوخ من هذا ؟ لقد عرفته ! ولم اك قد تبينته بعد ! انه الكوخ الذى يقيم فيه ليفشنكو الأعرج الذى تزوج شابة فى مقتبل العمر منذ عهد قريب ، ذلك ان كوخه هو الوحيد الذى يشبه كوخى ، اذن فما الذى جاء بالحداد الى هنا ؟ وى ! لقد جاء يزور زوجة ليفشنكو الشابة ! وهذا هو السر فى الأمر! مرحى لقد فهمت الآن ! »

وقال الحداد وهو يدنو من شوب وقد ازداد تجهما وعبوسا : « من انت ؟ وما الذى يدعوك الى التسكع على أبواب الناس ؟ »

وقال شوب يحدث نفسه : « لن اكشف له عن شخصيتى والا ضربنى ابن الخنازير ضربا موجعا » ، ثم غير صوته واجابه بقوله: « اننى انا ايها الرجل الصالح ! لقد جئت أروح عنكم بانشاد الكوليادكى تحت نوافذكم »

فصاح فاكولا غاضبا : « اذهب الى الشيطان انت واناشيدك ، لماذا تقف هناك ؟ اتسمعنى ؟ اغرب عنى ! »

وكان شوب قد عزم بالفعل على سلوك هذا المسلك الفطن ، الا ان احساسه بالاضطرار الى الرضوخ لأوامر الحداد اثار فيه الضيق والحنق ، ويظهر ان روحا شريرة قد لكزت ذراعه واكرهته على الاعتراض ، فقال ملتزما الصوت الذى حدثه به أولا : « لم تصرخ هكذا ؟ انما اريد أن انشد الكوليادكى، وهذا هوكل ما فى الأمر!»

« وى : ارى ان الكلام لايكفيك ! » ، ولم يلبث شوب ان شعر بضربة موجعة تصيب ذراعه .

فقال وهو يرتد قليلا : « أرى انك قد بدأت القتال ! »

وصاح الحداد وهو يدفع شوب دفعة أخرى : « اغرب عنى ! اغرب عنى ! »

فقال شوب فى صوت ينم عن الألم والتبرم والوجل : «ماذا تفعل؟ ارى انك تقاتل بحرارة ، وتضرب ايضا ضربا موجعا »

فقال الحداد : « اغرب عنى ! اغرب عنى ! » ثم صفق الباب .

وقال شوب عندما أصبح وحيدا خارج الباب : « انظر كيف يتبختر ويختال ! بل حاول أن تدنو منه ! يا له من فتى ! انه ليحسن الظن بنفسه ! أو تحسب اننى لن انالك بسطوة القانون ؟ كلا ياصاحبى العزيز، فلأذهبن من فورى الى المأمور ، والقى عليك درسا ! ويستوى عندى ان تكون حدادا أو نقاشا ، ولكن لا محيص من ان ألقى نظرة على ظهرى وكتفى ، فانى أظن انه قد شابهما الآن السواد والزرقة . لاشك ان ربيب الشيطان كان يضربنى بقوة ، ويؤسفنى ان الجو بارد يمنعنى من ان اخلع معطفى. صبرا أيها الحداد الشرير، وليحطمنك الشيطان ، انت ودكانك معك ، ولأحملنك على الرقص ! آه ، يا للوغد الملعون ! ولكنى لا اظن انه فى داره الآن ، بل انى لأحسب أن الدار قد خلت الا من سولوخا . ايه ، انها ليست بعيدة على كل حال ، وانى لمستطيع ان أمضى اليها، ثم ان الجو ممعن فى السوء ولن يفاجئنا احد ، وقد واتتنا الفرصة .. واها لى ! لقد اشتد هذا الحداد فى ضربى ! »

وحك شوب ظهره ثم سلك طريقا آخر، وخفف من الله بعض

الشيء ما كان يتوقعه من فرص مواتية فى لقائه المنتظر لسولوخا ، وافقده ذلك الاحساس بالصقيع الذى كان صوت قرقعته يطغى فى جميع الطرق على هدير العاصفة ، وكانت ترتسم على وجهه من حين الى حين سمة كريهة من الرضا ، وان كانت العاصفة الثلجية قد غطت لحيته وشاربه بزبد من الجليد اخف وقعا من اى حلاق يمسك بأنف ضحيته فى تجبر واستبداد . ولو لم تكن غاشية الجليد قد اخفت كل شيء لرايت شوب يقف بعد ذلك بوقت طويل ويحك ظهره مغمغما : « لقد ضربنى الحداد الملعون فأوجع ! » ثم يمضى فى طريقه .

وبينما كان المخلوق المتعاجب الخفيف الحركة ، يطير من المدخنة بذيله ولحيته التى تحاكى لحية التيس ثم يعود اليها ، اذا بالجيب المتدلى من حمالة الى جانبه ، اجل الجيب الذى كان يضع فيه القمر الذى سرقه ، قد علق بشيء فى الموقد فانفتح ، وانتهز القمر هذه الفرصة فانطلق من مدخنة كوخ ســـولوخا وسبح فى سهولة ويسر يشق اجواز الفضاء ، وغمر الضوء كل شيء ، كأنما لم تغش الجو عاصفة ثلجية ، وتألق الجليد سهلا فضيا فسيح الأرجاء مرصـــعا بنجوم كأنها البللور ، وبدا ان الصقيع قد خفت برودته ، وظهرت للعيان جماعات الفتيان والفتيات يحملون الاكياس ، وانســـــابت الأناشــــيد ، وانبعثت جماعات المنشدين تصدح بالـكوليادكى تحت النوافذ لا تكاد تترك كوخا الا حيته بالغناء .

وما كان أروع ضوء القمر! وأين أين القلم الذى يستطيع ان يجد من الكلمات ما يستطيع ان يعبر به عن مقدار مايتملك النفس من سرور فى مثل هذه الليلة؟ اذ يختلط المرء بجماعة الفتيات المنشدات الضاحكات ويندمج وسط هؤلاء الفتيان الذين لايجدون ضربا من ضروب اللهو والمرح توحى اليهم به هذه الليلة الباسمة المرحة الا التمسوه . ان الدفء ليسرى فى الأوصال تحت العباءة السميكة ، وتزداد الوجنتان من الصقيع وهجا فوق وهج ، ويغرى ذلك الشيطان الخبيث نفسه بالأذى والضرر .

واقتحمت جماعات من الفتيـــات يحملن الاكياس كوخ شــــوب ، واجتمعن حول اوكسانا ، واصاب أذنى الحداد وقر من صياحهن

وضحكهن وماكن يروينه من قصص ، ورحن يتنافسن فى رواية نبأ من الأنباء للغادة الفاتنة وفى افراغ أكياسهن والمفاخرة بالأرغفة الصغيرة والمقانق « السجق » ولقيمات القاضى المصنوعة من الجبن التى جمعن منها عددا لابأس به بانشادهن الأناشيد ، ولاح السرور على وجه اوكسانا ، فاخذت تحدث هذه تارة ، ثم تحدث تلك تارة أخرى ، وتضحك ضحكا متصلا لاينقطع .

وكان الحداد ينظر بعين الحسد والغضب الى هذا المرح ويلعن ما أخذ به القوم انفسهم من انشاد الكوليادكى ،وان كان هو شخصيا مولعا به

وصاحت الغادة التى استخفها المرح ملتفتة الى فتاة من الفتيات: « آه يا اودارکا ! انك ترتدين خفا جديدا ! ما أجمله ! وى ، وعليه وشى من ذهب ايضا ! يالك من فتاة سعيدة يا اودارکا ، فقد وهب الله لك رجلا يشترى لك كل شىء ، اما أنا فأين من يشترى لى مثل هذا الخف البديع ؟ »

وقال الحداد : « لا تحزنى ياحبة قلبى اوكسانا ، فسآتيك بخف لم تحظ به الا القليلات »

فقالت اوكسانا وهى ترمقه بنظرة سريعة تنم عن الاباء والاستعلاء: « انت ؟ بودى ان اعرف من اين تأتى لى بخف ارضى بأن انتعله فى قدمى؟ من يدرى لعلك توافينى بالخف الذى تنتعله القيصرة نفسها!»

وصاحت الفتيات ضاحكات : « انظرن اى خف تريد ؟ »

ومضت الفاتنة تقول فى زهو: « أجل ! ولتشهدن على جميعا ، لو ان فاكولا الحداد اتى لى بالخف الذى تلبسه القيصرة نفسها فانتى أعدكن وعدا صادقا بأن اتزوجه فى اليوم نفسه ! »

وخرجت الفتيات وفى صحبتهن هذه الفتاة الفاتنة المتقلبة .

وقال الحداد يحدث نفسه وهو يتبعهن : « اضحكن اذا شئتن ! فانى أسخر من نفسى ! ولست ادرى ماذا دهانى ! انها لاتحبنى — وى ! واى ضير فى هذا ؟ كأن العالم قد خلا الا من اوكسانا ، احمد الله فان القرية لحافلة بغيرها من الفتيات الجميلات ، وماذا تكون اوكسانا ؟ انها لن تكون ابدا ربة بيت صالحة ، فهى لاتحسن

الا التانق ، ولاضعن حدا لهذا حقا ، فقد آن لى ان أكف عن السخرية بنفسى ! »

واعتزم الحداد ان يصطنع الحزم ، ولكن روحا شريرة اطلقت فى النحظة نفسها طيف اوكسانا يسبح امامه ، وتمثلت له الفتاة ضاحكة ساخرة وهى تقول :« ائتنى بخف القيصرة ايهاالحداد اتزوجك!»، فثارت مشاعره كلها ولم يستطع ان يفكر الا فى اوكسانا .

وانبعثت حشود المترنمين بالكوليادكى زمرا من الفتيان والفتيات يسعون مهرولين من شارع الى شارع . الا ان الحداد مضى فىطريقه لايرى شيئا ، ولم يشترك فى المرح الذى كان يحبه اكثر من أى انسان آخر .

وكان الشيطان فى هــذه الأثنــاء يطارح سولوخا الغرام بحرارة فيقبل يدها فى رقة كما يفعل مساعد القاضى حين يقبل يد ابنــة القس ، ويضع يده على قلبه ويتأوه ، ويقول لها فى غلظة : « انها ما لم ترض باشباع هواه وتجزيه على اخلاصه الجزاء الحسن هان عليه كل أمر ، ومن يدرى ؟ لعله يلقى بنفسه فى الماء ويجعل روحه تنطلق الى الجحيم لا تلوى على شيء . ولم تكن سولوخا قد بلغت من القسوة هذا المبلغ ، ثم ان الشيطان كان كمــا نعلم يسايرها كل المسايرة ، فقد كانت مولعة بان تحيط بها جمهرة من الناس ، ويندر ان تراها بغير صحبة ، على انها كانت تتوقع ان تقضى هذا المساء وحيدة ، ذلك ان اعيان القرية جميعا كانوا قد دعوا للاحتفال بليلة عيد الميلاد فى كوخ القندلفت ، غير ان الأمور جــرت على غير ما تشتهى : فما ان بدا الشيطان يلح فى طلبه حتى سمعا فجأة قرعا على الباب وطرق آذانهما صــوت شــيخ القرية البدين ، وهرعت سولوخا لتفتح الباب ، على حين تسلل الشيطان الخفيف الحركة الى كيس ملقى على الأرض .

ونفض شيخ القرية الجليد عن قبعته وشرب قدحا من الفودكا من يد سولوخا ، ثم أنبأها بأن العاصفة الثلجية قد حالت بينه وبين الذهاب الى كوخ القندلفت ، فلما راى ضوءا فى كوخها جاء لزيارتها معتزما ان يقضى السهرة معها .

وما ان اتم شيخ القرية قوله هذا حتى سمعا طرقا على الباب

كما سمعا صوت القندلفت .

فهمس الشيخ يقول : « اخفينى فى اى مكان فانى لا أريد ان القى القندلفت الآن »

وفكرت سولوخا لحظة فى مكان تستطيع ان تخفى فيه هذا الزائر الضخم الجثة ، واختارت آخر الأمر اكبر كيس للفحم ، وافرغت الفحم فى برميل ، ثم تسلل الشيخ الى الكيس بشاربه وقبعته وفرائه وكل ما عليه !

ودخل القندلفت الكوخ وفرك يديه ثم أخبر سولوخا بأنه لم يحضر حفلته أحد ، وما اسعده بأن اتيحت له هذه الفرصة لينعم بزيارتها ! اما العاصفة الثلجية فهو لا يخشاها ، ثم دنا منها ولمس بأصابعه الطويلة ذراعها العارية البضة ، وهو يسعل ويتكلف الابتسام، ثم قال فى لهجة تنم عن الدهاء والرضا جميعا :

« وما هذا الذى حبيته به هنا اى سولوخا الرائعة ؟ » .، وما أن قال هذا حتى ارتد قليلا .

فاجابت سولوخا: «ماذا تعنى؟ اذراعى يا اوسيبنيكيفوروفتش؟»

فصاح القندلفت وقد سرته براعة استهلاله كل السرور: « آه ! ذراعك ، اليس كذلك ؟ ها ــ ها ــ ها ! » وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا .

ثم قال مصطنعا اللهجة نفسها وهو يدنو منها مرة أخرى ، ويلمس عنقها لمسا خفيفا ، ويرتد مرة ثانية كما فعل فى المرة الأولى:
« وهذا اى سولوخا ياحبة القلب ؟ »

فاجابت سولوخا: «ماذا تعنى؟ اذراعى يا أوسيبنيكيفوروفتش؟ انه عنقى وقلادتى ! »

« آه ! قلادتك ، ها ــ ها ــ ها ! » وراح القندلفت يذرع الغرفة مرة اخرى وهو يفرك يديه .

« وهذا اى سولوخا يازينة النساء ؟ » ، ولم يك يدرى أحد ما الذى اعتزم القندلفت أن يلمسه بعد ذلك بأصابعه الطويلة لو لم يسمعا فجأة قرعا على الباب وصوت شوب القوزاقى .

وصاح القندلفت فى فزع : « يا الهى ! فضولى ! ماذا يكون من

امر رجل فى مكانتى لو ضبط هنا ! تالله ليبلغن ذلك مسامع الاب كوندرات ! »

الا أن مخاوف القندلفت كانت ، فى حقيقة الأمر ، متجهة الى ناحية اخرى ، فقد كان أخشى ما يخشاه أن يتصل نبأ أفعاله بمسامع شريكة حياته التى نحلت يدها القاسية قفاه الكث أو كادت .

فقال وقد ارتعدت أوصاله جميعا : « بالله عليك اى سولوخا الطاهرة النقية ! ان شفقتك الحانية كما يقول انجيل لوقا الاصحاح الثالث و .. أواه ياعزيزتى ان شخصا يقرع البـاب ، أجل ان شخصا يقرع الباب ! اخفينى فى مكان ما ! » .

وقلبت سولوخا الفحم من كيس آخر، وتسلل اليه القندلفت ، ولم يك ضخم الجثة ، واستقر فى صميم قاعه حتى كان من اليسير ان تهيل عليه ملء نصف غرارة من الفحم .

وقال شوب وهو يدخل الكوخ : « طاب مساؤك ياسولوخا ! لقد جئت على غير انتظار ، أليس كذلك ؟ وما كنت تتوقعين قدومى، أو كنت تتوقعينه ؟ » ، ومضى شوب يقول ، وقد أنشرح صدره وعلى وجهه تعبير له مغزى يوحى بأن عقله البليد كان يعمل متأهبا لالقاء ملحة ساخرة مسلية : « لعلى تطفلت عليك ، أو لعلك كنت تستضيفين شخصا هنا ، أو لعلك اخفيت أحدا فى هذا المكان ، ايه ! » ، وضحك شوب وقد فتنته ملاحظته هذه ، الا انه كان يحس فى قرارة نفسه بالانتصار ، فقد ظن انه هو الرجل الوحيـد الذى سوف يحظى برعاية سولوخا .. « والآن ياسولوخا على بكأس من الفودكا التو واللحظة ، فانى لأحسب ان حلقى قد تجمد وجف بفعل هذا الصقيع الملعون ، يا للجو الذى ساقه الله الينا فى ليلة عيد الميلاد هذه ! ويا لها من عاصفة ثلجية يا سولوخا ! آه ، لقد تجمدت يداى فلا استطيع فك ازرار جلد الماعز الذى ارتديه يا لها من عاصفة ثلجية ! »

ودوى صوت فى الشارع يهتف : « افتحى الباب ! » ، وصحبته طرقة على الباب .

فقال شوب وقد توقف عن الحركة : « انشخصا يقرع الباب»

ودوى الصوت وقد ازداد علوا : « افتحى ! »

فصاح شوب وهو يتناول قبعته : « انه الحداد ، هلا تخفيتني يا سولوخا حيث شئت ! فما من شيء فى العالم يغريني بأن أظهر أمام ابن الخنازير الملعون هذا ! الا فليبله الله بثؤلول ككومة القش تحت كل عين من عينيه ابن الشيطان هذا ! »

وانتاب الفزع سولوخا نفسها، فأخذت تجرىهنا وهناك كالمتخبط المسلوب اللب ، ونسيت ما كانت تنوى القيام به ، ثم أشارت الى شوب بأن يندس فى الكيس الذى كان القندلفت يجلس مختبئا فيه بالفعل ، ولم يجرؤ القندلفت المسكين ان يفصح عن الم بالسعال أو التأوه حين استوى القوزاقى الثقيل فوق رأسه أو كاد ، ووضع كل فردة من فردتى حذائه المتجمد على جانب وجهه .

ودخل الحداد الكوخ دون ان ينطق بكلمة واحدة أو يخلع قبعته، وهوى على الأريكة أو كاد ، وقد لاح للأنظار انه ثائر منفعل الى أقصى حد .

وما ان همت سولوخا باغلاق الباب وراءه حتى طرق طـارق الباب مرة أخرى ، وكان الطارق هو القوزاقى سفير بيجوز ، ولم يكن من المستطاع اخفاء الرجل فى كيس ، فقد خـلا المكان كله من كيس كبير يسع هذا الرجل الذى كان اضخم من شيخ القرية وأطول من باناس جارشوب ، فقادته سولوخا الى حديقة الخضر لتسمع منه كل ما كان يريد ان يقصه عليها .

واخذ الحداد يقلب الطرف شارد الفكر فى انحاء كوخه ، منصتا بين الفينة والفينة الى أصوات المنشدين تنساب بعيدا مجتـــازة القرية ، واستقرت عيناه آخر الأمر على الأكياس « ما بال هـــذه الأكياس ملقاة هنا ؟ لقد كان من الواجب ان تنقل من هذا المكان منذ وقت طويل ، لقد سلب هذا الحب الطائش منى اللب ، وجعلنى كالأبله سواء بسواء ، فان غدا لعيد الميلاد ولا تزال النفايات من كل نوع باقية فى الكوخ ، لأنقلنها الى الدكان ! »

وانحنى الحداد من فوره على الأكياس الضخمة وربطها ربطا محكما وتأهب لرفعها على كتفيه ، على ان فكره كان قد شرد فيما يظهر، ولا يعلم الا الله أين شرد ، ولا سمع كيف راح شوب يلهث عندما التف بشعر رأسه الخيط الذى كان الكيس مربوطا به ،

وكيف شرع شيخ القرية البدين في الفواق بصوت واضح كل الوضوح.

وكان الحداد يقول : « اما من حيلة تخرج اوكسانا الشقية من راسي ؟ لا اريد ان أفكر فيها ، ولكني لا انقطع عن التفكير فيها ، ويشاء الحظ الا افكر الا فيها ، ترى ما بال الأفكار تتسلل الى رأسي بالرغم مني ؟ يا للعنة ! يخيل الى ان الاكياس قد ازدادت ثقلا عما كانت عليه ، ولاشك ان شيئا آخر غير الفحم قد وضع فيها ، يا لى من أحمق ! لقد نسيت ان كل شيء يبدو لى الآن اثقل مما كان ، وكنت في سالف الأيام أستطيع ان أثني قطعة نحاسية من النقود اوحدوة حصان بيد واحدة ، أما الآن فلااستطيع ان ارفع بعض أكياس الفحم ، ولعل الريح تحملني من بعد » ، ثم صاح مستجمعا أطراف شجاعته بعد ان سكت لحظة : « كلا ! لست جبانا ! لن ادع مخلوقا يسخر مني ! لو ان امامي عشرة اكياس كهذه لرفعتها جميعا » ، ورفع بخفة الكيسين اللذين كان ينوء بحملهما رجلان قويان ووضعهما على كتفيه ، ثم مضى يقول وهو يتناول الكيس الصغير الذي انكمش الشيطان قابعا فيه : « لأحملن هذا ايضا ، فانني لأحسب انني وضعت فيه ادواتي » ، وما ان فرغ من قوله هذا حتى غادر الكوخ وهو يصفر لحن الأغنيـة : « لن تطيب لى الحياة مع اية زوجة ! »

واخذ الغناء والضحك والصياح يعلو ثم يعلو في طرقات القرية ، وزاد القادمون من القرى المجاورة في جماهير القوم المتزاحـمة المتدافعة ، وامتلأت جعبة الفتيان بما فيها من معاكسات ودعابات حمقاء ، وما اكثر ما كانت تنبعث من بين اناشيد الكوليادكي أغنية مرحة يهتف بها شاب من شباب القوزاق على البديهة ! وتنطلق فجأة عقيرة واحدة من الجماعة بأنشودة يحيى بها السنة الجديد بدلا من انشودة عيد الميلاد صائحا بأعلى صوته :

ها هو ذا عيد الميلاد يولى !
فلا تدخروا شيئا !
وجودوا علينا بكعكة او فطيرة !
او طأس من العصيدة !
او حبل من المقانق !

وكان هذا الماجن يكافا بعاصفة من الضحك ، وتفتح النوافذ على مصاريعها وتمتد يد ذابلة لامراة عجوز بواحد من الفانق أو بقطعة من الفطير « ذلك انه لم يك يبقى فى الأكواخ الا عجائز النســاء والآباء من اهل الرزانة والوقار » ..

وكان الفتيان والفتيات ينافس بعضهم بعضا فى فتح اكياسهم وتلقى غنائمهم ، ويجتمع الفتيان من كل حدب وصوب فى صعيد واحد يحيطون بجماعة من الفتيات فيعلو صخبهم ويرتفع ضجيجهم ، وكان أحدهم يلقى كرة من الثلج ويخطف آخر كيسا مليئا بأطايب المأكولات على اختلاف اشكالها ، وراحت الفتيات فى مكان آخــر يقبضن على فتى ويدفعنه فينكفىء على وجهه هو وكيسه فى الجليد، وبدا أن الجميع كانوا على استعداد للمرح طوال الليل ، فقد كانت الليلة رائعة كل الروعة ! وقد تجلى ضوء القمر وزاده بريق الجليد تألقا .

ووقف الحداد باكياسه لايبدى حراكا ، وخيل اليه انه سمع بين زحمة الفتيات صوت اوكسانا وضحكتها الرنانة فأخذ كل عرق فيه ينبض ، وألقى بالأكياس على الأرض فتأوه القندلفت الذى كان يقبع فى قرار احدها مما ناله من رضوض وفاق شيخ القرية فواقا عاليا، ثم سار الحداد متمهلا والكيس الصغير على كتفيه صحبة طائفة من الفتيان يلاحقون جمهرة من الفتيات سمع بينهن صوت أوكسانا .

« اجل انها هى ! وقد وقفت كالملكة وعيناها السوداوان تتألقان، وراح فتى وسيم يلقى على مسامعها شيئا ، ولابد ان هذا الشىء يبعث على الضحك لأنها تضحك ، بيد انها تضحك دائما » ، ولم يدر الحداد كيف شق طريقه وسط زحمة الناس ووقف الى جوارها ، وان كان فى هذا من قلة الفطنة ما فيه .

وقالت الحسناء والابتســامة التى سلبت لب فاكولا او كادت لاتزال تداعب شفتيها ، « آه انت هنا يا فاكولا ! طاب مساؤك هل اصبت الكثير لقاء أناشيدك ؟ وى ! ما اصغر الكيس الذى تحمله! أو جئت بالخف الذى تلبسه القيصرة ؟ ائتنى بالخف اتزوجك!» ، ثم ضحكت وجرت مع الفتيات الأخريات .

ووقف الحداد كانما سمر فى مكانه ، ثم غمغم آخر الأمرقائلا :

« كلا ، لا استطيع ان اجتمل هذا ، فانه فوق طاقتي ، ولكن ، يا الهي ! لم وضعت فيها هذه الفتنة الطاغية ؟ ان عينيها وكلماتها وكل ما فيها يلسعني لسعا ، اى والله يلسعني ، كلا لا استطيع ان اتمالك نفسي ،وقد آن لي ان اضع حدا لكل هذا ، الا فلتحل بي اللعنة ! ولاذهبن واغرق نفسي في فجوة بين الثلوج ، وعندئذ ينتهي الأمر كله ! »

ثم سار في خطا حازمة ولحق بجماعة الفتيات حتى وقف بحذاء اوكسانا ، وقال في صوت ينم عن العزم : « وداعا يا اوكسانا ! ولتبحثي لك عن اي حبيب شئت ، واسخرى بمن شئت ، اما انا فلن يقع على بصرك مرة أخرى في هذا العالم » .

وبدت الدهشة على الحسناء ، وهمت بأن تقول شيئا لولا ان الحداد مضى مهرولا وهو يلوح بيده .

وصاح الفتيان وهم يرون الحداد يجرى : « الى اين يا فاكولا؟»

فصاح الحداد مجيبا : « وداعا ايها الفتيان ! اسأل الله ان يكتب لنا اللقاء في العالم الآخر، ولكننا لن نعود للمرح في هذا العالم ، وداعا ! واذكروني بالخير ! وقولوا للأب كوندرات ان ينشد قداسا على روحي الآثمة ، فقد عصيت الله وآثرت عرض الدنيا على انجاز رسم الشموع لأيقونات القديس والعذراء البتول ، وكل ما تجدونه في صندوقي من سلع هبة مني للكنيسة ، وداعا ! »

وما ان فرغ الحداد من قوله هذا حتى انطلق يحمل الكيس .

وقال الفتيان :« لقد ذهب عقله ! »

وغمغمت امرأة عجوز كانت تمر بالمكان في لهجة تنم عن التقى والورع : « نفس ضالة ! ولأذهبن واقول للقوم : ان الحداد قد شنق نفسه ! »

وكان فاكولا في هذه الأثناء قد توقف ليسترد انفاسه بعد أن جرى مجتازا بعض الطرقات ، وقال يحدث نفسه : « فيم انطلاقي هكذا كأنني فقدت كل شيء ؟ ولألتمسن وسيلة أخرى واحدة ، ولأمضين الى باتسيوك الزابورجاوى ذي الكرش ، فانه يعرف فيما يقال الشياطين جميعا ، ويستطيع ان يفعل مايريد ، أجل لأمضين اليه ، فقد ضلت روحي على كل حال .

وعندئذ أخذ الشيطان يقفز فرحا فى الكيس ، وكان قد قبع فى مكانه وقتا طويلا لا يأتى بحركة ، الا ان الحداد ظن انه لوى الكيس بيده على نحو ما ، فأثار هذه الحركة ، ولم يكن منه الا ان لكز الكيس بقبضته القوية ، وهزه على كتفيه ، ومضى ميمما شطر باتسيوك ذى الكرش .

وكان باتسيوك قوزاقيا زابوروجاويا فى وقت من الأوقات على انه لم يدر أحد : « اطرد من المعسكر أم هرب من زابوروجى من تلقاء نفسه ؟ »

وكان الرجل يقيم فى ديكانكا منذ وقت طويل لعله يبلغ عشر سنوات او خمس عشرة سنة ، فقد راح فى صدر حياته يعيش عيشة الزابوروجاوى القح ، لا يقوم بأى عمل وينام ثلاثة أرباع النهار ، ويزدرد من الطعام قدر ما تحصده ست محاصد ، ويشرب ملء سطل من الفودكا او نحو ذلك فى وقت واحد ، على ان جسمه كان يتسع لهذا كله ، فهو وان لم يكن فارع الطول كان مبسوط الجنبين بعض الشيء ، ثم ان السروال الذى الف أن يرتديه كان من الفضفضة بحيث لايظهر اثر لساقه مهما أفسح فى خطاه ، فاذا سار مجتازا الطريق خيل اليك انه برميل من براميل مقطرى الخمور ، ولعل هذا هو السر فى تلقيبهم اياه بذى الكرش ، وقد عرف القوم جميعا انه ساحر قبل ان يمضى وقت طويل على قدومه الى القرية ، فاذا أصيب احد بمرض استدعى باتسيوك فى الحال ، وكان حسبه ان يهمس ببضع كلمات فتزول عنه العلة ، واذا اتفق أن سيدا جائعا غص حلقه بعظم سمكة بادر باتسيوك فلطمة على ظهره ببراعة حتى يستوى العظم فى مجراه الصحيح دون ان ينال حلق السيد اى اذى ، أما فى السنوات الأخيرة فقلما كان باتسيوك يشاهد فى اى مكان وربما كان السبب فى ذلك هو الكسل ، او ربما كان الرجل يجد مشقة عاما بعد عام فى ان يضغط جسمه ضغطا حتى يستطيع أن يخرج من الباب ، واضطر الناس منذ عهد قريب ان يقصدوه اذا كانوا فى حاجة اليه .

وفتح الحداد الباب فى شيء من التهيب فرأى باتسيوك يجلس متربعا على الأرض أمام برميل صغير عليه طاس من لقيمات القاضى ،

وكان هذا الطاس فى مستوى فمه ، كأنما وضع فى هـذا الموضع عن قصد ، وكان يحني راسه قليلا تجاه الطـاس دون ان يحرك اصبعا ثم يرتشف المرق ، ويمسك لقيمات القاضى بين اسنانه من حين الى حين .

وقال فاكولا بينه وبين نفسه : « وى ، ان هذا الرجل لأكسل من شوب نفسه ، ذلك ان شوب يأكل بملعقة ، اما هو فيكسل ان يرفع يده ! »

وما من شـــــك ان باتسيوك قد شغلته لقيمات القاضى حتى استحوذت على تفكيره ، فقد بدا عليه انه لم يتـنبه اطـلاقا الى دخول الحداد الذى انحنى له انحناءة كبيرة بمجرد أن وطئت قدمه عتبة الدار .

وقال فاكولا وهو ينحنى مرة اخرى : « لقد جئت التمس منك فضلا يا باتسيوك » .

ورفع باتسيوك البدين راسه ، وعاد مرة أخرى يزدرد لقيمات القاضى .

وقال الحداد وقد استجمع أطراف شجاعته : « يقول الناس عنك ـ وانا لا اقصد بذلك الاساءة ـ اجل اقول هذا ولم يخطر ببالى قط ان اسىء اليك ـ انك تمت بصلة من القربى للشيطان » .

وروع فاكولا اذ نطق بهذه الـكلمات ، فقد ظن انه عبر عن نفسه تعبيرا جافيا فظا ولم يهذب لفته تهذيبا كافيا ، وتوقع أن يتناول باتسيوك البرميل والطاس جميعا ويقذف بهما فى وجهه لايلوى على شىء ، فتنحى قليلا وغطى وجهه بردنه حتى لايصيبه رشاش من مرق لقيمات القاضى الســـــاخن ، الا ان باتسيوك رفع عينيه وعاد يلتهم لقيمات القاضى من جديد .

وتشجع الحداد وصح عزمه على ان يمضى فى حديثه .

« لقد جئت اقصدك يا باتسيوك ، متعك الله بـكل شىء ورزقك من الأطايب على اختلاف اشكالها الـكثير ، ومن الخبز ما يناسب هذا القدر! » « وكان الحداد يستطيع أحيانا ان يتألق فى عبارته : وقد الف هذا خلال اقامته فى بلتاوة عندما كان ينقش سور الضابط» « انى لا أجد أمامى انا المذنب الا الخراب ، وليس لى فى هـذا

العالم من معين ولا نصير ! وليكن ما يكون فانى لا أجـد مناصا من التماس العون حتى من الشيطان نفسـه » ثم مضى الحداد فى قوله اذ راى باتسيوك لايزال مخلدا الى الصمت : « أى باتسيوك ، ما عسى ان أصنع ؟ »

فأجابه باتسيوك وهو ماض فى التهام لقيمات القاضى دون ان يرفع بصره : « اذا كنت فى حاجة الى الشيطان فاذهب اليه » .

فقال الحداد وهو ينحنى له انحناءة اخرى : « وهذا هو ماحدا بى الى القدوم اليك ، فانى اعتقـد انه ما من مخلوق فى العالم يعرف الطريق اليه سواك »

ولم ينبس باتسيوك ببنت شفة بل اتى على مابقى من لقيمـات القاضى .

والحف الحداد فى طلبه قائلا : « اشملنى بفضلك ايها الرجـل الصالح ولا ترفض طلبى ! ولن ابخل عليك اذا دعت الحاجة ولكن شيمتنا فى ذلك ماجرى عليه كرام القوم ، ولك ماشئت من لحم الخنزير او المقانق او دقيق الحنطة السوداء أو الدقيق الأبيض أو الكتان أو الدخن ، فقل لى على الأقل كيف التمس الطريق الى الشيطان ؟ »

وقال باتسيوك فى غير ما اكتراث وهو ملازم مكانه : « ان من يحمل الشيطان على كتفيه لايذهب بعيدا فى طلبه ! »

وتعلقت انظار فاكولا بالساحر كأنما كان تفسير هـذه الـكلمات مسطورا على جبينه ، وبدت على وجه فاكولا سيماء من يتساءل فى صمت : « ترى ماذا يعنى ؟ » ، وفتح فمه متأهبا لالتقـاط اول كلمة ينطق بها الساحر كما يزدرد لقمة القاضى .

ولـكن باتسيوك كان قد اخلد للصمت .

ثم لاحظ فاكولا انه لم يكن امام الساحر برميل ولا لقيمات قاض، وانما كان يقوم على الارض بدلا منهما طاســــان من الخشب : احدهما مملوء بالفطائر المحشوة بالجبن والآخر مملوء بالقشـدة ، وتعلقت عينا فاكولا وافكاره بهذه الأطايب على غير وعى منه ، وراح يحدث نفسـه قائلا : « لنر الآن كيف يأكل باتسيوك هذه الفطائر ، ولاشك ان الامر لن يقتضيه أن ينحنى ليأتى عليها كما فعل بلقيمات

القاضي ، وما كان ليستطيع لو اراد ، فقد كان عليه ان يغمسها اولا فى القشدة »

وما ان مر بذهنه هذا الخاطر حتى فتح باتسيوك فمه ، ونظر الى الفطائر ، ثم ازداد فمه اتساعا ، وفى تلك اللحظة قفزت فطيرة من الطاس وانحطت فى القشدة ثم انقلبت على وجهها الآخر ثم قفزت الى اعلى ، وطارت مندفعة الى فمه راسا ، واتى باتسيوك عليها ، ثم فتح فمه من جديد ، وسلكت فطيرة اخرى هذا المسلك نفسه ، ولم يك باتسيوك ليتحمل من المشقة الا مضغ الفطيرة وازدرادها .

وقال الحداد يحدث نفسه : « بالله ! اى عجيبة هذه ؟ » ، وفغر فاه دهشة وفى اللحظة نفسها ادرك ان فطيرة تنطلق فى طريقها الى فمه هو وقد لطخت شفتيه بالقشدة فعلا ، فدفع الفطيرة عنه، ومسح شفتيه ، ثم راح يفكر فى العجائب التى يحفل بها هذا العالم وما يتوصل به الشيطان من مكر ودهاء ليضل الانسان عن سواء السبيل ، محدثا نفسه بأنه ما من احد يستطيع مساعدته الا باتسيوك .

« سأنحنى له مرة اخرى ، لعله يفصح عما يبطن .. وى لبئس الشيطان ! ان اليوم يوم صيام ومع ذلك فهو يأكل الفطائر! يا لى من غبى حقا ! اقف هنا واهم بارتكاب المعصية ! » ، واندفع الحداد الورع لساعته خارجا من الكوخ لايلوى على شيء .

على ان الشيطان الذى كان قابعا فى الكيس يحدق فى فريسته لم يكن يستطيع ان يدع هذا الصيد الثمين يفلت من بين يديه فما ان وضع الحداد الكيس على الأرض حتى انفلت الشيطان منه وركب عنقه .

وسرت رعدة باردة فىجسم الحداد، وامتقع لونه، وانتابه الخوف، ولم يدر ماذا يفعل ، وهم بأن يرسم اشارة الصليب الا انالشيطان ادنى انفه الذى يشبه انف الكلب من اذن فاكولا اليمنى وقال : « اننى انا صديقك ، ولن ادخر شيئا فى سبيل صديق وزميل!» ، ثم هتف فى اذنه اليسرى قائلا : « لأعطينك من المال ما تشاء » ، ومال بأنفه على اذن الحداد اليمنى مرة اخرى وهمس قائلا :

« لتكونن اوكسانا من نصيبك فى هذا اليوم بالذات » .

ووقف الحداد ساكنا لايبدى حراكا وقد استغرق فى التفكير.

ثم قال آخر الأمر : « مرحى ، مرحى ، اذا كان هذا هوالثمن فانى مستعد أن اكون طوع بنانك ! » .

ولوح الشيطان بيديه ابتهاجا ، وراح يقفز على عنق الحدادصاعدا هابطا ثم قال بينه وبين نفسه : « والآن قد قضى على الحداد ! ولأجزينك الآن على كل ما رسمته ريشتك من صور، وعلىكل ما رويته من قصص قذفت بها فى حق الشياطين ! ترى اى حديث يدور بين رفاقى حين يعلمون بأن أتقى رجال القرية جميعا قد وقع فى قبضة يدى ! »

وضحك الشيطان فرحا مسرورا وهو يفكر فيما أتيح له من تعبير زبانية الجحيم الطوال الذنب جميعا ، وكيف ان الغضب سوف يشتد بالشيطان الأعرج الذى كانوا يعدونه أدهى الشياطين طرا .

وصاح الشيطان وهو يتشبث بعنقه كأنما كان يخشى أن يهرب : « اى فاكولا ، انك لتعلم انه ما من أمر يبرم بغير عقد » .

فقال الحداد : « اننى لعلى استعداد ! وقد علمت ان العقود فى شريعتكم تمهر بالدم ، فصبرا ، ولأخرجن من جيبى مسمارا » .

وعندئذ وضع يده خلفه وأمسك الشيطان من ذيله .

فصاح الشيطان وهو يضحك : « انك لبارع فى الدعابة ! هلم ، ودعنى وشأنى ، فحسبك ما الحقته بى من أذى ! » .

وصاح الحداد :« اصبر قليلا ياصديقى ! مارأيك فى هذا ؟» ، وما أن فرغ من قوله حتى رسم اشارة الصليب فاذا بالشيطان يصبح فى وداعة الحمل ، ثم قال الحداد وهو يجذبه من ذيله الى الأرض : « اصبر قليلا ولأعلمنك كيف توقع بالصالحين والمسيحيين الصادقين فى المعصية ! »

وهنا قفز الحداد واعتلى ظهر الشيطان منفرج الساقين ورفع يده ليرسم اشارة الصليب .

فتأوه الشيطان مستجيرا : « الرحمة يا فاكولا ! ولأفعلن كل ما تريد ، أى نعم كل ما تريد ، فابق على حياتى ولا ترسمن اشارة الصليب المهلكة ! » .

« آه ! أهكذا تتغير لهجتك أيها الألماني الملعون ! اني لأعرف الآن ما سأصنع بك ، احملني على ظهرك في الحال ! اتسمعني ؟ وطر كما يطير العصفور ! » .

وسأله الشيطان الحزين : « الى اين ؟ » .

«الى بطرسبرج ، الى القيصرة راسا ! » ، وكاد الحداد يغشى عليه من الرعب ،اذ أحس بأنه يشق أجواز الفضاء .

وقفت اوكسانا وقتا طويلا تفكر في الكلمات الغريبة التي فاه بها الحداد : وانبعث من اعماقها هاتف يقول لها : « انها قست عليه فأمعنت في القسوة ، وماذا يكون لو صح عزمه على ان يرتكب امرا ادا ؟ لست اعجب ان هو فعل ! ولعل حزنه يؤدي به الى الوقوع في هوى فتاة أخرى ، فيدعوها في غضبه أجمل الجميلات في القرية ، ولكن كلا ، فهو يحبني وقد بلغت الغاية في الحسن والبهاء ! لن يهجرني لأي سبب ، وانما هو يتحايل ويتظاهر، ولن تنقضي عشر دقائق حتى يعود ليراني ، اجل ، اني لقاسية حقا بل ممعنة في القسوة ، ويجب أن أدعه يقبلني كما لو كان يفعل ذلك على الرغم مني ، أفلا يسر ويرضى بذلك ؟ » . وعادت الحسناء العابثة الى المزاح مع أترابها .

وقالت احداهن : « صبرا ، فقد نسي الحداد كيسيه ، الا ما ابشعهما من كيسين كبيرين ! لقد جمع من انشاده اناشيد عيد الميلاد اكثر مما جمعنا ، ويخيل الى ان القوم قد وضعوا له ربع شاة في كل منهما ، ولا اشك انهم دسوا له أيضا عددا لايحصى من المقانق والأرغفة ، مرحى ! لسوف يتوافر لنا ما يكفي الاحتفال بأسبوع عيد الميلاد كله » .

وسألت اوكسانا : « هل هذان الكيسان للحداد ؟ اذن فلنعجل بجرهما الى كوخي ولنمعن النظر فيما وضعه فيهما » .

ووافقت الفتيات جميعا على هذا الاقتراح ضاحكات .

وصاحت لمة الفتيات كلهن وهن يحاولن نقل الكيسين : « ولكننا لا نستطيع رفعهما ! »

فقالت اوكسانا : « انتظرن لحظة ، ولنمض في طلب زلاقة ثم ننقلهما عليها ! » . وجرت الفتيات باحثات عن زلاقة .

وكان الأسرى قد ضاقوا ذرعا ببقائهم فى الكيسين ، وان كان القندلفت قد ثقب ثقبا كبيرا يختلس منه النظر ، ولو قد خلا المكان من الناس لاستطاع ان يتسلل من الكيس ، ولكن التسلل من كيس امام الجميع خليق بأن يجعله اضحوكة القوم .. وهذا هو ما حال بينه وبين تنفيذ ما يريد ، وصح عزمه على ان ينتظر، ولم يكن منه الا ان تأوه فى صوت خافت تحت وطأة حذاء شوب الثقيل !..

ولم يك شوب نفسه اقل رغبة منه فى الحرية ، وهو يحس بأن شيئا تحته لايستطاب الجلوس عليه ابدا ، فما ان سمع ما دبرته له ابنته حتى ارتاح باله ، واستقر رايه على ان يكف عن محاولة التسلل من الكيس ، معتقدا ان المسافة بينه وبين كوخه لا تقل عن مائة خطوة او قل عن مائتى خطوة ، فان هو اقدم اقتضاه ذلك ان يصلح من شأنه ويزرر معطفه المصنوع من جلد الماعز ويثبت حزامه ، ويا للمشقة التى سوف يعانيها من ذلك ! ثم تذكر ايضا انه ترك قبعته فى كوخ سولوخا اذن فلتجره الفتيات الآن فى الزلاقة .

على ان الأمور جرت على غير ما يحب ويشتهى ، ففى اللحظة التى جرت فيها الفتيات ليبحثن عن الزلاقة خرج من الحانة جاره النحيل باناس مضطرب الأعصاب ثائر النفس ، ذلك ان صاحبة الحانة ابت ان تقدم له شيئا من الخمر على الحساب ، وفكر الرجل فى البقاء فى الحانة راجيا ان يأتى سيد كريم يتحفه بكأس ، ولكن شاء سوءحظه ان يلزم السادة جميعا منازلهم ويأكلوا الأرز والشهد فى احضان اسرهم ، كما يفعل المسيحيون الصالحون ، وخرج باناس من الحانة وهو يفكر فيما اصاب اخلاق الناس من انحلال وما اتصف به قلب اليهودية صاحبة الحانة من قسوة وغلظ ، ثم وقع على الكيسين فوقف مشدوها .

وقال وهو يتلفت حوله : « يا للكيسين اللذين يلقى بهما شخص فى الطريق ! يقينى ان فيهما شيئا من لحم الخنزير ، ومن حسن الطالع ان يجمع هذا المنشد لأناشيد عيد الميلاد هدايا كثيرة كهذه من جميع الألوان ، ياللكيسين! وهب انهما حافلان بالكعك والبقسماط المصنوع من الحنطة السوداء فحسب فانهما جديران مع ذلك بأن استولى عليهما ، ولو قد اقتصروا على الأرغفة لرحبت بذلك ايضا،

فان اليهودية لخليقة بان تعطينى كاسا من الفودكا عن كل رغيف ، يجب أن أسرع بنقلهما قبل ان يراهما أحد » .

ولفع على كتفه الكيس الذى كان فيه شوب والقندلفت ولكنه احس بثقله الشديد ، فقال : « كلا ، انه لأثقل من ان يستطيع رجل واحد حمله ، وها هو ذا شابوفالنكو النساج قد اقبل لحسن الحظ ، طاب مساؤك يا اوستاب ! » .

فقال النساج وهو يتوقف : « طاب مساؤك » .

« الى أين انت ذاهب ؟ »

« حيث تقودني خطاى » .

« اعنى على حمل هذين الكيسين ايها الرجل الصالح ! لقد كان بعضهم ينشد اناشيدعيد الميلاد، والقى بهما فى الطريق ، ولنقتسم ما فيهما مناصفة » .

« كيسين ؟ وماذا فيهما ؟ ارغفة بيضاء ام ماذا ؟ » .

« اعتقد ان فيهما أشياء من كل لون » .

واسرعا فانتزعا بعض العصى من السياج ، ووضعا عليها كيسا من الكيسين وحملاه على اكتافهما .

وسأل النساج وهما فى الطريق : « الى أين نمضى به ؟ الى الحانة ؟ »

« هذا ما كنت أفكر فيه ولكن اليهودية الملعونة لن تثق بنا ، ولسوف يذهب بها الظن الى اننا سرقناه من مكان ما ، ثم اننىقادم لتوى من الحانة ، فلنمض به الى حيث كوخى ، ولن يقف فىسبيلنا احد هناك ، فان زوجتى قد بارحت الدار » .

وسأله النساج الحذر : « اواثق انت انها ليست فى الدار ؟ »

فقال باناس : « اننى والحمد لله لم اصل بعد الى حد البلاهة ، وانما الشيطان وحده هو الذى يستطيع ان يقذف بى الى حيث تكون ، وانى لأحسب انها ستتجول مع النساء الآخريات حتى مطلع الفجر » .

وسمعت زوجة باناس الضوضاء الصادرة عن الرجلين والكيس فى الغرفة الخلوجية ، ففتحت الباب وهتفت : « من هناك ؟ » ، وعقلت الدهشة لسان باناس .

وقال النساج فى يأس : « ها نحن أولاء قد وقعنا فى مأزق » .

وكانت زوجة باناس كنزا من ذلك النوع الذى لايعز عليك ان تجد له مثيلا فى هذا العالم ، وكانت كزوجها لا تلزم الدار الا نادرا ؛ وتمضى فى كل يوم تقريبا لزيارة بعض صويحباتها وعجائز النساء الثريات ، تتملقهن وتأكل « بشهية » عظيمة على حسابهن ، ولم تك تتشاجر هى وزوجها الا فى الصباح ، فقد كانت لاتراه أحيانا الا فى هذا الوقت ، وكان كوخهما اقدم بكثير من سروال كاتب الناحية او قل يزيد عنه فى العمر ضعفين ، وكانت بعض المواضع من سقفهما المعرش بالجريد خالية من القش ، ولا ترى من سياج الكوخ الا بقايا ، فقد كان كل من يخرج من داره لايرى حاجة تدعوه الى حمل عصا يطرد بها الكلاب ، وحسبه ان يمر بحديقة الخضر من كوخ باناس فينتزع عصا من سياجه . وكان الموقد يظل ثلاثة أيام متصلة بلا أحماء ، وكلما أصابت الزوجة الحنون شيئا من فيض ايدى المسيحيين الصالحين اخفته ما وسعها بعيدا عن متناول زوجها .

وكثيرا ما كانت تصطنع الخلاعة والمعابثة لتحرمه ما يكسب اذا لم يتسع لها الوقت لانفاقه على الشراب ، ولم يك باناس بالرغم مما عرف عنه من احتشام ورزانة يحب ان يرضخ لها ، فكان يغادر داره كل يوم تقريبا وقد اسود ماحول عينيه الاثنتين ، فى حين كانت شريكة حياته تتنهد وتتأوه ثم تنطلق لتخبر عجائز النساء بسوء خلق زوجها ، وما كاله لها من ضربات لم تجد بدا من التجاوز عنها .

ولتتخيل ايها القارىء مقدار ما أصاب النساج وباناس من حيرة لظهور المرأة المفاجىء ، والقى الرجلان بالكيس ووقفا أمامه وعمدا الى اخفائه باطراف معطفيهما ، ولكنهما كانا قد تأخرا كثيرا ، ذلك ان زوجة باناس لمحت الكيس بالرغم مما أصابها به الكبر من ضعف فى البصر .

وقالت ووجهها ينم عن فرح كفرح الصقر : « مرحى ، مرحى ! وجميل منكما ان تكونا قد جمعتما هذا الخير الكثير بانشاد أناشيد عيد الميلاد ! وهكذا حال المسيحيين الصالحين دائما ، ولكن كلا ، فانى لأحسب انكما سرقتماه من مكان ما ، ارياني الكيس فى الحال.

أتسمعان ؟ أرياني في التو والساعة ! » .

وقال باناس وهو يتظاهر بالوقار : « ليرينك الكيس الشيطان الأصلع ، اما نحن فلا »

وقال النساج : « وما شأنك بالكيس ؟ اننا نحن اللذان انشدنا الكوليادكي لا أنت ! »

وصاحت الزوجة وهي تضرب زوجها الطويل القامة على ذقنه بقبضة يدها وتقتحم طريقها اقتحاما الى الكيس : « بل سترينى الكيس أيها السكير الشقى ! » ، الا ان النساج استبسل هو وباناس في الدفاع عن الكيس واكرهاها على الارتداد ، على ان الزوجة هرعت اليهما وفي يدها محراك النار قبل ان يستردا انفاسهما ، وضربت به زوجها في مهارة على ذراعيه ، ثم ضربت النساج ضربة على ظهره ، وبلغت الكيس .

وقال النساج وقد افاق مما اصابه : « لم تركناها تصل اليه؟» .

وقال باناس في برود : « لم تركناها تصل اليه ؟ بل لم تركتها انت ؟ » .

واخلد النساج الى الصمت برهة ثم قال وهو يحك ظهره : «لاشك ان محراك نارك مصنوع من الحديد ! لقد اشترت زوجتى محراكا من السوق في العام الماضى ، ودفعت خمسة وعشرين كوبكا ثمنا له ، ولكن ذلك المحراك لا ضرر منه ، فهو لايؤلم » .

وفي هذه الأثناء وضعت الزوجة الظافرة السراج المتخذ من الخزف على الأرض ، وفكت الكيس واختلست النظر اليه ولكن عينيها الواهنتين اللتين لمحتا الكيس من قبل خدعتاها هذه المرة ولا شك .

فصاحت مصفقة بيديها في فرح وسرور : « آه ان خنزيرا كاملا يقبع في هذا الكيس ! »

ولكز النساج باناس قائلا : « خنزير ! هل سمعت ؟ خنزير كامل ! وانك لمسئول عن هذا الخطأ كله ! » .

وأجاب باناس وهو يهز كتفيه : « لا حيلة في الأمر ! » .

فصاح النساج وهو يخطو الى الأمام : « أجل ، لا حيلة في الأمر! ففيم الانتظار؟ ولنمضين بالكيس ! هلمى بنا ، اغربي عنا ! فالخنزير خنزيرنا ! » .

وقال باناس وهو يدنو منها : « اذهبي ، اذهبي ايتها المرأة الشيطانة ! فان هذا الكيس ليس ملكك ! » .

وتناولت زوجته محراك النار مرة اخرى ، ولكن شوب تسلل من الكيس فى تلك اللحظة ، ووقف وسط الغرفة وراح يتمطى كما يفعل المرء اذ يستيقظ لتوه من نوم طويل ، وصرخت زوجة باناس، ووقفوا جميعا فاغرين افواههم .

وقال باناس وهو يحدق النظر وقد اتسعت حدقتاه : « ما بال هذه المرأة الحمقاء تقول انه خنزير ؟ انه ليس بخنزير » .

وقال النساج وهو يترنح مرتدا الى الوراء فى ذعر: « يا الهى ! ويا للرجل الذى سقط فى الكيس ! الا فلتقل ما تشاء ولتنفجر ان شئت فما من ريب ان للشيطان الزنيم يدا فى ذلك ، وى ! ان الشيطان لايأتى من النوافذ ! » .

وصاح باناس وهو يدقق النظر: « انه شوب ! » .

وقال شوب ضاحكا : « ومن يكون سواه؟ مرحى ، الم اخدعكم خدعة بارعة ؟ لاشك عندى فى انكم كنتم تنوون ان تأكلونى ظانين اننى خنزير من الخنازير! فاصبروا لحظة أعوضكم عما فاتكم ، فان فى الكيس شيئا آخر ، ان لم يك خنزيرا بأكمله ، فهو بلا ريب حلوف صغير أو حيوان آخر من الحيوانات الحية ، فقد ظل شيء يتحرك من تحتى » .

واندفع النساج وباناس الى الكيس ، وتشبثت ربة البيت بالطرف الآخر منه ، وربما كان التنازع عليه خليقا بأن يتجدد لولا ان القندلفت ادرك انه لم يعد له أمل بعد فى الاختفاء ، فتسلل من الكيس بمحض ارادته .

وذهلت المرأة فتركت الساق التى كانت قد بدأت تجر منها القندلفت الى خارج الكيس .

وقال النساج فى فزع : « هاكم رجلا آخر من الزمرة ! ان الشيطان ليعلم ماذا دها العالم ! لقد اختلط عقلى ، وكيف بى والرجال يوضعون فى الاكياس بدلا من الأرغفة أو المقانق ؟ » .

وقال شوب ، وقد زادت دهشته عن الآخرين : «انه القندلفت! وى ، وى ! ما أبرعك ياسولوخا ! تضعين رجلا فى كيس ! لقد

ظننت وقتئذ ان كوخها زاخر بالأكيـاس والآن أدركت الحقيقة ، لقد كانت تخفى كل رجلين فى كيس ! وكنت اظن اننى الوحيـــد الذى ... يا لها من أمراة ! » .

وتملك الفتيات شيء من الدهشة عندما وجدن ان أحد الكيسين قد اختفى .

وهتفت اوكسانا : « لا حيلة فى الأمر ، وحسبنا هذا الكيس» .

ورفعت الفتيات الـكيس والقينه على الزلاقة .

واسـتقر راى شـيخ القرية على التزام الهدوء ، وقال يحدث نفســه : « انه لو أهاب بهن ان يحللن الكيس ويخرجنه منه لهربت الفتيات الحمقاوات ، ظنا منهن ان الشيطان هو الذى قبع فيه ، وظل وهو ملقى فى الطريق حتى يجيء اليوم التالى . ولم تلبث الفتيات أن طرن بالزلاقة متشابكات الأذرع ، كالعاصفة تجتـــاح الجليد المقرقع ، وجلست كثيرات منهن على الزلاقة طلبا للمتعة ، بل تسلق بعضهن واستوين على رأس شـيخ القرية ، وصح عزم الشيخ على ان يتحمل كل شيء .

ووصلن آخر الأمر الى الكوخ ، وفتحن الباب المؤدى الى الغرفة الخارجية و جررن اليها الـكيس ضاحكات .

وصحن جميعا معجلات بفتحه : « فلنر ما فيه ! » .

وفى تلك اللحظـــة زاد الفواق الذى يعـذب الشيخ شـــدة على شدة ، حتى أخذ صوته يعلو بالفواق والسعال جميعا .

وصرخت الفتيات مبتعدات فى فزع : « آه ، ان ثمة شخصـا يقبع فى الـكيس ! »

وقال شوب وهو يدخل عليهن : « ما بالكن ؟ لماذا تجرين كأنما أصابكن جميعا مس من الشيطان ! » .

وصاحت اوكسانا : « آه يا أبت ! ان فى الكيس رجلا ! » .

« فى الكيس ؟ من اين جئتن بالكيس ؟ » .

فقلن جميعا على الفور : « لقد تركه الحداد فى الطريق » .

وراح شوب يحـدث نفســـه قائلا : « اذن هــذا هو السر ؟ ألم أقل هذا ؟ » .

« ما يخيفكن ؟ فلنلق نظرة عليه ، هيا أيها الرجل ، وأرجو الا

يسوءك اننا لا نخاطبك باسمك اللائق ، هلم ولتخرجن من الكيس زاحفا ! » .

وفعل شيخ القرية ذلك .

وصرخت الفتيات « آه ! » .

وقال شوب يحدث نفسه وقد انتابه الذهول وهو يتفرس فى الشيخ من قمة راسه الى اخمص قدميه : « اذن فقد اندس الشيخ فى كيس أيضا ! مرحى ، مرحى ! » ، ولم يزد

ولم يك شيخ القرية نفسه باقل حيرة منه فلم يعرف كيف يبدأ الحديث .

ثم قال موجها الخطاب الى شوب : « اظن ان الليلة باردة » .

فأجاب شوب : « لقد الم بالجو شىء من الصقيع ، ولكن اسمح لى أن أسالك بماذا تطلى حذاءك ، أبدهن الأوز أم بالقطران ؟ » ، ولم يك شوب يقصد أن يسأل هذا السؤال ، بل كان يريد ان يقول : « كيف اندسست فى هذا الكيس أيها الشيخ ؟ » ولأمر ما سأل سؤالا مختلفا عن ذلك كل الاختلاف .

وقال الشيخ : « القطران أفضل ، طابت ليلتك ياشوب » ، وشد قبعته على راسه وغادر الكوخ .

وقال شوب ، وهو ينظر الى الباب الذى خرج منه شيخ القرية: « ماذا دهانى حتى اسأله بم يطلى حذاءه ؟ الا ما ابرعك يا سولوخا حتى تضعى رجلا كهذا فى كيس ! تالله انها لامرأة شيطانة ! وقد ادت بى غباوتى .. ولكن أين ذلك الكيس الملعون ؟ » .

فقالت اوكسانا : « ألقيت به فى ركن من الأركان ، فقد خلا مما فيه » .

« اننى لأعرف قصته كلها ، ليس فيه شىء حقا ! التى به الى هنا ، أن فيه رجلا آخر، هزيه جيدا ، ماذا وجدت فيه ؟ لاشىء ؟ يا للمرأة الملعونة ! ومع ذلك فانك اذا نظرت اليها حسبتها قديسة لم تذق قط الا طعام الصائمين » .

ولنترك الآن شوب يصب جام غضبه كما يشاء ، ولنعد الى الحداد ، فان الساعة قد جاوزت الثامنة بكثير .

واستبد الخوف بفاكولا أول الأمر ، وخاصة عندما ارتفع عن

الأرض ارتفاعا اعجزه عن أن يرى شيئا مما يقع تحتـــه ، ومضى الفتى يطير كالذبابة يكاد يمس هامتـــه القمر ولو لم ينحن لعلقت قبعته به ، وما ان انقضت فترة وجيزة حتى استعاد ثقته بنفسه، بل بدا يسخر من الشـــيطان ، وكان يطرب كثيرا اذ يرى كيف يعطس الشيطان ويسعل حين يخلع صليبه الصغير المصنوع من خشب السرو من عنقه ويدلى به اليه ، وكان يتعمد رفع يده حتى تحك راس الشيطان ، فيظن الشيطان انه يرسل عليه اشارة الصليب، فيزيد من سرعته فى الطيران وكان الضوء باهرا فى ذلك الارتفاع ، والهواء شفافا تلتف به غلالة فضية رقيقة من الضباب ، وكان كل شىء واضحا للعيان ، حتى ان الفتى استطاع ان يرى مشعوذا يمرق مروق الســهم بجوارهما وهو جالس فى قــدر ، والنجوم تتجمع فى لمة لتلعب لعبة الاستخفاء ، وقد راح حشد كامل من الأرواح يدور فى سحابة مبتعدة عنهما .

واخذ شيطان من الشياطين يرقص فى ضوء القمر ويخلع قبعته حين يرى الحداد يمر به غاذا السير ، وانطلقت مكنسة تطير عائدة الى مقرها ، وكان من الجلى ان ساحرة قد ترجلت عنهـا لتوها بعد أن بلغت مقصدها ، وصادف الفتى هو والشــيطان كثيرا من المخلوقات البشعة ايضـــا ، وكانت جميعها تقف حين ترى الحداد لتتفرس فيه برهة ، ثم تسرع فى طريقها لا تلوى على شىء . وظل الحداد طائرا حتى لاحت له بطرسبورج فجاة وهى تتالق بالانوار « وقد اتفق ان كانت المدينة مضـاءة فى ذلك اليوم » ، واتخذ الشيطان ، وهو يطير فوق باب المدينة ، هيئة الجواد ، ووجد الحداد نفسه يمتطى صهوة جواد أصيل يتقد غيرة وحماسة وهو ماض فى عرض الطريق .

يا الهى ! ما اعجب هـذا الصليل وتلك الضوضاء وذلك النور البـاهر المتالق ! لقد كانت الجدران ترتفع وتقوم على كل جانب منها اربع طبقات ، وكان وقع حوافر الخيل وقرقعة العجلات يتردد صداها ويتجاوب من كل حدب وصوب ، وبدا للأعين ان الأرض تنشق عن المنازل فى كل خطوة ، وكانت الجسور تهتز ، والعربات يستبق بعضها بعضـا وهى تمضى فى طريقهـا ، وسائقوا الزلاقات

وسواس الخيول يصرخون ، والجليد يقرقع تحت وطء الف الزلاقة التيكانت تسرع منجميع الأنحاء ، وكان المارة يتجمعون ويتكأكئون تحت المنازل التى كانت مرصعة بالمصابيح الصغيرة ، فتمرق ظلالهم الضخمة على الجدران حتى تبلغ رءوسهم الأسقف والمداخن .

وتلفت الحداد حوله فى ذهول ، وقد خيل اليه ان المنازلجميعا قد تعلقت به عيونها المتقدة التى لا حصر لها ترقبه ، وراى عددا كبيرا من السادة يرتدون معاطف النسيج فلم يدر من منهم يرفع له قبعته ، وقال يحدث نفسه :« يا الهى ! ما أكثر الأعيانهنا ! انى لأحسب ان كل من يجتاز الشارع فى معطف من الفراء انما هو مساعد قاض يجىء فى اثره مساعد قاض آخر ! اما اولئك الذين يركبونتلك العربات الجميلة ذات النوافذ الزجاجية فهم من العمد او هم بلا شك مأمير او لعلهم فى مركز ارفع » ، وقطع عليه حبل تفكيره سؤال وجهه اليه الشيطان :

« او اذهب راسا الى القيصرة ؟ » .

وقال الحداد يحدث نفسه : « كلا ، اننى لخائف ، فان القوزاق الزابوروجاويين الذين اجتازوا ديكانكا فى الخريف الماضى يعسكرون فى مكان ما هنا ، وقد جاءوا من المعسكر يحملون اوراقا منالقيصرة، فلأسألنهم الراى على كل حال » .

« ايه ايها الشـــــيطان ! ادخل فى جيبى ، وانطلق بى الى الزابوروجاويين ! » —

ولم يلبث الشيطان ان استحال شيئا غاية فى الرفع والصغر حتى انه لم يجد صعوبة ما فى ان يندس فى جيب الحداد ، ووجد فاكولا نفسه قبل ان يتسع له الوقت للتلفت أمام بيت كبير ، وارتقى درجا ، وهو لايكاد يدرى ماذا يفعل ، وفتح بابا ، ثم تراجعقليلا وقد بهره الضوء المتألق ، اذ راى الغرفة الفاخرة الرياش ؛ ولكنه استرد بعض جأشه عندما ابصر الزابوروجاويين الذين اجتـازوا ديكانكا ، وقد استووا الآن علىأرائك فرشت بالحرير ودسوا تحتهم أحذيتهم الملطخة بالقطران ، وراحوا يدخنون أقوى أنواع الطباق .

وقال الحداد وهو يتجه اليهم ، محييـا اياهم بانحناءة كبيرة :

« طاب يومكم أيها السادة ! وليكن الله معكم ، فقد قدر علينا ان نلتقى هنا » .

وسأل الرجل الذى كان يجلس فى مواجهة الحداد تماما صاحبا له على مبعدة منه : « من يكون هذا الرجل ؟ » .

فقال الحداد :« أو لاتعرفنى ؟ اننى انا فاكولا الحداد ، وانى لأذكر انك لك ياسيدى لبثت يومين فى ديكانكا عندما قصدت اليها راكبا جوادك فى الخريف الماضى ، متعك الله بالصحة السابغة ، ومد فى عمرك ! وقد وضعت طوقا جديدا من الحديد على العجلة الأمامية من عربتك » .

فقال ذلك الزابوروجاوى نفسه : « آه ! انه ذلك الحداد الذى يجيد النقش، طاب صباحك أيها الجار! ما الذى جاء بك الى هنا؟» .

وأجاب الزابوروجاوى وهو يشد قامته فى اعتداد بالنفس : « حسنا أيها الجار » ، ثم اردف فى لكنة اوكرانية قوية يريد ان يظهر بمظهر من يستطيع التكلم بالروسية : « حسنا ، انها لمدينة كبيرة ، أليس كذلك ؟ » .

واراد الحداد أيضا ان يثبت علو كعبه فى هذه اللغة حتى لايظهر بمظهر المبتدىء ، ثم انه كان يستطيع هو أيضا ان يتحدث بلغة الكتب على ما مر بنا من قبل .

فأجاب بالروسية ايضا فى غير ما اكتراث : « انها لمدينة عظيمة ! ولا مشاحة فى ان المنازل كبيرة جدا ، كما ان الصور المعلقة متقنة الرسم الى حد عجيب ، وقد زين كثير من المنازل بحروف وشيت بالذهب فى اسراف ، وما من ريب فى ان التناسب بين هذا وذاك رائع » .

وارتفع قدر الحداد فى نظر الزابوروجاويين ، اذ رأوه يفيض فى حديثه هذه الافاضة .

« لنواصلن الحديث معك فيما بعد أيها الجار، ذلك اننا ذاهبون الآن الى القيصرة » .

« الى القيصرة ؟ أفلا تتفضلون أيها السادة وتأخذوننى معكم؟» .

وهتف زابوروجاوى يقول فى لهجة تحاكى لهجة الرجل الناضج وهو يحدث ابنا له فى الرابعة من العمر اذا هو طلب ان يمتطى

صهوة جواد حقيقى كبير : « انت ؟ وما عسى ان تفعل هناك ؟كلا، لا نستطيع ذلك ، فاننا سنتحدث مع القيصرة فى شئوننا الخاصة » ، وشابت وجهه امارات تنبىء بخطر الأمر وجلاله .

والحف الحداد فى الرجاء قائلا : « بل خذونى معكم » ، وهمس الى الشيطان فى صوت خفيض وهو يدق على جيبه بقبضة يده : « دعهم يأخذونى ! » .

وما ان قال هذا حتى هب زابوروجاوى آخر يقول : « فلنأخذه معنا ايها الرفاق ! » .

وانضم اليه آخرون قائلون : « اجل ، فلنأخذه معنا ! » .

« اذن فعليك ان ترتدى من اللباس ما نرتديه » .

وشرع الحداد يرتدى سترة زرقاء واذا بالباب يفتح فجأة ويدخل رجل تغطيه المخرمات الذهبية قائلا : « لقد حان الوقت للمضى الى القيصرة » .

وتملك الذهول الحداد مرة اخـرى وهم يدفعون به فى عربة عظيمة تتأرجح على زنبركات ، واخذت البيوت ذات الطبقات الأربع تمر به سراعا على الجانبين ، بدا له ان اديم الطريق المجلجـــل يموج تحت وقع حوافر الخيل .

وقال يحدث نفسه : « يا الهى ! ما ابهر الضياء ! ان الضوء لايبلغ هذا المبلغ فى موطنى حتى فى اثناء النهار ! » .

ووقفت العربات امام القصر ، وترجل الزابوروجاويون ، ودخلوا بهوا فخما ، وشرعوا يرقون درجا تتلألأ فيه الأنوار الساطعة .

وغمغم الحداد يقول بينه وبين نفسه : « يا له من درج ! ومن المؤسف ان يطأه المرء بقدميه ، يا للزخارف ! يقولون ان الحكايات تكذب، وحق الشيطان انها لاتكذب الاقليلا! يا الهى ! يا للدرابزون! وما اروعها من صنعة ! لاشك ان الحديد وحده قد تكلف خمسين روبلا سويا » .

وما ان صـــعد الزابوروجاويون الدرج حتى اجتازوا اول غرفة للاستقبال ، وتبعهم الحداد فى تهيب ، مشفقاان تنزلق قدماه على خشب الأرض الأملس فى كل خطوة ، ثم ســـاروا مجتازين ثلاث غرف للاستقبال ، والحداد لايكف عن الاعجاب الذى ملك عليه لبه،

فلما ولجوا الغرفة الرابعة لم يتمالك نفسه من المضى الى صورة معلقة على الجدار ، وكانت صورة العذراء البتول تحمل ابنها بين ذراعيها .

وراح يتحدث بينه وبين نفسه قائلا : « يا لها من صورة ! ويا لهذا الرسم البديع ! انه يوشك ان ينطق ! وكأنما دبت الحياة فيه ! ثم الابن المقدس ! انه يضغط يديه الصغيرتين كل بالأخرى ثم يبتسم هذا المسكين ! والالوان ! يا الهى ! ما اروعها ! يخيل الى ان الصورة ليس فيها من تراب الحديد الا ما يساوى كوبكا واحدا، ان كل ما فيها أخضر زمردى وصباغ قرمزى ، أما اللون الأزرق فيتلألأ تلألؤا ، يا لها من قطعة فنية رائعة ! وانى لأحسب ان بطانة الصورة قد طليت بأغلى انواع الرصاص الأبيض ، ومضى يبدىء ويعيد شاخصا الى الباب يتحسس القفل ، « وهذه الصورة على الرغم من بلوغها الغاية فى الروعة فان هذا المقبض النحاسى لأكثر منها جمالا وابداعا ، آه ، يا لجمال الصقل ! انى لأحسب ان ذلك كله قد قام به الحدادون الألمان ، وتكلف اموالا طائلة » .

ولعل الحداد كان خليقا بأن يسترسل الى تأملاته هذه وقتا طويلا لو لم يلكزه فى ذراعه خادم يرتدى لباسه الرسمى ويذكره بالا يتأخر عن رفاقه ، واجتاز الزابوروجاويون غرفتين اخريين ثم توقفوا ، وقيل لهم ان ينتظروا فى الغرفة الثالثة ، وكان فيها عدد من القواد يرتدون زيهم العسكرى الموشى بالذهب ، وانحنى الزابوروجاويون ذات اليمين وذات اليسار ، ثم توقفوا جميعا عن الحركة .

وبعد لحظة واحدة دخل الغرفة رجل أقرب الى البدانة ، عظيم الهامة فى جلال يرتدى زى زعماء القوزاق وحذاء أصفر ، وفى ركابه حاشية كاملة ، وكان اشعث الشعر يشوب عينيه شىء من الحول وتبدو على وجهه امارات الاستعلاء والاعتداد بالنفس ، تنطق كل حركة من حركاته بما الفه من اصدار الأوامر ، ودب الاضطراب بين القواد الذين كانوا يذرعون الغرفة مزهوين بزيهم الموشى بالذهب ، وبدا عليهم وهم ينحنون له انحناءات كبيرة انهم يرقبون فى لهفة اية كلمة ينطق بها ، بل اقل حركة تصدر منه حتى يهرعوا فى الحال ملبين رغباته وطلباته ، ولكن زعيم القوزاق لم يعر ذلك كله ادنى

التفات ، وكل ما فعله أن أومأ اليهم ، ثم اتجه الى الزابوروجاويين .

وانحنى الزابوروجاويون جميعا حتى مست جباههم الأرض .

فقال الرجل فى تمهل وكانت الكلمات تخرج من أنفه بعض الشيء : « او حضرتم جميعا الى هنا ؟ » .

فأجاب الزابوروجاويون وهم ينحنون مرة اخرى : « جميعـــا يا باتكو ! » (١)

« لا تنسوا ان تتحدثوا بالطريقة التى اشرت عليكم بها » .

« لن ننسى يا باتكو ! »

وسأل الحداد واحدا من الزابوروجاويين : « هل هذا هو القيصر ؟ »

فأجاب صاحبه : « القيصر حقا ! انه الأمير بوتمكين نفسه ! ».

وطرقت اذنى الحداد اصوات تنبعث من الغرفة الأخرى ، ولم يدر فى اى اتجاه يدير بصره حتى يرى رتل السيدات يلجن الغرفة مرتديات ثيابا من من الأطلس لها ذيول طويلة ، ولمة من رجال البلاط فى سترات موشاه بالذهب وقد ربطوا شعورهم فى ضفيرة تسترسل على ظهورهم ، لقد كان الفتى لا يرى فى ذلك كله الا غاشية من نور وسنا يحار فيهما البصر .

وخر الزابوروجاويون جميعا على ايديهم وركبهم وهتفوا فى صوت واحد : « الرحمة يامامو ، الرحمة ! » (٢)

واستلقى الحداد ايضا على الأرض فى غيرة وحماسة شديدتين ، وان كان لم ير شيئا ، وهرع بعض رجال البلاط ، ولكزوا الزابوروجاويين .

فصـــاح الزابوروجاويون : « لن ننهض يا مامو ! لن ننهض ، ولنمت ولكننا لن ننهض ! » .

وعض بوتمكين شفتيه ، ثم شخص اليهم بنفسه آخر الأمر ، وهمس فى اذن واحد من الزابوروجاويين فى صوت حازم بات ، فهبوا وقوفا .

ثم تجرأ الحداد أيضا ، ورفع راسه ، فرأى أمامه امرأة قصيرة القامة ، بل هى أقرب الى البدانة ، زرقاء العينين يحف بها ذلك

---

(١) باتكو فى الاوكرانية معناها الاب ــ المؤلف .
(٢) مامو فى الاوكرانية معناها الام ــ المؤلف .

الجلال السنى الذى لايملك اى انسان حياله الا ان يخضع ويستسلم، اجل ذلك الجلال الذى لا نجده الا فى الملكات .

وقالت السيدة ذات العينين الزرقاوين وهى تنظر الى الزابوروجاويين نظرة فاحصة يشوبها الفضول : « لقد وعدنى سمو الأمير بأن يعرفنى اليوم ، من لم ارهم بعد من أفراد شعبى » ، ثم مضت تقول وهى تدنو منهم : « او تحظون بالعناية الواجبة هنا ؟ » .

« أجل ، وشكرا لك يا مامو ! ان الطعام الذى يقدم لنا لجيد كل الجودة ، وان كان لحم الضان لا يشبه فى شىء ما نصيبه منه فى زابوروجى ، ولكننا بدانا نتاقلم » .

وقطب بوتمكين حاجبيه اذ راى الزابوروجاويين ينهجون فى اقوالهم نهجا يختلف تمام الاختلاف عما أرشدهم اليه .

وشد واحد من الزابوروجاويين قامته فى اعتداد بالنفس وتقدم منها قائلا :

« كونى رحيمة يا مامو ! لم تعاقبين شعبك المخلص ؟ ترى كيف آثرنا غضبك ؟ هل وضعنا يدنا فى يد التتر الفجار ، أو عقدنا اتفاقا مع الترك ؟ وهل خنا عهدك فى قول او فعل ؟ أم فقدنا عطفك؟ لقد كان أول ما سمعناه انك أمرت ببناء الحصون فى كل مكان لمقاومتنا، ثم سمعنا بأنك تنوين ادخالنا فى زمرة الجنود النظاميين ، وها نحن أولاء الآن نسمع بمصائب جديدة فى طريقها الينا ، فاى خطأ ارتكبه الجنود الزابوروجاويون ؟ هل اخطئوا فى حقك اذ عبروا بجيشك بيريكوب واعانوا قوادك على هزيمة اهل القريم ؟ » .

وحك بوتمكين ، فى غير اكتراث ، احجار الماس التى كان يرصع بها يديه بفرشاة صغيرة ، ولم ينبس ببنت شفة .

وسألتهم القيصرة فى قلق : « ماذا تريدون ؟ » .

ونظر بعض الزابوروجاويين الى بعض نظرات ذات مغزى .

وقال الحداد يحدث نفسه : « هذا هو الوقت المناسب ! ان القيصرة تسألنا عما نريد ! » ، وانبطح على الأرض فجاة .

« لاتأمرى بعقابى ياصاحبة الجلالة ! بل رفقا بى وارحمينى ! افلا تقولين لى ياصاحبة الجلالة ، وحاشاى ان اقصد الاساءة الى شخصك الكريم ، مم صنع الخف الصغير الذى تنتعلينه ؟ فانى

لاحسب أنه ما من صانع أحذية فى اية مملكة فى العالم يستطيع ان يصنع خفا مثله ، رحماك ياربى! تمنيت أن تنتعل زوجتى خفا كهذا!!»

وضحكت الأمبراطورة ، وضحك رجال البلاط أيضا ، وقطب بوتمكين حاجبيه وابتسم فى الوقت نفسه ، ولكز الزابوروجاويون الحداد تحت ذراعه ، وتساءلوا فى عجب : « أجن الرجل ؟ » .

وقالت الأمبراطورة فى تلطف : « انهض اذا كانت الرغبة فى خف كهذا قد استبدت بك الى هذا الحد ، فما ايسر تدبير الأمر ! ائتوا له فورا بأحسن خف وليكن موشى بالذهب ، لشد ما اطرب حقا لمثل هذه الطوية السليمة ! » ، ثم مضت تقول . « هاك موضوعا خليقا بأن يتناوله قلمك البارع » ، ملتفتة الى سيد متوسط العمر ذى وجه مكتنز اقرب الى الشحوب كان يقف على مسافة ما من الآخرين وكانت سترته المتواضعة بأزرارها الصدفية الكبيرة تنبىء بأنه ليس من رجال البلاط .

وأجاب الرجل ذو الأزرار الصدفية وهو يحنى هامته : « ما أعظم فضلك ياصاحبة الجلالة ، وهيهات ان يوفى هذا الموضوع حقه الا رجل من طراز لافونتين على الأقل ! » .

« انى لأقول لك مخلصة بأن السرور الذى أفاضته على روايتك « قائد اللواء » (١) لاتزال آثاره عالقة فى نفسى ، وان قراءة آثارك لمتعة اية متعة ! » ، ومضت الأمبراطورة تقول وهى تلتفت مرة اخرى الى الزابوروجاويين : « على اننى سمعت انه ما من أحد منكم اقبل على الزواج فى المعسكر » .

فأجاب الزابوروجاوى الذى كان يحادث الحداد قائلا : « كيف هذا ياماما ؟ انك لتعلمين ان الرجل لا غنى له عن زوجة » . وعجب الحداد اذ سمعه يخاطب القيصرة خطابا كأنما تعمد فيه أن تكون لهجته خشنة كتلك التى يتحدث بها الفلاح ولو انه كان يستطيع ان يتحدث بلغة الكتب .

فقال يحدث نفسه : « يا لهم من قوم ذوى دهاء ومكر! وانى

---

(١) الف رواية « قائد اللواء » الهزلية الكاتب الروسى الساخر فونفيزين من سنة (١٧٤٥ ــ ١٧٩٢) ــ المؤلف .

لاحسب انه لا يفعل هذا الا لغرض ! » .

واسترسل الزابوروجاوى يقول : « لسنا نساكا ، بل نحن قوم آثمون ، من السهل ان نقع فى المعصية شأن جميع المسيحيين الصادقين ، وكثير منا متزوجون ، ولكنهم لايقيمون مع زوجاتهم فى المعسكر، وبعضنا لهم زوجات فى بولندة ، وبعضنا فى أوكرانيا ، بل ان بعضنا لهم زوجات فى تركية » .

وجاءوا للحداد فى تلك اللحظة بالخف .

فصاح فرحا وهو يتناوله : « يا الهى ، ما ابدع ما وشى به من تطريز ! يا صاحبة الجلالة ! مادام الخف الذى تنتعلينه كهذا الخف ـ وانى لأحسب ان جلالتك تتزحلقين به على الجليد ـ فما بال قدميك ! لاشك انهما مصنوعتان من السكر الخالص ! » .

وكان للامبراطورة وايم الحق قدمان بديعتان صورتا أحسن تصوير، فلم تتمالك نفسها من الابتسام وهى تسمع ذلك الاطراء تنطلق به شفتا حداد ساذج ، يبدو فى لباسه الزابوروجاوى وسيما بالرغم من وجهه القاتم .

وسر الحداد بهذه اللفتة الكريمة ، فصبت نفسه الى سؤال القيصرة الجميلة عن كل شيء بالتفصيل : أصحيح ان القياصرة لايأكلون الا الشهد ولحم الخنزير الحنيذ وما أشبه ذلك ؟ الا انه شعر ان الزابوروجاويين ينخسونه بين ضلوعه نخسا ، فصح عزمه على ان يلزم الهدوء ، وعندما التفتت الامبراطورة الى الرجال الذين هم أكبر منه سنا وبدات تسألهم عن سبيلهم فى الحياة وعاداتهم فى المعسكر ارتد الحداد الى الوراء وانحنى على جيبه وقال فى رفق : « ابتعد بى من هنا واسرع ! » ، ولم يلبث أن وجد نفسه خارج ابواب المدينة .

هتفت زوجة النساج البدينة تقول فى لثغة ، وهى واقفة مع جماعة من نساء ديكانكا فى عرض الطريق : « لقد غرق ! تالله انه غرق ! ولا قدر على أن ابرح المكان ابدا ان لم يكن قد غرق ! » .

وصاحت امراة ارجوانية الأنف ترتدى سترة قوزاقية ملوحة بذراعيها : « وى ! اكاذبة أنا اذن ؟ وهل سرقت بقرة أحد ، أو حسدت احدا حتى تنكرن قولى ؟ الا كتب على الله ان تعاف نفسى

شرب الماء ان كانت بيربر شيخا العجوز لم تر بعينى راسها الحداد وهو يشنق نفسه ! » .

وقال شيخ القرية وهو يغادر كوخ شوب ويلحق بالجماعة : « او شنق الحداد نفسه ؟ وى ! ما كنت لأصدق هذا ! » .

وقالت زوجة النساج : « خير لك ان تقـــولى : كتب الله على ان تعاف نفسي شرب الفودكا ايتها السكيرة العجوز ! لقد كان حتما عليه أن يكون فى مثل جنونك حتى يشنق نفسه ، ، اغرق نفسه ؟ اجل اغرق نفسه فى الفرجة التى بين الجليد ! وانى لأعلم ذلك علمى بأنك كنت فى الحانة لتوك ! » .

وردت المراة ذات الانف الأرجوانى فى حنق وغضـب : « أيتهـا الفاجرة ! انظرن ؟ بماذا تتهمنى ! لخير لك ان تعقلى لسانك أيتها الفاجرة ! او تحسبين اننى لا اعرف أن القندلفت يذهب لزيارتك كل ليلة ؟ » .

واستشاطت زوجة النساج غضبا .

« ماذا تقولين عن القندلفت ؟ لمن يذهب القندلفت ؟ اى اكاذيب تختلقين ؟ » .

وشقت زوجة القندلفت طريقها الى المتشاجرين ، وكانت ترتدى سترة من القطن الأزرق مبطنـة بجلد الأرانب ، وصاحت تقول : « القندلفت ؟ لأرينكما كيف تحترمان اسم القندلفت ! من منكما جرى اسم القندلفت على لسانها ؟ » .

فقالت المراة ذات الأنف الأرجوانى مشيرة الى زوجة النساج : « هذه هى الفاجرة التى يزورها القندلفت » .

فقالت زوجة القندلفت وهى تخطو صوب زوجة النساج : « اذن فانك انت ايتها العاهرة ! اجل انت ، اليس كذلك ؟ انت الساحرة التى نفثت فيه من سحرك وسقيته شرابا دنسا لتحمليه على القدوم أليك » .

فقالت زوجة النساج وهى تتراجع مترنحة : « اختف ورائى أيها الشيطان ! » .

« آه أيتها العاهرة الملعونة ! قصف الله عمرك ، ولا كتب عليك ان ترى أطفالك ! أيتها المخلوقة الشقية ! » .

وعندئذ بصقت زوجة القندلفت فى وجه المراة الأخرى مباشرة .

وحاولت زوجة النساج أن تفعل بها مثل مافعلت ، ولكنها بصقت بديلا من ذلك على ذقن شيخ القرية ، ولم يكن حلقه بعد ، وكان قد دنا من المتشاجرين حتى يزداد سمعا لما يدور بينهما من شجار .

وصاح الشيخ وهو يمسح وجهه بطرف سترته ويرفع سوطه : ايه ايتها المراة القذرة ! » .

وكانت حركته كافية لتفريقهن ، فانطلقن مهرولات كل فى ناحية يلقين اللوم على الشيخ صارخات هاتفات .

وردد الشيخ ولم يفرغ بعد من مسح وجهه : « ما ابشع هذا ! اذن فقد غرق الحداد ! يا الهى ! ما كان ابرعه من نقاش ! ويا للسكاكين ومناجل الحصاد الجيدة التى كان يصنعها ! وما كان أقواه من رجل ! » ، ومضى فى تاملاته يحدث نفسه قائلا : « أجل ليس فى قريتنا الكثير من امثاله ، والحق اننى لم الحظ وانا قابع فى‌ذلك الكيس الملعون ان الفتى المسكين كان شديد الاكتئاب ، اذن فهكذا انتهت حياة الحداد ! لقد كان حيا بالامس ، اما اليوم فلم يعد له وجود ، وقد كنت انوى ان اقصد اليه لاحدى فرسى البقماء ! » .

والتمس الشيخ طريقه الى كوخه فى هدوء وقد شغل باله بهذه الافكار المسيحية .

واضطربت اوكسانا ايما اضطراب عندما بلغها النبأ ، وكانت لا تثق كثيرا بقول بيريبر شيخا : انها رات الحداد يشنق نفسه ، ولا بثرثرة النساء ، فقد كانت تعلم ان الحداد اتقى من ان يلقى بنفسه الى التهلكة ، ولكن ماذا يكون لو انه كان قد رحل‌معتزما الا يعود الى القرية ابدا ؟ والحق انه كان من المتعذر على المرء ان يجد فى اى مكان فتى قويم الخلق كهذا الحداد ، ثم انه كان مفتونا بها! وقد احتمل نزواتها اكثر من اى فتى غيره ، واخذت الحسناء تتقلب فى فراشها الليل بطوله ، على جانبها الأيمن تارة وعلى جانبها الأيسر تارة اخرى ، ثم تعود الى جانبها الأيمن ثم الى الأيسر ، واستعصى عليها النوم ، اجل اخذت تتقلب عارية فى كامل فتنتها التى حجبها الليل حتى عن نفسها ، وراحت تصب على راسها اللوم فى صوت اوشك ان يكون جهيرا ، ثم هدات بعض الهدوء فصح

عزمها على الا تفكر فى شىء ، ومع ذلك فقد ظلت تفكر وتفكر، لقد كانت تضطرم بنار الحمى ، وما ان لاح الصباح حتى كانت غارقة فى حب الحداد الى اذنيها .

ولم يبد شوب سرورا ولا حزنا على مصير فاكولا ، فقد شغل فكره بأمر واحد ، ذلك انه لم يستطع ان ينسى خيانة سولوخا ، ولم يكف عن التنديد بها حتى أثناء نومه .

وانبلج الصبح ، وامتلأت الكنيسة بروادها ولما يتنفس الصبح تماما ، ورسمت عجائز النساء عند مدخل الكنيسة علامة الصليب فى ورع وتقى ، وكن يعصبن رءوسهن بأغطية من الكتان الأبيض ويرتدين سترات من النسيج الأبيض أيضا ، وقد وقفت أمامهن سيدات فى صدرات خضر وصفر ، بل كان بعضهن يرتدين معاطف زرقاء داكنة وشيت ظهورها برسوم مذهبة ، وحاولت الفتيات ان يشققن طريقهن مقتربات من مكان الايقونات ، وكن يرتدين ملء دكان من الشرائط تلتف حول رؤوسهن ، ويتقلدن القلائد والصلبان وقطع النقود حول أعناقهن .

وكان يقف أمام هؤلاء جميعا السادة والفلاحون المتواضعون بشواربهم وقنزعات رءوسهم ورقابهم الغليظة وذقونهم التى حلقوها حديثا ، وكانوا كلهم يرتدون العباءات ذات القلانس تطل من تحتها سترة بيضاء حينا أو سترة زرقاء داكنة حينا آخر، ويشيع السرور فى كل وجه يقع عليه بصرك ، وكان الشيخ يلعق شفتيه مفكرا فى المقانق التى سيفطر عليها ، اما الفتيات فكن يفكرن فيما هن بسبيله من تزحلق على الجليد مع الفتيان ، واخذت عجائز النساء يتمتمن بصلواتهن فى غيرة وحماسة متزايدة . وكان المرء يستطيع أن يسمع فى اية ناحية من نواحى الكنيسة سفيربيجوز القوزاقى وهو ينحنى الى الأرض ، على ان اوكسانا كانت تقف وحدها شاعرة باكتئاب لا عهد لها به ، فقد كانت تتمتم بالصلاة ولا تصلى ، وتزاحمت فى قلبها مشاعر كثيرة متباينة كل منها اكثر اقلاقا للنفس واعظم اثارة للأسى من الآخر، فلا يجد من ينظر الى وجهها الا حيرة ممضة وهما ثقيلا وترقرقت الدموع فى عينيها وعجزت الفتيات عن التهكن بالسبب ، ولم يدر بخلدهن ان الحداد هو المسئول عما هى فيه ،

على ان اوكسانا لم تكن هى الوحيدة التى شغل بالها على الحداد ، فقد لاحظ القرويون جميعا ان العيد قد خلا من البهجة المعهودة فى الأعياد ، وانه كان ينقصه شيء . ومما زاد الطين بلة ان صوت القندلفت كان غليظا أجش بعد ما كابد من رحلاته وهو قابع فى الكيس ، واخذ يئز ازيزا لايكاد يسمعه أحد . صحيح ان المرتل الذى كان يزور القرية ، راح يرتل من قرار النغم ترتيلا جميلا ، ولكن هذا الترتيل كان خليقا بأن يكون أعذب واجمل فى وجود الحداد الذى ألف دائما ، حين يرى القوم ينشدون صلاة « يا أبانا » أو صلاة « الطفل المقدس » ، ان يعتلى منصة المرنمين وينشد الانشودة من فوقها بالنغمة التى جرى أهل بلتاوة على الترنم بها ، ثم انه كان الفتى الوحيد الذى يؤدى مهمة السادن ، وفرغ القوم من صلاة الفجر ، ثم انتهوا من القداس بعد ادائهم صلاة الفجر .. ترى ، أين اختفى الحداد حقا ؟ ..

***

وفى باكورة الصباح عاد الشيطان بالحداد طائرا بسرعة فاقت السرعة التى طار بها فى ذهابه ، ووجد فاكولا نفسه فى غمضة عين بجوار كوخه ، وانطلق الديك صائحا فى تلك اللحظة .

وهتف الحداد وهو ممسك بالشيطان من ذيله ، وكان قد أوشك ان يولى الأدبار : « الى اين ؟ صبرا لحظة يا صديقى ، فان ما بيننا لم ينته ، ذلك اننى لم أشكرك بعد » ، ثم امسك بقضيب وجلده ثلاث جلدات ، فانطلق الشيطان المسكين يجرى كفلاح جلده مساعد القاضى لتوه ، وهكذا انقلب عدو البشرية من خادع يغوى الناس ويضلهم ويعبث بهم الى مخدوع جازت عليه الحيلة ، ثم ولج الحداد الغرفة الخارجية ، واعد لنفسه مكانا فى القش ، ونام حتى حان وقت الغداء ، ثم أستيقظ فراعه ان الشمس قد اعتلت كبد السماء ، وهتف يقول : « لقد افرطت فى النوم وفاتتنى صلاة الفجر والقداس ! » .

وغلب الحزن على الحداد الورع ، فقد اعتقد اعتقادا جازما ان الله قد شاءت ارادته ان يقتص منه لما انتواه من اثم بالقاء نفسه فى موارد التهلكة ، فاصابه بهذا النوم الثقيل الذى منعه من حضور الكنيسة فى

مثل هذا العيد المقدس ، على انه اخذ يعزى نفسه بقوله : انه سوف يعترف للقس بكل هذا فى الاسبوع المقبل ، وسوف يخشع من الآن فصاعد خمسين مرة كل يوم عاما كاملا ، ثم نظر فى الكوخ ، فلم يجد به احدا ، ذلك أن سولوخا لم تكن قد عادت من الكنيسة بعد فيما يظهر .

واخرج الخف بعناية من صدر سترته ، وراح يتعجب مرة اخرى من نفاسة صناعته وما خاضه من مغامرة عجيبة فى الليلة الماضية ، واغتسل الفتى وارتدى اغلى ما عنده من ثياب ، وتحلى بالملابس التى حصل عليها من الزابوروجاويين نفسها واخرج من صندوق قبعة جديدة من الاستراخان الجيد ذات قمة زرقاء داكنة لم يلبسها مرة واحدة منذ اشتراها اثناء اقامته فى بلتاوة ،واخرج ايضا حزاما جديدا تمثلت فيه الوان قوس قزح ، وجمع هذا كله فى منديل ، وزاد عليه سوطا ثم مضى من فوره لمقابلة شوب .

وحملق شوب فى الحداد وهو يدخل كوخه ، ولم يدر : اى حال من احوال الحداد اعجب واغرب ؟ اقيامه من بين صفوف الأموات ، ام جراته فى القدوم عليه ، أم تأنقه هذا التانق كأنه زابوروجاوى حق ؟ بل ازداد دهشة على دهشة عندما فك فاكولا المنديل وطرح امامه قبعة جديدة وحزاما لم ير لهما فى القرية مثيلا من قبل ، ثم جثا امامه وقال فى لهجة تفيض بالتوسل والابتهال : « الرحمة يا باتكو ! اضربنى ان شئت ، ولكن لا تغضب على ! هاك سوطا ، اضربنى به ما شاء لك الضرب ، فانى مسلم امرى اليك ، وهانذا اعترف بندمى على كل ما قدمت يداى ! اضربنى ، ولكن لا تحنق على ، فقد كنت يوما زميلا لأبى ، واكلتما الخبز والملح معـــا وشربتما كأس الوفـاء والاخلاص ! » .

وانما سر شوب فى قرارة نفسه ، اذ رأى الحداد يجثو عند قدميه ، وهو الذى لم يذعن لأحد فى القرية ، بل لقـد بلغ من شدة بأسه انه كان يستطيع ان يلوى القطع ذات خمسة الكوبكات وحدى الخيل بين يديه كأنها الكعك ، واراد شوب ان يؤكد ماله من منزله فتناول سوطا، وجلده به ثلاث جلدات على ظهره .

« وى ! هذا حسبى ، فانهض ! وتعلم ان تطيع دائما من يكبرونك

سنا ، ولننس ما مر بيننا ، والآن حدثنى بما تريد » .

« زوجنى أوكسانا ياباتكو ! » .

وفكر شوب قليلا ، ونظر الى القبعة والحزام ، وكانت القبعة جميلة ينشرح لها الصدر ، ولم يكن الحـــزام دونها فى ذلك ، ثم فكر فى سولوخا الخائنة وقال فى حزم : « حسنا ! فلترسل الخطاب ! » .

وصاحت أوكسانا : « آه ! » ، عندما اجتازت عتبة الباب ورات الحداد ، وراحت تحملق فيه وقد تملكتها الدهشة والسرور جميعا.

وقال فاكولا : « انظرى الخف الذى جئتك به ، انه الخف الذى تلبسه القيصرة بلا فرق ولا خلاف » .

وقالت الفتاة وهي تلوح بذراعيها ولا تكف عن التامل فيه : « كلا ، كلا ! لا اريد الخف ، فانى راضية بك بصرف النظر عن الخف .. » ، ثم علت وجهها حمرة الخجل ولم تزد .

وقصد اليها الحداد واخذ بيدها ، وارخت الفتاة الحسناء بصرها، وتجلى حسنها الفائق كما لم يتجل من قبل ، وقبلها الحداد المفتون قبلة رقيقة ، فتضرج وجهها بحمرة قانية من الخجل ، وازدادت فتنة على فتنة .

وكان الأسقف الطيب الذكر يجتاز ديكانكا راكبا العربة ، فاعجب بموقع القرية ، وتوقف وهو يهبط الطريق امام كوخ جديد .

وسال غبطته امراة جميلة كانت تقف بجوار الباب وقد حملت بين ذراعيها طفلا رضيعا : « كوخ من هذا الذى طلى بهذا الطلاء الباهر ؟ »

فاجابته المراة وهى تنحنى : « كوخ الحداد فاكولا » . ولم تكن هذه الفتاة سوى أوكسانا .

وقال غبطته وهو يلقى على الأبواب والنوافذ نظرة فاحصة : «رائعة! اجل صنعة رائعة ! » ، وكانت النوافذ جميعا قد خططت بالطـــلاء الأحمر ، وراح القوزاق فى كل مكان يمتطون صهوات جيادهم بجوار الأبواب وغلايينهم بين اسنانهم » .

ولكن غبطته زاد فاكولا اطراء عندما علم أن فاكولا اراد أن يكفر عن ذنبه فى حق الكنيسة ، فطلا الجناح الأيسر كله من منصة المرتلين باللون الأخضر ورصعه بالأزهار الحمر .

ولم يكتف فاكولا بذلك ، بل رسم الشيطان فى الجحيم على ناحية

من الجدار يطالع الداخل الى الكنيسة ، وكان منظـــره بشعا كل البشاعة ، لا يمر به احد الا بصق عليه . وكانت النساء اذا لج طفل فى البكاء بين اذرعهن حملنه ورفعنه الى حيث الصورة وقلن له : « هاك ! وانظر ! ما ابشع هذا المنظر ! » ، فيحبس الطفل دموعه ويختلس نظرة الى الصورة ، ثم يندس فى صدر امه ويزداد بهـا التصاقا .

انتقام رهيب

انتقام رهيب

- ١ -

كان ثمة هرج ومرج وضجيج فى حى من احياء كييف ، فقد كان الصاغ جوروبتس القوزاقى يحتفل بزواج ابنه ، وأم الحفل عدد عظيم من الضيوف كانوا فى الايام الخالية يحبون الأكل الطيب،ويحبون الشراب أكثر ، ويحبون المرح أكثر واكثر ، وجاءميليتكاالزابوروجاوى، فيمن جاءوا ، ممتطيا صهوة جواده الاشقر مقبلا، لا يلوى على شىء من حفل صاخب اقيم فى سهل برشلاى حيث قضى سبعة ايام بلياليها يثقل على جنود ملك بولندة ويعب النبيذ الأحمر عبا ، وجاء أيضا دانيلوبورولباش ، اخو الصاغ بالتبنى مصطحبا زوجته الشابة كاترينا وابنه البالغ من العمر اثنى عشر شهرا مقبلين من وراء نهر الدنيبر حيث بيت أسرته يقوم بين تلين ، واخذ الضيوف بحسن طلعة كاترينا الشابة ، وحاجبيها اللذين يحاكيان فى سوادهما المخمل الألمانى ، وثوبها الأنيق المصنوع من النسيج الثقيل ، ونقبتها الحريرية الزرقاء وحذائها ذى الكعب الفضى ، ولكن دهشتهم كانت أعظم من عدم حضور والدها الشيخ معها ، فقد قضى الرجل عاما بل أقل من عام فى ذلك الاقليم ، ولم يسمع القوم عنه شيئا طيلة الواحد والعشرين عاما السابقة على ذلك ، ولم يأت لزيارة ابنته الا بعد أن تزوجت ورزقت ولدا ذكرا ، ولا شك ان فى جعبته قصصا غريبة كثيرة جديرة بان تحكى ، وكيف لا يكون هذا شانه وقد قضى فى البلاد الأجنبية هذه الحقبة الطويلة من الزمن ؟ ان كل شىء فيها يختلف عما هو عليه فى بلادنا ، فالقوم ليسوا هم القوم كما ان تلك البلاد قد خلت من الكنائس المسيحية ، ومع ذلك تخلف الرجل عن الحضور .

وجاء أهل البيت للضيوف بفودكا مطيبة فيها زبيب وفيها برقوق ،

كما جاءوا لهم بكعكة زفاف فى طبق كبير ، وانقض الموسيقيون على الطبقة السفلى منها التى دست فيها قطع النقود عند خبزها ، والقوا بكماناتهم وصنوجهم ودفوفهم التماسا لفترة قصيرة من الراحة ، وفى هذه الأثناء خرجت الفتيات والسيدات الشابات مرة اخرى ، بعد ان مسحن افواههن بالمناديل المطرزة ، ووضع الفتيان اذرعهم فى خاصرتهم واخذوا يتلفتون حولهم فى استعلاء متأهبين للمضى للقائهن ، واذا بالصاغ العجوز يبرز ايقونتين يبارك بهما الزوجين الشابين .

وكان قد اعطاها اياهما الناسك الموقر الأب فارفولومى ، ولم تكونا مركبتين على رصيعتين نفيستين ولا يشع منهمـا بريق لذهب أو فضة ، على أن اية روح شريرة ما كانت لتجرؤ على الاقتراب من اى امرىء وضعهما فى بيته ، ورفع الصاغ الايقونتين عاليا وهم بأن يتلو صلاة قصيرة ، واذا بالأطفال الذين كانوا يلعبون على الأرض يصرخون فجاة صرخات يشيع فيها الرعب والفزع ، وتراجع القوم واخذ كل منهم يشير فى رهبة الى قوزاقى وقف فى وسطهم ولم يدر احد من يكون ، ولكنه كان قد ابدع فى الرقص ، واستحوذ على الملتفين حوله، وما ان رفع الصاغ الأيقونتين حتى انقلبت سحنة القوزاقى فى الحال، فازداد انفه كبرا ، ومال على جانب وتبدل لون عينيه من السمرة الى الاخضرار وازرقت شفتاه ، وارتجف ذقنه ودق حتى غدا كالرمح ، واطلت من فمه ناب ، وظهرت حدبة خلف راسه ، واستحال رجلا عجوزا نالت منه الأيام .

وصاح القوم وقد التصق بعضهم ببعض : « انه هو ! انه هو ! » .

وصاحت الأمهات يتخطفن اطفالهن : « لقـد ظهر الساحر مرة اخرى ! » .

وتقدم الصاغ فى مهابة واعتداد بالنفس وصوب اليه الايقونتين ثم هتف : « اغرب عنا يا صورة الشيطان ! فلا مكان لك هنـا ! » ، فاختفى الشيخ الغريب وهو يفح فحيح الافعى ، ويقعقع بأسنانه كأنه الذئب » .

ولغط القوم وثارت بينهم التكهنات ، وكان ضجيجهم اشبه بهدير البحر الم به عاصفة .

وتساءل الشبان : « من يكون هذا الساحر ؟ » ، ذلك انهم لم يكونوا يعرفون عنه شيئا .

وتمتم الشيوخ وهم يهزون رءوسهم : « تالله لتثورن المتاعب ! » ، واجتمع الناس فى كل مكان من الفناء الفسيح زرافات ينصتون الى قصة الساحر المخيف ، على ان كلا منهم كان يرويها رواية تختلف عن رواية الآخر ، ولم يستطع أحد أن يقول عنه شيئا محققا .

ودحرج القوم برميلا من شراب العسل المخمر وجاءوا الى الفناء بجالونات كثيرة من النبيذ اليونانى ، وعاد الضيوف الى مرحهم ، وعزفت جوقة الموسيقى ، فاخذت الفتيات والسيدات الشابات ، كما اخذ كرام القوزاق فى ستراتهم الزاهية الالوان يدورون بسرعة وهم يرقصون ، وشرب الشيوخ الذين ناهزوا التسعين ، بل المائة ، كأسا أو كأسين ، ثم شرعوا يرقصون هم أيضا عائدين بالذكرى الى السنوات الخوالى التى لم تضع منهم سدى ، وظلوا يحتفلون حتى ساعة متأخرة من الليل احتفالا لا نجد له نظير اليوم ، وبدأ الضيوف يتفرقون ، ولكن لم يعد منهم الى البيوت الا القليل ، فقد بقى الكثيرون يقضون الليلة فى فناء الصاغ الفسيح ، بل أخلد جمع عظيم من القوزاق الى النوم من غير دعوة ، فاستلقوا تحت الارائك او على الأرض أو بجانب خيولهم أو بجانب الحظيرة ، وكان السكارى يرقدون حيث يتعثرون ويغطون غطيطا يصل الى اسماع أهل القرية جميعا .

— ٢ —

وانبعث من السماء ضوء رقيق غشى الأرض جميعا ، فقد بزغ القمر من خلف التل ، وغمر ضوءه ضفة الدنيبر الوعرة بغلالة بيضاء كالثلج ، أو كأنها النسيج الموصلى النفيس الذى اشتهرت به دمشق ، وانحسرت الظلال مرتدة الى أعماق غابة الصنوبر .

وكان ثمة قارب حفر من شجرة سنديان ، يسبح هابطا نهر الدنيبر ، وقد جلس غلامان فى مقدمته ، ووضعا قبعتيهما القوزاقيتين السوداوين على جانب من رأسيهما ، وراح الرشاش يتطاير من مجدافيهما كأنه الشرر ينبعث من حجر من الصوان .

ما بال هذين القوزاقيين قد صمتا عن الغناء ، وكفا عن الحديث عن القساوسة البولنديين الذين كانوا يتجولون في أوكرانيا يحملون القوزاق على اعتناق الكاثوليكية ، وعن المعركة التي استغرقت يومين مع التتر عند البحيرة الملحة ، ولكن كيف تنطلق عقيرتهما بالغناء ويتشدقان بالحديث عن ضروب البسالة ، وقد استغرق سيدهما في التفكير وتدلى ردن سترته القرمزية من القارب يخط في صفحة الماء ، وراحت سيدتهما كاترينا تهز طفلها في رقة ولطف وقد تعلقت انظارها به ، على حين اخذ الغبار الرمادي الدقيق الذي يحمله الرشاش يلوث ثوبها الأنيق المصنوع من النسيج الثقيل وقد تجرد من غطائه الكتاني .

ويالها من متعة أن ترنو ببصرك من وسط الدنيبر الى التلال العالية والمروج الفسيحة والغابات الخضر ، ولم تك هذه التلال تلالا بالمعنى المفهوم ، فقد كانت تنتهي من أسفلها ومن اعلاها بقنن تشرف عليها السماء في علاها ، وتشرف هي على السماء ، وأما الغابات القائمة على منحدراتها فلم تك ايضا غابات بالمعنى المفهوم ، بل كانت هي الشعر الذي يغطي راس شيطان الحرجة الأشعث ، يتدلى الى الماء يغسل فيه لحيته التي تنبسط من تحتها السماء في علاها ، وتمتد فوق راسه مشرفة في ذراها ، وكذلك لم تكن المروج مروجا ، بل كانت نطاقا اخضر يتوج قبة السماء ، ويتدلى من فوقه ومن تحته .

ولم يكن السيد دانيلو يتلفت حوله ، بل كان ينظر الى زوجته الشابة : « ما بالك غارقة في الحزن اى زوجتي الصغيرة ومهجة قلبي كاترينا ؟ » .

قالت كاترينا وهي تخرج منديلا تمسح به وجه الطفل النائم : « لست غارقة في الحزن اى زوجي دانيلو ! وانما يملؤني الخوف مما سمعته من القصص الغريبة عن الساحر ، ويقول القوم : انه ولد بشع المنظر تتقحمه العين لا يرضى اى طفل بأن يلعب معه ، فهلا تستمع اى زوجي دانيلو الى القصص المخيفة التي يروونها عنه ! لقد خيل اليه ان الناس جميعا يسخرون منه ، وكان اذا لقي انسانا في الظلام ظنه يفتح فمه ويكشف عن اسنانه استهزاء به ، حتى اذا جاء اليوم التالي وجدوا هذا الانسان ميتا لا حراك به . وقد عجبت لتلك

القصص وروعنى سماعها » وكان المنديل الذى اخرجتهكاترينالتمسح به وجه ابنها قد طرزته بأوراق الشجر والتـــوت مستعينة بالحرير الأحمر .

ولم ينبس السيد دانيلو ببنت شفة ، بل اخذ يحدق النظر فى الظلام حيث كان يلوح للأعين فيما وراء الغابة بمســـافة كبيرة حافة مظلمة لسور بنى باللبن تقوم خلفه قصر قديم ، وكان جبين دانيلو يخطه ثلاثة خطوط من التجاعيد ، واخذت يده اليسرى تربت شاربه الجليل .

وقال : « ليس المخيف فى الأمر انه ساحر ، بل المخيف انه ضيف شرير ، ترى اى نزوة بعثت به الى هنا ؟ لقد انبئت ان البولنــديين ينوون بناء حصن ليفرقوا بين الزابوروجاويين ، وقـــد يكون ذلك صحيحا ، تالله لأطيحن بعش ذلك الشيطان اذا بلغتنى اية اشاعة بأنه يأوى أعداءنا فيه ، ولأحرقن هذا الساحر العجوز حتى لا تجـد الغربان من بقاياه شيئا تنبش فيه ، وانى لأحسب ان لديه ذهبـــا وثروة من كل نوع ، وهناك يقيم الشيطان ! فاذا كان عنده ذهب .. وسنمر بعد قليل بالصلبان . وتلك هى المقبرة ! وفيها يرقد اجداده الأشرار وقد تعفنت جثثهم وقد علمت بأنهم جميعا كانوا مستعدين ان يبيعوا انفسهم للشيطان بالمال . اجل كانوا مستعدين أن يبيعـوا أرواحهم واجسادهم الفانية وكل ما يملكون ، ولو كان لديه ذهب حقا، فما من داع يدعو الى الانتظار ، فليست كل حرب تأتى بالغنائم ! » .

« أعلم ما اتدبر ، وان قلبى ليحدثنى بأنك لن تخرج من لقـــائه بخير ، أنك تلهث وقد غلبت على محياك القسوة البالغة ، وتقطب حاجباك من شدة الغضب فوق عينيك .. » .

فقال دانيلو غاضبا : « اعقلى لسانك يا امراة فلئن قدر لرجل أن يعاملك لأنقلب هو نفسه امراة ، يا غلام ، على بنار اشعل بها غليونى !»، وعندئذ التفت الى غلام من الغلامين الذين كانا يجدفان ، ودق الغلام غليونه ينفض بعض الرماد الحامى ، وبدأ يحشو به غليون سيده ، ومضى دانيلو قائلا : « اتريد امراتى ان تخيفنى بذكر الساحر ! وى ! ان القوزاقى لا يخاف الشيطان ، ولا القس البولندى ! ، وماذا يكون من امرنا لو انصتنا الى السيدات يا ولدى ؟ ان خير الزوجات فى نظرنا الغليون والسيف الماضى ! » .

واخذت كاترينا الى الصمت ، وراحت تنظر الى النهر الهاجع ، وهب النسيم فأثار الماء ، وتألق الدنيبر بلون الفضة كجلد ذئب يلوح للعين بليل .

وانعطف القارب واحتضن الضفة المشجرة ، وتبدت للأنظار مقبرة، انقلبت صلبانها راسا على عقب ، وتجمعت في لمة واحدة ، ولم ينبت بين القبور زهر ولا عشب ، وانما كان يؤنس القمر وحشتها من علياء سمائه .

وقال دانيلو وهو يلتفت الى المجدافين : « اتسمعان الصيحات ايها الغلامان ؟ ان شخصا يستنجدنا ! » .

وصاح الغلامان في صوت واحد وهما يشيران الى المقبرة : « اجل نسمعها ، ويظهر انها تنبعث من تلك الضفة » .

ولكن الهدوء عاد فشمل المكان ، والتف القارب مسايرا ثنية الضفة البارزة ثم القى المجدفان مجدافيهما فجأة وراحا يحملقان امامهما دون ان يبديا حراكا وفعل دانيلو مثل ما فعلا ، وسرت رعدة من الفزع في اوصال القوزاقي .

وتهاوى صليب على قبر من القبور ، وبرزت من الأرض جثة ذابلة استرسلت لحيتها حتى بلغت وسطها ، واستطالت اظافرها فزادت في الطول عن الأصابع نفسها ، ورفعت الجثة يديها عاليا في بطء ، وكان وجهها كله متقلصا شائها ، ينم بجلاء عما تعانيه من عذاب فظيع ، ثم اخذت تئن في صوت مخيف وحشي : «انى اختنق ! انى اختنق!»، حتى لقد بدا هذا الصوت يحز في القلب حز السكين ، ثم غابت في باطن الأرض فجأة ، وتهاوى صليب آخر ثم برزت من الأرض جثة ثانية اطول قامة واكثر بشاعة ، يغطى جسمها الشعر وتسترسل لحيتها حتى تبلغ ركبتيها ، وتمتد أظافرها حتى تزيد على اظافر الجثة الأولى ، ثم صاحت في صوت اشد هولا ورعبا : « انى اختنق » ، ولم تلبث ان غابت في جوف الارض ، وتهاوى صليب ثالث وبرزت جثة اخرى ، بدت للأنظار كالهيكل العظمى تنشق عنه الأرض ، وكانت لحيتها تبلغ عقبيها ، واظافرها تنغرس في الأرض ، ورفعت الجثة يديها الى السماء في حركة مفزعة كأنما تهم بأن تمسك القمر ، واطلقت صرخة خيل الى الأسماع ان احدا ينشر عظامها الصفر نشرا .

KMH

وصاح الطفل النـــــائم على حجر كاترينا واستيقظ من نومه ، وصاحت السيدة أيضا ، وترك المجدفان قبعتيهما تسقطان فى النهر ، ولم ينج سيدهما من رعدة سرت فى جسمه .

وانطوت صفحة هذا كله كأن لم يكن ، على ان المجدفين لم يعودا الى مجدافيهما الا بعد وقت طويل ، ونظر بورولباش فى قلق الى زوجته الشابة ، وقد تملكها الرعب وراحت تهز الطفل الذى لم يكف عن الصياح بين ذراعيها ، وضمها دانيلو الى صدره وطبع قبلة على جبينها . .

وقال وهو يشير الى ما حوله : « لا تراعى يا كاترينا ! انظرى ، فما من شيء هنالك ، وكل ما فى الأمر ان الساحر يريد أن يلقى الرعب فى قلوب الناس حتى لا يجرؤ احد على اقتحام وكره الدنس ، ولكنه لن يخيف بهذا أحدا الا النساء ! فخلى عنك وأعطينى ولدى ! » .

وما ان فرغ دانيلو من قوله هذا حتى رفع ولده وقبله : « ايه يا ايفان اظنك لا تخاف السحرة ، اليس كذلك ؟ اجبنى وقل كلا يا ابت ، فانى قوزاقى ، حسبك ! وكف عن البكاء ، فسرعان ما نبلغ دارنا ، فتطعمك امك الثريد ، وتضعك فى مهدك ثم تغنى لك :

هوه هوه ياصغيرى .
هوه هوه نم يا حبيبى .
العب والعب حتى تغدو رجلا .
يفخر بك القوزاق .
وتثير الارتباك فى صفوف الأعداء .

« أعيرنى اذنك يا كاترينا ، فانى اظن ان اباك لن يعيش معنا فى سلام ، فقد كان حين اقبل علينا حزينا كاسف البال كأنمــــا يتملكه الغضب ، ترى ، ما الذى حمله على المجيء اذا كان لا يروق له ؟ ثم انه لم يشأ ان يشرب نخب حرية القوزاق ، ولم يلاعب الطفل قط ، لقد كنت خليقا بأن أثق به من كل قلبى ، ولكننى عجزت عن ذلك ، فقد احتبست الكلمات فى حلقى ، لا ، لا ! ليس لأبيك قلب القوزاقى ! ان القلوب القوزاقية اذا تلاقت قفزت من الصدور أو كادت ليرحب كل منها بالآخر ، أى غلامى العزيزين ، أو قد اقتربنا من الشاطىء ؟ لأهبن لـكما قبعتين جديدتين ، واحـــــدة لك أنت ياستيتسكو مصنوعة من المخمل والذهب ، انتزعتهـــا من تترى هى

وراسه ، وآل الى كل ما كان يتزين به اللهم الا روحه ، فقد تركتها تذهب فى ... مرحى لقد بلغنا البر ! وها نحن أولاء قد وصلنا الى دارنا يا ايفان ، ولكنك لا تكف عن البكاء ! خذيه يا كاترينا » .

ونزلوا جميعا من القارب ، وبدا للأنظار سقف مغطى بالقصب من وراء التل ، وكان هذاهو بيت دانيلو وبيت آجداده ، وقام من ورائه تل آخر ثم السهل المنبسط ، وما كنت لتجد هناك قوزاقيا واحدا وان سرت مرتحلا مائة ميل .

- ٢ -

كان بيت دانيلو بين تلين فى واد ضيق ينحدر حتى يبلغ نهر الدنيبر ، وكان هذا البيت قليل الارتفاع مثل الأكواخ القوزاقية المتواضعة ، ليس فيه الا غرفة واحدة ، ولكنه كان يسعه ويسع زوجته وخادمتهما العجوز واثنى عشر غلاما من الغلمان المختارين وكانت تلتف بالجدران من عل رفوف من خشب السنديان ، تكدست فوقها الطاسات وأوانى الطهى ، ومن بينها كؤوس فضية واقداح شراب رصعت بالذهب ، وهدايا أو غنائم من غنائم الحرب ، وعلقت تحت الرفوف سيوف وبنادق و « قربينات » ورماح نفيسة ، اخذت طوعا او كرها من التتر والترك والبولنديين ، وحملت كثيرا من آثار الحرب ، وكان دانيلو ينظر الى هذه النفائس ، فيرى فيها شواهد تذكره بالمواقع التى خاض غمارها . وامتدت أسفل الجدران اريكتان من السنديان صقلهما المسحج صقلا ، وقام المهد بجوارهما أمام أريكة الموقد ، وقد علق بحبال تتدلى من حلقة ثبتت فى السقف ، ودق اديم الغرفة دقا جيدا وغطى بطبقة من الطين .

وكان دانيلو وزوجته ينامان على الأريكتين والخادم العجوز على اريكة الموقد ، ويلعب الطفل وتهدهده أمه حتى ينام فى مهده ، ويرقد الاثنا عشر غلاما فى صف واحد على الأرض ، على أن اى قوزاقى لا يرضى بالأرض المنبسطة بديلا ، فهو ينام عليها فى الهواء الطلق ، ولا يحتاج الى فراش من الريش او وسادة ، بل يكوم شيئا من القش الندى تحت راسه ويتمدد على العشب كما يحلو له ، وأن صدره

لينشرح اذ يستيقظ فى بهيم الليل ويتأمل السماء العـــالية المرصعة بالنجوم وتأخذه من برد الليل رعدة تنعش عظامه القوزاقية ، ثم يشعل غليونه ، وهو يتمطى ويدمدم فى نعاسه ، ويحكم حوله غطاءه المصنوع من جلد المـــاعز .

ولم يستيقظ بورولباش مبكرا بعد ما اصاب من مرح فى أمسه ، فلما استيقظ جلس فى ركن من الأريكة ، واخذ يشحذ سيفا تركيا جديدا ، كان قد قايض به لتوه ، وشرعت كاترينا تعمـــل فى تطريز منشفة من الحرير بخيوط من ذهب .

وهبط عليها ابو كاترينا فجاة ، غاضبا مقطب الجبين ، وقد وضع بين اسنانه غليـــونا اجنبيا ويمم شطر ابنته ، واخذ يسألها فى صرامة عن السبب فى عودتهما متأخرة كل التأخر فى الليلة الماضية .

وقال دانيلو وهو ماض فى عمله :

« أى حماى ، ان الذى يسأل فى ذلك هو انا لا هى ! اجل ، ان الزوج هو المسئول لا الزوجة ، واسمح لى ان اقول : ان هذه هى السنة التى جرينا عليها هنا ، ولست أدرى ، لعل السنة فى بلاد الكفار تجرى على غير هذا ! » .

وتورد وجه حميه وتألقت عيناه ببريق وحشى .

وغمغم مخاطبا نفسه : « من اولى بالسهر على البنت من ابيها ؟ وليكن ما تريد ، ولأوجهن السؤال اليك : اين كنت تهيم حتى تلك الساعة المتأخرة من الليل ؟ » .

« آه ، هكذا يكون الخطاب يا حماى العزيز ! وهانذا اجيبك بأننى شببت عن الطوق منـــــذ وقت طويل ! وانى لقادر على أن اسوس الجواد ، كما احسن استعمال السيف المرهف ، فضلا عن امور اخرى استطيعها ، وانى لقادر على ان ارفض تقديم حساب لأحد عما افعل » .

« انى لأعلم انك تلتمس العراك يا دانيلو ! فان الرجل اذا ابى أن يفصح كان صدره منطويا على الشر » .

فقال دانيلو : « فلنفكر كما تشاء ولأفكر انا كما اشاء ، وانى لأحمد الله على اننى لم أشترك بعد فى اى عمل مشين . لقد وقفت دائما انافح عن مذهبى الارثوذكسى وبلادى ، ولم انهج نهج بعض المشردين الذين يضربون فى الارض ، فلا يعلم مستقرهم الا الله ، ويتركون المسيحيين

الصالحين يهلكون حتى الموت ، ثم يعودون ليجنوا ثمرة ما لم يزرعوه ، انهم لأسوأ من الاونيات ، فهم لا يأتمون أبدا بكنيسة الله ، واولئك هم الذين يجب أن يحاسبوا الحساب العسير على ضلالهم وما كانوا فيه يهيمون » .

« ايه ايها القوزاقى ! هل علمت اننى لا أجيد الرماية ، وانما تخترق رصاصتى القلب على مسيرة سبعمائة قدم ! وليس لى ان افخر ببراعتى فى السيف ، فانى لاترك غريمى قطعا ادق من الحب الذى يصنع منه الثريد » .

فقال دانيلو : « مرحبا بك » ، وراح فى خفة يرسم بالسيف اشارة الصليب فى الهواء كأنما كان يعلم السبب الذى حمله على شحذه .

وصاحت كاترينا صيحة عالية ، وقد أمسكت بذراعه وتعلقت به : « دانيلو ! تدبر ما انت فاعل ايها المجنون ، وانظر فى وجه من ترفع يدك ! أبتاه ، لقد ابيض شعرك ، فغدا ناصعا كالثلج ، ولكنك أستسلمت للغضب كالفتى الطائش ! » .

فقال دانيلو مهددا زوجته : « أيتها الزوجة ! انك لتعلمين أننى لا ارضى عما تفعلين ، فانصرفى الى ما تنصرف اليه النساء ! » .

وصلصل السيفان صلصلة مخيفة ، وتقارعت النصال وأثار القوزاقيان الشرر كأنه الغبار ، وانطلقت كاترينا الى غرفة مستقلة تبكى ، والقت بنفسها على الفراش ، وسدت اذنيها كى لا تسمع صليل السيفين . على ان القوزاقيين لم يكونا يتقاتلان قتال الجبناء الرعاديد حتى تستطيع أن تخمد صوت ضرباتهما ، وأوشك قلبها أن ينفطر ، وخيل اليها ان صوت قعقعة السيفين ينساب فى جسمها كله : « كلا ، كلا ، ان هذا فوق ما احتمل ، اجل فوق ما أحتمل ، ومن يدرى ؟ لعل الدم القانى يسيل الآن من الجسد الأبيض ، ولعل زوجى العزيز الآن عاجزا لا حول له ولا قوة ، وأنا ارقد هنا ! » ، وعادت أدراجها ممتقعة الوجه لا تكاد تقوى على التنفس .

وكان القتل بين الرجل رهيبا تعادلت فيه الكفتان،ولم يتحقق لأحدمن القوزاقيين الغلبة على الآخر ، فقد كان أبو كاترينا يهاجم حينا ، فيبدو ان دانيلو على وشك الاستسلام ، ويهاجم دانيلو حينا آخر ، فيلوح على الوجه الغضوب انه قد أشرف على الاذعان ، ثم يعود القتال بينهما

نيدور سجالا . وكان الرجلان يتميزان غيظا ، ويلوحان بسيفهما ، ويصلصل السيفان ، ويتطاير النصلان مقعقعين من مقبضيهما .

وهتفت كاترينا : « حمدا لله ! » ، ولكنها عادت فصرخت عندما ابصرت القوزاقيين ، وقد تناولا بندقيتهما ، ووضعا فيهما حجـــر الصوان ، ثم رفعا الزناد .

واطلق دانيلو النار فأخطأ ، وصوب ابوها بندقيته ، وكان رجلا عالى السن لا يبلغ فى حدة بصره مبلغ غريمه الفتى ، الا ان يده لم ترتجف ، ودوت طلقة فترنح دانيلو وخضب الدم القــــانى الردن الأيسر من سترته القوزاقية .

وصاح دانيلو : « كلا ! لن استسلم بهذه السهولة ، فان اليد اليمنى هى التى تتخضب بالدم ، ولدى غدارة تركية معلقـــة على الجدار لم تخنى قط ، فاهبطى الى ايتهـا الزميلة القديمة ! وقــدمى يدا لصديقك ، ومد دانيلو يده .

فصاحت كاترينا فى يأس وهى تمسك بيده ، وتجثو عند قدميه : « دانيلو ! اتوسل اليك لا رحمة بى ، فانى لا اعرف لى الا نهاية واحدة، ولبسئت الزوجة تبقى بعد ان يقضى زوجها ، وليكونن نهر الدنيبر قبرى ، وفى مياهه الباردة مثواى ولكن انظر الى ابنك يا دانيلو ، انظر اليه ! من ذا الذى يدلل هذا الطفل المسكين ؟ ومن الذى يشمله برحمته ؟ ومن يعلمه الركض على صهوة الجواد الأسود الأصيل ، والقتال فى سبيل الدين والحرية ، والشرب والمرح كما يفعل القوزاق اجمعون ؟ لتهلكن يا بنى ، لتهلكن ! فان اباك لا يريد ان يفكر فيك ! انظر كيف يدير راسه ، آه ، لقد عرفتك الآن ! انك لوحش ضار ولست انسانا ! ان قلبك قلب ذئب وعقلك عقل ثعبان داهية لقد كنت احسب ان قلبك فيه ذرة من رحمة وان صدرك الحجـــرى ينطوى على شيء من المشاعر الانسانية ، ولكن واخيبة املى فيك ! تالله لينشرحن صدرك وترقص عظامك فى القبر فرحا حين تسمع الوحوش البولنديين الانجاس يلقون بابنك فى اللهب ، وحين تسمع صرخات ولدك تعلوه السكين او يغمره الماء الحار ! آه ، انى اعرفك ! واعرف انك تسر اذ تقوم من قبرك وتزكى النار من تحته بقبعتك ! » .

« كفى يا كاترينا ! تعال يا حبة قلبى ايفان ، ودعنى اقبلك . كلا

يا بنى ، لن يلمس احد شعرة من راسك ، ولسوف تنمو ويشتد عودك وتكون فخرا لبلادك ، ولسوف تطير كالعاصفة ومن ورائك القوزاق وعلى راسك قبعة من المخمل وفى يدك سيف مرهف » ، ثم مضى دانيلو يقول لأبى كاترينا الذى كان يقف بلا حراك ولا تظهر على وجهه سيماء الغضب أو امارات المسالمة : « اعطنى يدك يا أبت ! ولننس ما دار بيننا ! واسمح لى ان أسألك الصفح عما بدر منى فى حقك . ما بالك لا تمد لى يدك ؟ » .

وصاحت كاترينا ، وهى تطوق اباها بذراعيها وتقبله : « ابتـاه ! لا تكن غليظ القلب ، واصفح عن دانيلو ، ولن يعود ابدا الى الاساءة اليك ! » .

فأجاب أبوها وهو يقبلها وفى عينيه بريق غريب : « انما أصفح عنه اكراما لك وحدك يا ابنتى ! » .

وسرت رعدة خفيفة فى جسم كاترينا،فقد بدا لها فى قبلته وما شاب عينيه من بريق نذير خطير ، واستندت بمرفقيها على المنضدة التى كان دانيلو يضمد فوقها ذراعه الجريح ، وراح زوجها يتمتم بأنه أساء التصرف ، ولم يفعل ما يفعله القوزاقى الحر ، اذ طلب الصفح ولما يقترف ذنبا أو يأت نكرا .

— ٤ —

وطلع الصبح ، ولكن الشمس لم تشرق ، وتلبدت السماء بالغيوم، واخذ الرذاذ يتساقط على السهول والغابة ونهر الدنيبر الفسيح ، واستيقظت كاترينا وقلبها مثقل بالهموم وقد خضبت الدموع عينيها، وتملكها القلق والضجر .

« اى زوجى العزيز ، يا زوجى الغالى ! لقد رايت رؤيا غريبة ! » .

« اى رؤيا ، يا حبيبتى كاترينا ؟ . »

« رأيت رؤيا غريبة ، تجلت لى كأنها الحقيقة الواقعة ، فقد تمثل لى أن أبى هو ذلك الوحش الذى شاهدناه نفسه فى منزل الصاغ ، ولكنى اتوسل اليك الا تؤمن بهذا الحلم ، فان الانسان يرى فى أحلامه أوهاما وحمـــاقات على اختلاف الألوان والأشكال ، أجل ، رأيته فى

المنام انني اقف امامه مرتجفة الاوصال مأخوذة اللب ، تئن عروقي لكل كلمة تخرج من فيه ، آه لو سمعت ما قال ! » .

« وماذا قال يا حبة قلبي كاترينا ؟ » .

قال : « انظري الي يا كاترينا ، وتأملي مقدار حسني ووسامتي ! ان الناس ليخطئون بقولهم انني دميم ، ولشد ما اصلح زوجا لك ! الا ترين ما تجود بهعيناي من نظرات ، ثم صوب الى عينين تتقدان نارا ، فصرخت واستيقظت » .

« اجل ، فما اكثر ماتصدق الاحلام ، ولكن اتعلمين ان الهدوء ليس مستتبا فيما وراء التلال ؟ واني لأحسب ان البولنديين بدءوا يظهرون مرة اخرى ، وقد بعث الى جوروبيتس برسالة يوصيني فيها بالتزام اليقظة والحذر ، ولا عليه فانى لست نائما ، وقد اقام رجالى اثنى عشر متراسا من الشجر الذى اجتثوه بليل ، ولنتحفن الجنود من العامة ببرقوق من الرصاص ، اما الخاصة فسوف نحملهم على الرقص بالسياط » .

« أو يعلم ابي بهذا ؟ » .

« ان اباك ليثقل على ، وانا لا أستطيع ان اخرجه من صمته ولابد انه اقترف آثاما كثيرة في البلاد الأجنبية ، ترى ، اثمة سبب آخر يدعوه الى هذا الموقف ؟ لقد اقام بيننا هنا اكثر من شهر لا يمرح قط كما يمرح القوزاقي الحق ، ويأبى أن يحتسي شراب العسل الأسود ، الذى انتزعته من اليهود في بريست » ، ثم صاح دانيلو : « ايه يا غلام ، اذهب الى الكيلار يا غلام وعجل ، وائتني بشراب اليهود ! انه يأبى ان يشرب حتى الفودكا ! فما قولك في هذا ؟ اني لأعتقد اعتقادا جازما يا سيدتي كاترينا انه لا يؤمن بالمسيح ، فما رأيك أنت ؟ » .

« لا يعلم الا الله حقيقة ما تزعم اى زوجي دانيلو ! » .

ومضى دانيلو يقول وهو يتناول الكوز الفخار من القوزاقي : « ما اعجب الأمر يازوجتي ، فان الكاثوليك الأقذار انفسهم يضعفون امام الفودكا ، ولا يمتنع عن الشراب الا الترك دون سواهم . ايه يا ستيتسكو ، او اصبت جرعة طيبة من شراب العسل في الكيلار؟ » .

« انما ذقته يا سيدى » .

« انك تكذب يابن الكلب ! انظر كيف حط الذباب على شاربك !

واني لارى فى عينيك انك اتيت على نصف سطل منه ، ايه يا لكم من فتية ايها القوزاق ! وما اعظم تهوركم ! يجود الواحد منكم لصاحبه بكل ما يملك الا الخمر يحتفظ بها لنفسه . لقد انقضى على آخر سكرة لى وقت طويل ،أى زوجتى كاترينا ، اليس كذلك ؟ » .

« وقت طويل حقا ! وى ، لقد .... » .

« لا داعى ، لا تراعى ، فلن اشرب الا كوزا واحدا » ، ثم غمغم وقد ابصر حماه ينحنى ليدخل الغرفة : « ها هو ذا شيخ الدراويش التركى قد ألم بالباب ! » .

وقال الأب وهو يخلع قبعته ويسوى حزامه الذى كان يتدلى منه سيف مرصع بالأحجار الكريمة : « ما هـذا يا ابنتى ؟ لقد اعتلت الشمس كبد السماء ولم يعد الفذاء بعد ! » .

« ان الفذاء جاهز يا سيدى وسنقدمه فى الحـال » ، ثم مضت ربة البيت الشابة تقول للخـادم العجوز التى كانت تمسح الطاسات الخشبية : « الى بقدر من لقيمات القاضى ! صبرا ، ولآتين بها بنفسى ، واذهبى أنت لتنادى الفلمان » .

واستووا جميعا على الأرض فى حلقة ، فجلس الاب تجاه الأيقونات وعن يساره دانيلو وعن يمينه كاترينا وعشرة من الفتيان الاخيـار يرتدون سترات زرقا وصفرا .

وقال الاب ملقيا ملعقته بعد ان اصاب من الطعام قليلا : « لا أحب لقيمات القاضى ، فليس فيها نكهة ولا طعم » .

وقال دانيلو بينه وبين نفسه : « انى لأعلم انك تؤثر عليها حساء اليهود » ، ثم مضى يقول فى صوت مرتفع : « ما لك تقول : ان لقيمات القاضى قد خلت من الطعم يا حماى ؟ اتراها سيئة الصنع ام ماذا ؟ ان زوجتى كاترينا تصنع من لقيمات القاضى ما لم يذق مثله شيخ القرية نفسه الا قليلا ، وما من داع يقتضيك الزراية بهـذه اللقيمات ، فانها طعـام مسيحى ، يصيب منه القوم الصـالحون والقديسون الأبرار جميعا » .

ولم ينبس الاب ببنت شفة ، وامسك دانيلو فلم يزد حرفا .

وقدم لحم الخنزير المشوى بالكرنب والبرقوق .

وقال أبو كاترينا وهو يتناول ملء ملعقة من الكرنب : « لا أحب لحم الخنزير ! » .

فقال دانيلو : « لم لا تحب الخنزير ، انما الترك واليهود هم الذين لا يأكلون لحم الخنزير » .

وقطب الأب حاجبيه وزاد غضبا على غضب .

ولم يصب من الطعام الا قليلا من ثريد الحنطة الســوداء الممزوج باللبن ، واستعاض عن الفودكا بســائل أسود فى زجاجة اخرجها من صــدره .

ونام دانيلو بعد الغذاء نوما عميقا ولم يستيقظ الا قرب المساء ، وجلس يـكتب الى معسكر القوزاق ، واستوت زوجته الشابة على اريكة الموقد تهز المهد بقدمها . اجل جلس دانيلو فى مكانه وعينه اليسرى على ما يكتب ، وعينه اليمنى تطل من النافذة ، وقد ابصر من خلال النافذة على مسافة بعيدة ، التلال المتلألأة ونهر الدنيبر ، تمتد خلفه الغابة الزرقاء الداكنة . وكانت الســـماء فى تلك الليلة الصافية الاديم تتالق فوقه ، ولكن دانيلو لم يكن يحدق النظر فى السماء البعيدة او فى الغـــابة الزرقاء ، بل كان يرقب لسان الأرض الذى يقوم عليه الحصن القديم ، فخيل اليه ان ضوءا يتلألأ فى نافذة صغيرة ضيقة من نوافذ الحصن ، على أن السكون كان شاملا فلا جرم اذن أن يكون ما تراءى له وهما من الأوهام ، ذلك انه لم يسمع الا همهمة نهر الدنيبر العميقة تنساب مياهه من تحته وصـــوت تكسر الامواج يتجاوب فى الفضاء وبعضها يلاحق بعضا ، ولم يكن النهــر يفعل ذلك عن اضطراب ، بل يغمغم ويدمدم كالرجل العجوز ، لا يجد شيئا يروق له ، فقد تغير كل شىء من حوله ، واشتبك فى عراك دائم والتلال والغابات والمروج التى تحف بضفتيه ، وحمل شكاته منها الى البحر الأسود .

وراى دانيلو على صفحة الدنيبر العريضة قاربا بدا كالنقطـــة السوداء ، ثم عاد الضوء يتــلألأ فى الحصن ، واطلق دانيــلو صفيرا خافتا فهرع اليه الخادم المخلص .

« اسرع باستيتسكو وائت بسيف مرهف وبندقية واتبعنى ! » .

وسألته كاترينا : « أو عزمت على الخروج ؟ » .

« أجل يا زوجتى ، فان الواجب يقتضينى ان ألقى نظرة على كل ناحية واستوثق من ان كل شىء يسير على ما يرام » .

« ولكننى اخشى البقاء هنا وحدى ، وقد اثقل النوم جفنى وماذا يكون من امرى اذا رايت الرؤيا نفسها مرة اخرى ؟ ثم اننى لا أومن أبدا بأنها رؤيا ، فقد بدت لى حقيقة واقعة » .

« لتبقين معك المراة العجوز ، وهناك ينام القوزاقى فى الغرفة الخارجية وفى الفناء » .

« لقد استغرقت المراة العجــوز فى النوم فعلا ، وانا لا أثق فى القوزاق لأمر ما ، افلا تستمع لى يا زوجى دانيلو ، وتغلق باب الغرفة من دونى وتأخذ المفتاح معك فلا يستبد بى الخوف وتدع القوزاق يرقدون أمام الباب ؟ » .

وقال دانيلو وهو ينفض التراب عن بندقيته ويحشوها بالبارود : « ليكن ماتشائين ! » .

وكان ستيتسكو الامين قد وقف مجهزا بكل ما يتزود به الرجل القوزاقى من عتاد ، ووضع دانيلو قبعتـــــه المصنوعة من فراء استراخان على راسه ، واوصد النافذة، ثم اغلق الباب بالمزلاج واقفله، ومضى فى رفق يلتمس طريقه بين أتباعه القوزاق المستغرقين فى النوم ، واجتاز الفناء ميمما شطر التلال .

وكانت السماء قد صفا أديمها أو كاد . وهب من نهر الدنيبر نسيم عليل ، وخيم السكون فلاتسمع نأمة ولا صوتا الا نواح نورس يتردد فى الفضاء البعيد ، ثم انبعث فى الجو فجـــأة حفيف خافت ، فاختبأ بورولباش وخادمه الأمين وراء الحسك الذى كان يخفى متراسا من الأشجار المجتثة ، ذلك أن شخصا كان يهبط سفح التل مرتديا سترة حمراء وقد حمل غدارتين وتدلى على جانبه سيف .

وقال دانيلو وقد شخص ببصره فيه من خلف الشجيرات : « انه حماى ! ترى اين يذهب هذه الساعة وماذا يدبر ؟ ايه يا ستيتسكو ، لا تدعه يغيب عن بصرك ، وانظر اى طريق يسلك » .

وهبط الرجل ذو السترة الحمرء ضفة النهر ، ثم انعطف متجها الى لسان الأرض .

فقال دانيلو : « آه ، اذن فهـذا هو مقصده ! وى ياستيتسكو ! لقد مضى الى وكر الساحر ! » .

« تالله انه لا يقصد سواه يا مولاى دانيلو ! والا رإيناه على الجانب الآخر ، ولكنه اختفى قرب القصر » .

« لنبرزن من مخبئنا ونقتف اثره ، فان وراء الاكمة ما وراءها ، وى يا كاترينا ، الم أقل لك : ان أباك رجل شرير لا يسلك فى شىء مسلك المسيحى الصالح ؟ » .

ومرق دانيلو وخادمه الأمين مجتازين لسان الأرض ، وسرعان ما غابا عن الأنظار فى طوايا الغابة الـــكثيفة التى تكتنف الحصن . وتألق ضوء فى النافذة العليا ، ووقف القـوزاقيان تحتها يلتمسان سبيلا الى تسلقها ، ذلك انهما لم يريا بوابة او بابا ، وما من ريب في انه كان فى الفناء باب ، ولكنهما حارا كيف يتسلقان السور اليه ؟ لقد كان يبلغ آذانهما على البعد صليل السلاسل وتفزز الكلاب .

وقال دانيلو وقد راى شجرة سنديان كبيرة تقوم تجاه النافذة : « ما بالى اضيع الوقت ؟ ابق هنا يا غلام ! لأتسلقن شجرة السنديان ، حتى استطيع ان ارى مباشرة ما بداخل الغرفة » .

وخلع حزامه ووضع سيفه على الأرض حتى لا يصلصل ، ثم أمسك بالغصون ورفع نفسه ، وكان الضوء لا يزال يتألق ثم استوى على غصن قريب من النافذة ، وامسك بالشجرة ، ونظر فى الغرفة ، فوجد فيها ضوءا وان خلت من الشموع وكان على الجدران رموز خفية واسلحة معلقة ، ولكنها كانت جميعا عجيبة تخالف ما يحمله الترك أو اهـل القريم أو البولنديون أو المسيحيون او السويديون النبلاء . وكانت الخفافيش تمرق تحت السقف روحة وجيئة ، فتنعكس ظلالها على الأرض والأبواب والجدران مقبلة مدبرة كلمح البصر ، ثم انفتح الباب فى سكون ، ودخل رجل يرتدى سترة حمراء ، ويمم شـطر المائدة مباشرة ، وكانت مغطاة بمفرش ابيض : « انه هو ! انه حماى ! » ، وانزلق هابطا قليلا ، وازداد بالشجرة التصاقا .

ولكن حماه لم يكن لديه متسع من الوقت ليرى : هل كان احد يختلس النظر اليه من خلال النافذة ؟ فقد اقبل على الغرفة مكتئبا كاسف البال ، ونزع المفرش عن المائدة ، فامتلأت الغرفة فى الحال

بضوء ازرق شفاف ، ولكن امواج الضوء الذهبى الشاحب التى غمرت الغرفة كانت تطغى ، ثم تنحسر كمياه البحـــر الأزرق ، فلا تمتزج به ، بل تتخلله سابحة فى خطوط كالعروق تجرى فى صميم المرمر ، ثم وضع الرجل قدرا على المائدة ، وراح يلقى ببعض الاعشاب فيها .

وانعم دانيلو النظر ، فوجده قد نضا عنه السترة الحمراء ، وارتدى سروالا فضفاضا كالذى يرتديه الترك ، وحمل غدارتين ، ووضع على راسه قبعة غريبة طرزت جميعا بحروف لا هيبالروسيةولابالبولندية، وتطلع دانيلو الى وجهه ، فوجده قد بدأ يتغير ، واستطال انفه وتدلى على شفتيه ، ولم يلبث فمه ان بلغ اذنيه ، وبرزت سن ملتوية من بين شفتيه ، وتمثل امامه الساحر الذى ظهر فى حفلة زفاف ابن الصاغ ، وراح بورولباش يحدث نفسه قائلا : « لقد صدقت رؤياك يا كاترينا ! » .

وشرع الســاحر يدور حــول المائدة ، واخــذت الرموز التى على الجدران تمضى فى التغير ، وازدادت سرعة الخفافيش فى مروقها محلقة هابطة ورائحة غادية ، وبدأ الضوء الأزرق يخفتثم يخفت حتى بدا للأنظار انه قد تلاشى أو كاد ، ثم انبعث فى الغرفة ضوء وردى جميل ، وتراءى للعين ان هذا الضوء العجيب راح يغمر كل ركن من اركان الغرفة فى صوت يتجاوب رنينه خافتا رفيقا . ثم غاب الضوء، وساد الغرفة ظـــلام دامس ، وخيم السكون الا من همهمة كصوت الريح تنطلق فى هداة الليل مرفرفة فوق صفحة الماء الساجى ، فتميل شجرة الصفصاف الفضى حتى تدفع به الى احضان الماء . وخيل الى دانيلو ان القمر يتألق فى الغرفة والنجوم تسبح خلالها ، وتطوف بها لمحات خفية من زرقة السماء الداكنة ، بل هو قد احس بلفحة من برد الليل تهب عليه منها ، ومر بخياله طائف جعله يشد شــاربه ليستوثق من انه ليس فى منام ، فقد تراءى له ان السماء التى كان يراها من خلال النافذة وقد ولت وحل محلها بيته هو ، وقد تدلت على جدرانه سيوفه التترية والتركية ، والتفت بالجدران رفوف جوت قدور الطهى وأوانيه ، وعلا المائدة خبز وملح ، وتدلى المهد من السقف، ولكن وجوها مخيفة كانت تطل بدلا من الأيقونات ، ورقد على اريكة الموقد ثم هبط ضباب كثيف فحجب هذا كله ، وعاد الظلام فأسدل

ستاره ، وانبعث الضوء الوردي في صوت عجيب فغمر الغرفة من جديد ، ثم تجلى الساحر مرة اخرى ، ووقف بلا حراك مرتديا عمامته الغريبة ، وزادت الأصوات ارتفـــاعا وعمقا ، وتألق الضوء الوردى الرقيق وتألق . ورفرف في وسط الغرفة شيء أبيض كالغمــــامة ، وخيل الى دانيلو ان الغمامة لم تكن غمامة ، وانما هي امرأة قد تمثلت للعين هناك ، ولكن مم صنعت ؟ أمن الهواء حقا ؟ وما بالها وقفت دون أن تمس الأرض أو تستند على شيء ؟ ولم شفت حتى بدا من خلالها الضوء الوردى والرموز السحرية التى على الجدار ؟ وها هي ذي تحرك الآن راسها الشفاف ، ويتألق في عينيها الزرقاوين الباهتتين ضوء رقيق ، وقد تجعد شعرها ثم استرسل على كتفيها كأنه ضباب رمادى شاحب ، واصطبغت شفتاها بحمرة خفيفة كشقشقة الفجـر يخايل الأنظار بنوره القرمزى يومض من خلال السماء الصافية بصبح، وكان حاجباها الأسودان لا يظهران الا لماما ، آه ! لقد كانت هي كاترينا! واحس دانيلو باطرافه تتجمد حتى غدت كالحجر ، وحاول أن يتكلم ، ولكن شفتيه تحركتا في صمت ولم ينطلق منهما أى صوت .

ووقف الساحر ساكنا لا يريم .

ثم ألقى عليها بالسؤال وقد وقف طيفها امامه يرتعد:«اين كنت؟» .

فانت في صوت رقيق : « واها لى ! لماذا دعوتنى ؟ لقد كنت في غاية السعادة ،اجل كنت في المــــكان الذى ولدت فيه واقمت بين ربوعه خمسة عشر عاما ، آه ، الا ما اطيبه من مكان ! ويا للمرج الأخضر الفياح الذى ألفت ان ألعب فيه ابان طفولتى ! لقد وجدت الأزهار البرية الحبيبة كعهدى بها دائما . ولا تقل عن كوخنا وحديقتنا ! وآه من الحنان الذى غمرتنى به امي وهي تطوقنى بذراعيها ! ويا للعجب الذى تجلى في عينيها ! لقد دللتنى وطبعت قبلة على شفتى وعلى وجنتى ، ومشطت شعرى الأشقر بمشط جميل ! » ، ثم حدجت الساحر بعينيها الباهتتين وقالت : « لم ذبحت أمى ؟ » .

وهز الساحر اصبعه في وجهها مهددا ، وقال : « او قد سألتك ان تتحدثى في هذا الأمر ؟ » ، وارتعدت الروح الجميلة الشفافة : « اين سيدتك الآن ؟ » .

« لقد استسلمت سيدتى كاترينا للنعاس ، فسررت لذلك ووليت

هاربة ، ذلك اننى كنت مشوقة منذ سنوات طويلة الى رؤية امى ، وقد عدت فتاة فى الخامسة عشرة من عمرى ، وهانذى احس باننى اصبحت فى خفة العصفور ، لم أرسلت فى طلبى ؟ » .

وقال الساحر فى صوت رقيق هامس يصعب على الأذن أن تتبين كلماته : « أتذكرين كل ما قلته لك بالأمس ؟ » .

« اذكره ! اذكره ! ولكننى لا ابخل بشىء فى سبيل نسيانه ، مسكينة كاترينا ! انها لا تعلم كثيرا مما تعلمه روحها ؟ » .

وقال دانيلو بينه وبين نفسه : « اذن فهذه روح كاترينا ! » ولكنه لم يأنس فى نفسه الجراة على الاتيان بأية حركة .

« تب يا أبت واستغفر ! اليس من المفزع أن يقوم الموتى من قبورهم بعد كل جريمة قتل تقترفها ؟ » .

فقال الساحر مهددا : « لقد عدت الى سيرتك الأولى ! لأسلكن السبيل التى اشاء ، ولأحملنك على فعل ما أريد ، ولسوف تحبنى كاترينا ! » .

فتاوهت هاتفة : « تبا لك ! انك لوحش ولست بأبى ، كلا ! لن يكون لك ما تريد ! صحيح أن سحرك الدنس يهب لك من القوة ما تستطيع به ان تستحضر روحها وتعذبها ، ولكن الله وحده هو الذى يستطيع ان يسيرها كما يشاء ، حاشى ! كاترينا لن تتنزل الى اقتراف هذا الاثم ما دمت احل فى جسدها . ابتاه ! لقد دنت ساعة القصاص الرهيب ! وهيهات أن تحملنى على خيانة زوجى المخلص المحبوب ، وان كنت شخصا آخر غير ابى . ولو قد عقنى زوجى ، وتنكر لعهدى ما خنته ، فان الله لا يحب من يخلف وعده وينكر العهود والمواثيق »، ثم تعلقت عيناها الشاحبتان بالنافذة التى ربض دانيلو من تحتها ، ووقفت ساكنة لا حراك بها .

وصاح الساحر : «فيم تحدقين النظر ؟ ومن ذا الذى ترينه هناك؟»

واضطرب طيف كاترينا ، الا ان دانيلو كان قد هبط الى الأرض ، وانطلق هو وخادمه الأمين ستيتسكو . يشق الطريق الى داره فى الوادى ، وغمغم يقول بينه وبين نفسه وقد احس برعدة تسرى فى قلبه القوزاقى : « يا للفظاعة ! يا للفظاعة ! » ، واجتاز فى عجلة فناء

داره فوجد القوزاق قد استسلموا للنوم فيه كشأنهم ، الا واحدا جلس يسهر عليهم وهو يدخن غليونه .

وكانت السماء مرصعة بالنجوم .

— ٥ —

وهتفت كاترينا وراحت تمسح عينيها بردن قميصها المطرز ، وتحدق فى زوجها بنظراتها وهو واقف قبالتها : « لشد ما ابهج قلبى انك ايقظتنى ! الا ما ابشع الحلم الذى رايته ! لقد أوشك ان يزهق منى الأنفاس ! اواه ! لقد ظننت انى احتضر » .

« وكيف كان حلمك ؟ كان هكذا ؟ » ، وراح بورولباش يحدث زوجته بكل ما رأى .

وسألته كاترينا فى دهشة : « ايه يا زوجى ، كيف عرفت حلمى ؟ ولكن كلا ، فانى لا اعرف الكثير مما حدثتنى به ، اجل ، لم أر فى حلمى ان ابى قتل امى ، ولم اشهد الموتى فى رؤياى ، كلا يا دانيلو ، انك لم تسرد الحلم على حقيقته ، اواه ! ويا لأبى من رجل مخيف!» .

« ما من عجب انك لم تحلمى بما رأيت ، وان ما تعرفينه لا يبلغ عشر معشار ما تعرفه روحك ، أتعرفين ان أباك عدو المسيح ، فقد حدث فى العام الماضى وانا اتأهب للانضمام الى صفوف البولنديين فى الحرب التى شنوها على اهل القريم وكنت آنئذ لا زال حليفا لأولئك القوم الكافرين — ان علمت من رئيس رباط الأخوة (وهو يازوجتى رجل تقى ورع) ان عدو المسيح له سلطان على الأرواح ، فهو قادر على استحضار أرواح الناس جميعا ، ذلك ان الروح تهيم كما تشاء حين يخلد الجسم الى النوم ، وتطوف مع رؤساء الملائكة حول عرش الله ، وقد كرهت وجه ابيك مذ وقع عليه بصرى لأول وهلة ، وما كنت لأتزوجك لو عرفت أن لك أبا على هذه الشاكلة ، فقد كان اولى بى ان اهجرك ، ولا احمل ضميرى وزر الاقتران بربيبة عدو للمسيح » .

فصاحت كاترينا وقد اخفت وجهها بيديها وانفجرت باكية : « اى دانيلو ! ما الذى تأخذه على ؟ أو قد خنت عهدك يا زوجى المحبوب ؟ واى ضير ارتكبت حتى أثرت غضبك ؟ ألم اصدق فى خدمتك ؟ وهل

كانت تبدر منى كلمة واحدة حين تعود مرحا من سكرة ؟ الم الد لك ابنا مشرق الوجه ضاحك الجبين ؟ » .

« لا تبكى يا كاترينا ، لقد عرفتك الآن ، وما من شيء يحملنى على هجرانك ، وانما الوزر وزر ابيك وحده » .

« لا تقل انه ابى ! فما هو بأبى ! والله على ما اقول شهيد ، انى انكره ! اجل انكر ابى ! فهو عدو للمسيح ، وقد عصى الله ! ولو قد رأيته يهلك أو يغرق ما مددت يـــدا لانقـاذه ، ولئن ألهب عشب سحرى حلقه ما ناولته قطر من ماء ، وليس لى من اب سواك ! » .

- ٦ -

وكان الساحر مقيدا بالسلاسل الحديدية يرقـد فى جب عميق تحت الأرض بدار دانيلو وقد اوصد من دونه باب احكم اغلاقه بثلاثة اقفال ، واخذت النار تشـــتعل فى قصره الجهنمى الذى يعلو نهر الدنيبر ، وراحت أمواج النهر تصطخب وتفور حول الجدران متوهجة كالدم القانى ، ولم يكن ما نزل بالساحر من حبس فى هذا الجب القائم تحت الأرض جزاء له على السحر الذى يمارسه أو الاعمال الشريرة التى يقترفها ، فان الله وحده هو مجازيه على هذه الأفعال ، وانما كان السبب فى حبسه هو خيانته للعهد سرا ، ذلك انه كان قد تآمر هو وأعداء روسيا الأرثوذكسية على بيع الشعب الأوكرانى الى الكاثوليك واحراق الكنائس المسيحية . لقد كان الساحر مكتئبا كاسف البال تطوف بذهنه افكار سود كالليل البهيم ، ولم يبق له فى هـذه الدنيا الا يوم واحد ، فقد كان ينتظر مصيره غدا ، ويا له من مصير رهيب ارحم ما فيه أن يلقى به حيا فى مرجل يغلى حتى يموت أو يسلخ عنه جلده الآثم ! لقد كان الساحر مغتما مهموما منكس الراس ، ولعله كان يتوب ويستغفر وقد اصبح على حافة القبر ، ولكن ذنوبه لم تكن بالذنوب التى يغفرها الله . وكانت من فوقه نافذة صغيرة يغشاها شباك من حديد ، وتطلع الساحر من النافذة راسفا فى اغلاله المصلصلة آملا ان تكون ابنته ، تلك الحمامة الوديعة البريئة ، مارة بمحبسه ، فتدركها الرحمة بأبيها ، ولكنه لم يجد احدا . وكان الطريق يمر

تحت النافذة مقفرا لا يجتازه مخلوق ، وانما يجرى من تحته نهــر الدنيبر يضطرب غير حافل بأحد ، ويهمهم ويهــــدر ويبلغ صوت رشاشه الرتيب مسامع السجين كئيبا موحشا .

ثم ظهر شخص يسير فى الطريق ، وكان هـــذا الشخص رجلا من القوزاق ، وتنهد السجين من اعماق قلبه ، وعاد الطريق فخلا من المارة ، ثم بدا شخص يهبط التل ، ورفرف معطف اخضر بفعل الريح، وتألق على راس صاحبته غطـاء ذهبى ، لقد كانت هى ! واقترب المعطف من النافذة شيئا فشيئا ، وتبين انها أخذت تدنو من السجين الان .

« اى ابنتى كاترينا ! ارثى لحالى وارحمينى ! » .

ولزمت كاترينا الصمت المطبق ، وابت ان تنصت ، ولم تلتفت الى السجين تلقى عليه نظـرة ، ثم مرت به واختفت ، واقفرت فى عينيه الدنيا بأسرها ، واخذ نهر الدنيبر يهدر فى وحشة وكآبة ، ويثقل القلب بحمل من الحزن والأسى ، ولكن ترى هل كان الساحر يعرف شيئا من هذا الحزن ؟ .

كان النهار يلفظ انفاسه الأخيرة والشمس تولى ، ولم تلبث ان اختفت ، وحل المساء ، واصبح الجو رطيبا منعشا ، وانبعث ثور يخور فى مكان ما ، وانطلقت اصوات تسبح من بعيد ، ولا شك انها كانت لقوم يعودون من العمل الى ديارهم وهم يمرحون وتراءى للأنظار قارب يشق عباب نهر الدنيبر ، ولم يفكر احد فى أمر ذلك السجين المقيد بالأصفاد ، واخذ هلال فضى يتألق فى السماء ، واقبل انسان من الجهة المقابلة يسير فى الطريق ، ويتعذر على العين أن تستبين شكله فى الظلام ، وكان هذا الانسان هو كاترينا تعود أدراجها .

« اى ابنتى ، هلا تستمعين الى بحق المسيح ! ان صغار الذئاب المتوحشة نفسها لا تمزق امها اربا اربا ، اى ابنتى ! هـــلا تجودين بنظرة واحدة على ابيك الآثم ! » .

ولكنها لم تحفل به ، ومضت فى طريقها ! .

« اى ابنتى ، انى استحلفك بأمك الشقية ! » .

فتوقفت .

« ادنى منى واستمعى لكلماتى الأخيرة ! » .

« لماذا تناديني يا عدو الله ؟ لا تقل يا ابنتي ! فليس بيننا قرابة ولا نسب ! ماذا تريد منى حتى تستحلفنى بأمى الشقية ؟ » .

« كاترينا ، لقد اقتربت نهايتى ، وانى لأعلم ان زوجك يريد أن يربطنى بذيل فرس برية ويطلقها تركض فى الخلاء ، ومن يدرى ؟ لعله يدبر لى مصيرا اشد هولا من هذا المصير ! » .

« ولكن افى هذه الدنيا قصاص يجزيك الجزاء العادل على ما ارتكبت من آثام ؟ الا فلتنتظر ما يحل بك من قصاص ، ولن يطلب احد لك الرحمة » .

« كاترينا ، انا لا اخشى القصـــاص فى هذه الدنيا ، وانما الذى اخشاه هو عذاب الآخرة . كاترينا ، انك لطـاهرة نقية ، ولسوف ترفرف روحك حول عرش الله فى الفردوس ، واما روح ابيك الشريرة فسوف تحترق فى نار لا تنطفىء لها جذوة ولا يخمد لها اوار ، بل تزداد ضراما على ضرام ، فلا تجودها قطرة من ندى ، أو تمر بهـــا نسمة من ريح ! » .

فقالت كاترينا مشيحة عنه : « لا حيلة لى فى التخفيف من عذابك » .

« كاترينا ! صبرا ، فقد بقيت لى كلمة واحدة ! فى وسعك ان تنقذى روحى ، فانك لا تعرفين بعد مبلغ ما تصل اليه رحمـــة الله وكرمه ، الم تسمعى قصة بولس الرسول ؟ لشد ما لج هذا الرجل فى الاثم ، ولـكنه تاب بعد ذلك واناب ، فدخل فى زمرة القديسين الأبرار ! » .

فقالت كاترينا : « وماذا استطيع ان افعل لانقذ روحك ؟ وكيف يجوز لى انا المرأة الضعيفة ان افكر فى هذا ؟ » .

« لو استطعت الخروج من سجنى لنبذت كل شىء ، وتبت الى الله ، ولذت بكهف واكتفيت بقميص من الشعر القيه على جسدى ، واقمت الصلاة لا انقطع عنها ليلى ولا نهارى . أجل لو حدث هذا لأمسكت عن اكل اللحم بل السـمك ايضا ! وافترشت الغبراء فى منامى ، ومضيت أصلى وأصلى بلا انقطاع ! ولو اقتضت مشيئة الله الا يغفر برحمته من ذنوبى الا أيسر اليسير لدفنت نفسى فى الأرض حتى عنقى ، أو حبستها فى سجن عليه اسوار من الحجارة ، وامتنعت عن الطعام والشراب حتى القى حتفى ، ووهبت للرهبـان متاعى جميعا

لعلهم يرتلون الصلوات على روحى أربعين يوما واربعين ليلة » .

وفكرت كاترينا قليلا ثم قالت : « اذا كنت استطيع ان اخرجك من محبسك فكيف استطيع أن افك قيودك ؟ » .

فقال : « اننى لا اخشى الاغلال ، اتقولين : انهم قيدوا يدى وقدمى ؟ كلا ، فقد القيت على عيونهم غشاوة ولم الق لهم بيدى ، وانما مددت لهم خشبتين جافتين » . ثم مضى يقول وهو يسير الى وسط القبو : « هاك ، انظرى ! فما من قيد يغل الآن يدى او قدمى ! وما كنت لأخشى هذه الجدران ايضا فانى أستطيع ان انفذ منها ، ولكن زوجك لا يعرف سر هذه الجدران ، قد بناها ناسك ورع ، وما من قوة من قوى الشر بقادرة على تخلص منها سجينا الا اذا توسلت بالمفتاح الذى جرى الناسك على ان يغلق به هو نفسه صومعته ، تلك الصومعة التى سابنى مثلها سواء بسواء ، انا الآثم الممعن فى الاثم ، حين املك حريتى مرة اخرى » .

فقالت كاترينا وهى تقف ساكنة بالباب : « استمع الى ، فانى مطلقة سراحك ، ولكن ماذا يكون لو خدعتنى ولم تتب وعدت كما كنت ربيبا للشيطان ؟ » .

« حاشى يا كاترينا ، فلم يبق فى اجلى الا القليل ، لقد دنت نهايتى وان لم يقتصوا منى بالقتل ، اتصدقين اننى عولت على ان اسلم القصاص الأبدى نفسى ؟ » .

وصرف المفتاح فى القفل .

وقال الساحر وهو يقبلها : « وداعا ! وليكلأك الله بعنايته ورحمته يا ابنتى ! » .

وقالت كاترينا : « لا تلمسنى ايها الآثم الزنيم ، واذهب وعجل ! » .

وولى الساحر .

وقالت كاترينا تحدث نفسها وقد استبد بها الرعب ، واخذت تنظر الى الجدران نظرة زائغة : « ماذا دهانى حتى اطلقت سراحه ؟ وماذا اقول لزوجى الآن ؟ لقد اصبحت من الهالكين ، ولم يبق لى الا ان ادفن نفسى حية ! » وانبعثت تبكى وتنتحب واوشكت ان تسقط على كتلة الخشب التى كان السجين يجلس عليها ، ثم مضت تقول فى صوت رقيق : « ولكننى انقذت روحا ، فاتيت بذلك عملا صالحا ، الا اننى

خدعت زوجى للمرة الأولى ، أواه ! ما افظع ما اتيت ! وما اشد على نفسى ان اكذب عليه ! وى ! ان شخصا يقترب ! أنه هو زوجى ! » ، وصرخت صرخة تفيض باليأس والقنـــوط ، وسقطت على الارض فاقدة الوعى .

– ٧ –

وما ان ثابت كاترينا الى رشدها حتى رأت الخادم العجوز وسمعت صوتا يهتف بها : « اننى انا هى ، يا ابنتى ! اننى أنا هى يا حبيبتى!» ، وانحنت المرأة عليها ، وبدا انها تهمس بشىء فى اذنهــا ، ومدت يدها الواهنة الذابلة ونضحتها بالماء .

وقالت كاترينا وهى تجلس ملتفتة حولها : « اين انا ؟ ان نهر الدنيبر يهدر امامى ، والتلال تقوم من خلفى ، فالى أين أخذتنى ؟ » .

« لقد نقلتك الى خارج البيت ، وحملتك بين ذراعى من القبـــو الخانق ، ثم عدت فأغلقت القبور حتى لا يسىء اليك سيدى دانيلو » .

وقالت كاترينا وهى تنظر الى حزامها : « وأين المفتـــاح ، فانى لا اراه ؟ » .

« لقد اخذه زوجك ليلقى نظرة على الساحر يا ابنتى » .

فصاحت كاترينا تقول : « ليلقى نظرة على الســـاحر ! اذن فقد هلكت ! » .

« فلينقذنا الله برحمته من هذا البلاء يا ابنتى ! وحسبك ان تتذرعى بالصمت يا سيدتى الصغيرة ، فلا يعرف احد من هذا الأمر شيئا » .

وقال دانيلو وهو يمضى الى زوجته : « لقد هرب الملعون عدو المسيح! أتسمعين يا كاترينا ؟ لقد هرب ! » ، وانبعث الشرر من عينيه ، واخذ سيفه يقعقع الى جانبه ، اما زوجته فكانت اقرب الى الأموات منها الى الأحياء .

وغمغمت وهى ترتعد : « أو اطلق سراحه احد يا زوجى العزيز؟ » .

« أجل ، لقد صدق ظنك ، فان الشـــيطان هو الذى اطلقه من محبسه ، انظرى ، لقد ترك مكانه كتلة من الخشب مصفدة بالأغلال ، ويخيل الى ان مشيئة الله قد قضت بألا يخشى الشيطان يد رجل

من القوزاق ! ولو قد دار بخلد احد ان يأتى مثل هذا الفعل وعلمت بامره ما وجدت عقابا استطيع ان اجزيه به ! » .

ولم تستطع كاترينا ان تقاوم رغبتها فى السؤال : « واذا كنت انا التى فعلت هذا ... ؟ » . ثم كفت عن الكلام وقد تملكها الفزع .

« لو كنت فعلت هذا ما اصبحت زوجتى ، ولوضعتك فى كيس ثم خطته من دونك ، وقذفت بك فى عرض الدنيبر » .

ولهثت كاترينا مبهورة الأنفاس ، واحست بشـــعرها يقف على راسها .

— ٨ —

وكان البولنديون قد تجمعوا فى حانة على طريق الحدود ، وظلوا يحتفلون فيها يومين لا يخالطهم من الغوغاء الا القليل ، وما من شك فى ان اجتماعهم كان لغارة يشنونها ، فقد حمل بعضهم البنادق ، وانبعثت المهاميز تجلجل والسيوف تصلصل واخذا الأعيان يمرحون ويتفاخرون، ويتشدقون بمـــا اتوه من عجيب الفعال ، ويسخرون بالمسيحيين الأرثوذكس ، ويسمون الأوكرانيين عبيدهم ، ويفتلون شواربهم فى قحة ، ويتمرغون على الآرائك . وكان من بينهم قسيس ، ولكنه كان على شاكلتهم لا تبدو عليه سمة واحدة من سمات القسيس المسيحى ، فقد كان يشرب معهم وينادمهم ويجرى لسانه الآثم بكلمات يندى لهـــا الجبين خجلا .

ولم يكن الخدم احسن حالا من اسيادهم ، فقد شمروا عن اردان سترتهم المهلهلة ، وراحوا يسيرون متبخرين كأنهم من ذوى الجـــاه والخطر ، ويلعبون الورق ويضرب كل منهم الآخر بالورق على انفه ، وكانوا قد جاءوا معهم بزوجات غيرهم ، يعمى العيون ، واختلط الحابل بالنابل ، الا ان القوزاق كانوا فى قمة مرحهم ، يأتون من الالاعيب اشكالا والوانا فيجذبون صاحب الحانة اليهودى من لحيته ، ويرسمون بالطلاء صليبا على جبينه الفاجر ، ويرمون النساء بطلقات فارغة من البارود ، ويرقصون الرقصة الكراكوفية مع قسيسهم الزنديق . ولم تشهد الأرض الروسية من قبل مثل هذا الاثم حتى بين التتر ، ولعل

الله قد اقتضت مشيئته أن ينزل بروسيا هذا الخزى العظيم على ما اقترفت من آثام . وكان يسمع فى غمرة هذه العربدة الشبيهة بعربدة المجانين لغط صادر عن دار دانيلو التى تعلو نهر الدنيبر وعن زوجته الحسناء .

وكان من الجلى ان هذه العصابة تدبر امورا شنعاء .

- ٩ -

وجلس دانيلو على المائدة فى داره وقد استند الى مرفقه ، واستغرق فى تأملاته . وجلست كاترينا على اريكة الموقد تغنى .

وقال دانيلو : « أى زوجتى ، اننى لحزين ، مصدع الراس كسير القلب ، وقد انهد منى الجسم حتى ليبدو لى أن منيتى اصبحت قريبة » .

وكانت كاترينا تريد ان تقول : « أواه ! يا زوجى الحبيب ! اسند راسك على ! ما بالك تستسلم لمثل هذه الأفكار السود ؟ » ، ولكنها لم تجرؤ على النطق بهذه الكلمات فقد حز فى نفسها أن تأتى هذا الاثم وتلقى من زوجها التذليل والاعزاز .

وقال دانيلو : « استمعى الى اى زوجتى ! لا تتخلى عن ابننا ، حين ينتهى اجلى ، وليحرمنك الله طعم السـعادة فى الدنيا والآخرة ان فعلت ، فما اشقى أن تتحلل عظامى فى الأرض الرطبة ، واشقى من ذلك وقعه على روحى ! » .

« زوجاه ، ماذا تقول ؟ السـت انت الذى كنت تسخر منا نحن النساء الضعيفات ، ان أمامك عمرا مديدا لابد أن تعيشه » .

« كلا يا كاترينا ، ان قلبى يحس بدنو الأجل ، والدنيا تضيق فى عينى ، وأمامنا أيام شداد ، آه ! انى لأذكر ، أجل اذكر السنوات ... وهيهات أن تعود ! لقد كان يعيش آنئذ ، كوناشيفتش العجوز الذى تمثل فيه شرف جيشنا ومجده وفخاره ! ان الفرقة القوزاقية تمر الآن أمام عينى كأنما يحدث ذلك اليوم » .

« لقد كانت ايامنا مجيدة يا كاترينا ! يستوى فيها شيخ القوزاق العجوز على ظهر جواد أسود أصيل ، ويتألق الصولجان فى يده ويقف الحرس من حوله ويسير على جانبيه بحر ضخم احمر من الزابوروجاويين وما أن يشرع الزعيم فى الكلام حتى يقف الجميع كأنهم سمروا فى الأرض

تسميرا . لقد كان العجوز يبكى حين يحدثنـــا عن الغزوات والمواقع الماضية ، آه ياكاترينا ، لو تعلمين كيف كنا نقاتل الترك فى تلك الأيام ! ان أثر الجرح الذى فى راسي لا يزال ظاهرا حتى الآن ، وقد نفذت فى جسمى اربع رصاصات فى اربعة مواضع ، ولم يشف منها جرح واحد تمام الشفاء ، ويا للذهب الذى غنمناه فى تلك الأيام ! » .

« لقد ملأ القوزاق قبعاتهم بالأحجار الكريمة ، ويا للجياد ! ، وى ! ان عدد ما سقناه امامنا منها لفوق ما تتصورين ! هيهات أن اقاتل مثل هذا القتال مرة اخرى ! ان الوهم ليصور لى اننى لا زلت قوى الجسم لم تمض بى السن بعد ، ولكن السيف يسقط من يدى ، وهأنذا اعيش مقيدا لا افعل شيئا ، ولست ادرى : لم اعيش ؟ لقد تلاشى النظام فى اوكرانيا ، واصبح افراد الجيش وضباطه يتشاجرون كما تتشاجر الكلاب ، وليس من فوقهم رئيس يمسك بزمامهم ، وبدل خاصتنا كل شيء ووسموه بطـابع البولنديين . واخـــذوا عنهم اساليبهم الماكرة الخبيثة . لقد باعوا أرواحهم واعتنقوا مذهب الأونيات ، وراح اليهود يضطهدوا الفقراء ، آه ! اين تلك الأيام ! اجل اين تلك الأيام الماضية ! واين انت يا ايام شبابى ؟ اذهب الى القبو يا غلام وائتنى بابريق من نبيذ العسل ! ولأشربن نخب الماضى ، نخب السنوات التى ذهبت ولن تعود ! » .

وقال ستيتسكو وهو يلج الغـــــرفة : « كيف نستقبل ضيوفنا يا مولاى ؟ ان البولنديين مقبلون من جانب المرج » .

وقال دانيلو وقد هم بالوقوف : « لا اعرف سبب مجيئهم ، اسرجوا جيادكم أى رجالى المخلصين ! وارتدوا دروعكم واشهروا ســـيوفكم ! ولا تنسوا ان تتزودوا بمئونتكم من الرصاص ، فان الواجب يقتضينا أن نكرم ضيوفنا ! » .

وما ان هم القوزاق بأن يسرجوا جيادهم ويحشوا بنادقهم حتى كان البولنديون قد غطوا سفح التل كما تغطى اوراق الأشجار اديم الأرض وقت الخريف .

وقال دانيلو وهو ينظر الى البولنـــديين الأشداء وهم يتقدمون الصفوف ، يتمايلون فى رزانة ووقار على ظهور جيادهم الأصيلة ذات السروج الذهبية « آه ! هاكم اعداء نختبر قوتنا معهم ! ولعل من

نصيبنا ان نخوض غمار جولة مجيدة اخرى ! فطيبى أيتها النفس القوزاقية للمرة الأخيرة ! وهلموا ايها الفتيان ، فقد اقبل العيد ! » .

واقيم العيد على التلال ، وكان القصف والمرح عظيمين ، فقد اخذت السيوف تتلاعب والرصاص يتطـــاير والجياد تصهل وتضرب الأرض بقوائمها ، وكان الصياح يذهل العقل ، والدخان حتى عن نفسها ، وراحت تصب على راسها اللوم فى صوت يعرف عدوه من صديقه ، وكلما دوت رصاصة سقط فارس كريم عن سرجه ، وكلما برق سيف هوى راس على الأرض يدمدم ويغمغم بكلمات متقطعة لا تفصح ولا تبين.

على ان قبعة دانيلو القوزاقية كانت تبدو للعيان دائما فى غمرة هذه الزحمة ، وكان حزامه الذهبى يطوق سترته الزرقاء الداكنـــة يتألق ويتلألأ ، وعرف جواده الأسود الأصيل يخفق مع الريح . وكان دانيلو يمرق هنا وهناك فى خفة الطـــائر يصرخ ويلوح بسيفه الكريم يطيح بالرءوس يمنة ويسرة . ايه ايها القوزاقى ، اطح بالرءوس وامرح ! واشف قلبك النبيل ! ولكن لا تنظر الى السترات والحلى الذهبية وطأ الذهب والجواهر بقدميك ! ولكن التفت وراءك ، فقد اخذ البولنديون الأشرار يشعلون النار فى الأكواخ ويسوقون الماشية المرتاعة أمامهم . وعاد دانيلو ادراجه كالزوبعة ، واخذت القبعة ذات الريشة الحمراء تتألق بجوار الأكواخ ، ويتفرق شمل الزحمة الضاربة حوله .

وتقاتل البولنديون والقوزاق ساعة بعد ساعة ، فما بقى من الجانبين الا القليل،ولم يخفف دانيلو من حراراته ، بل راح يطعن برمحهالطويل فرسان البولنديين فيسقطهم عن سروجهم ويطأ جواده الأصيل الجرىء مشاتهم ، حتى أوشك فناء داره ان يخلو من الغزاة . وتعلقالبولنديون بأذيال الفرار ، واخذ القوزاق ينتزعون السترات الذهبية ، والزينات الفاخرة عن اولئك الذين قضوا عليهم ، وانطلق دانيلو يطارد من ولى الأدبار منهم ، وتلفت ليجمع شتات رجاله ، ولكن الغضب غلب عليه ، فقد راى ابا كاترينا .

وكان الرجل يقف على سفح التل يصوب بندقيته نحوه ، وحث دانيلو جواده مندفعا اليه لا يلوى على شىء : قف ايها القوزاقى ! انك تسعى الى حتفك بظلفك ! ثم انطلقت رصاصة وتوارى الساحر خلف التل ، وغاب عن الانظار ، وانما لمح ستيتسكو الأمين سترة الساحر

الحمراء وقبعته الغريبة ، وترنح القوزاقي وسقط على الأرض ، وهب ستيتسكو لنجدة سيده ، فوجده ملقى فوق الثرى وقد غمض عينيه المتألقتين وراح الدم القانى ينبثق من صدره . على أنه كان يحس وجود خادمه الأمين بلا شك . ورفع دانيلو حاجبيه فى تثاقل وتألقت عيناه وهمس : « وداعا يا ستيتسكو ! قل لكاترينا الا تتخلى عن ابننا ! وأنتم يا خدم المخلصين لا تتنكروا له ! » ، ثم امسك ، وفارقت روحه الكريمة جسده النبيل ، وازرقت شفتاه ، وأخذ القوزاقى الى نوم طويل لا قيام بعده .

وانتحب خادمه الامين واومأ الى كاترينا : « تعالى يا سيدتى ، تعالى ! لقد كان زوجك يلهو ويشرب ، وها هو ذا ينام الان على الأرض الرطيبة نشوان ثملا ، ولن يفيق الا بعد زمن طويل ! » .

وعصرت كاترينا يديها وارتمت على الجسد المسجى : « اى زوجى ، االنت الذى ترقد هنا مغمض العينين ؟ انهض أيها الحبيب ومد يدك ! انهض ! والق نظرة واحدة على زوجتك كاترينا . حرك شفتيك ، وقل كلمة واحدة ، كلمة واحدة فحسب . ما بال لسانك قد انعقد ولج فى الصمت يا زوجى الكريم ؟ لقد اسود لونك حتى حاكى البحر الأسود ، وكف قلبك عن النبض . لم شاعت كل هذه البرودة فى جسمك ياسيدى وتاج رأسى ؟ يخيل الى أن دموعى لم تبلغ من الحرارة ما يبعث الدفء اليك ! ان بكائى لم يرتفع الى حد العويل حتى يوقظك ! أين من يقود كتائبك الآن ؟ ومن ذا الذى ينطلق بجوادك لأسـود الأصيل ويهتف بالصوت المجلجل ويقود القوزاق ملوحا بسيفه ؟ أيها القوزاق ، أيهـا القوزاق ! أين من كان رمز شرفـكم ومجدكم ؟ انه ملقى الآن مغمض العينين على أديم الثرى الرطب ! ادفنونى ، ادفنونى معه ! واهيلو على عينى التراب ! ، ودعوا ألواح شجر الاسفندان يجثم على صدرى الأبيض ! فاى نفع أرجوه الان من ملاحتى وحسنى ؟ » .

وحزنت كاترينا وبكت ، وثار النقع فغطى الأفق البعيد ، ذلك ان الصاغ جوروبتس العجوز كان قد خف لنجدة مواطنيه .

ــ ١٠ ــ

ما أجمل الدنيبر تنساب مياهه فى الجو الهادىء منطلقة ناعمة

KMH

خلال الغابات والتلال ، لا ينبعث منها صوت ولا تحس لها خريرا ولا هديرا ! فاذا نظرت اليه لم تدر : أيتحرك هذا الخضم في جلاله أم لا يتحرك ؟ وقد تكون مياهه من البلور المنصهر تشق طريقهـا خـلال البقاع الخضر كأنها لوح من الزجاج الأزرق لا يعرف له مدى ولا تدرك له نهاية ، ويطيب للشمس اللافحة في مثل هذا الجو ان تطل من برجها العالي وتختلس النظر الى نفسها وتنفذ اشعتها المتألقة في مياه النهر الرطيبة الساجية ، ويحلو للضفتين الشجراوين ان ترقبا ظلالهما المتألقة وهي تنعكس في الماء ، وتدنو الغابات في حلتها الخضراء هي والأزهار البرية من حافة النهر حانية عليه تتأمله فلا تمل من الاعجاب بصورتها الرائعة المائلة فيه ، ثم تبتسم له وتحييه بايماءة من اغصانها . على انها لم تكن لتجرؤ على النظر في عرض الدنيبر ، وانما يستطيع ذلك الشمس والسماء الزرقاء . الا ما اروعك يا نهر الدنيبر : وهيهات ان يكون لك مثيل في هذا العالم ! ، وما اجمل نهر الدنيبر في ليلة من ليالي الصيف الدفيئة حين تستسلم للكرى عيون الناس جميعا ! فيهجع الانسان والحيوان والطير ، ولا يبقى الا الله وحده ساهرا يرعى بجلاله وعظمته الارض والسماء ، ويهز ثوب ملكوته في عظمة وجلال ، فتتناثر النجوم فيه ، وتتألق ويسطع نورها على العالم وتنعكس جميعا على صفحة نهر الدنيبر ،وتنطوي كلها في احضانه المظلمة ، لا يفلت منها احد الا اذا انطفأ نوره في السماء . وتتدلى الغابات السود تناثرت فيها الغربان النائمة والتلال انشقت شعبا من تعاقب الدهور وكر الأيام ، وتحاول جاهدة ان تطويه في غمرة من ظلالها الوارفة ، ولكن هيهات !

فما من شيء في العالم يستطيع ان يخفى عن الأنظار نهر الدنيبر ، فهو ينساب عميقا في زرقة داكنة ، وينتشر ماءه في جميع الأرجاء ، فتراه العين في منتصف الليل كما تراه في الظهيرة بعيدا جدا ، على قدر ما يمتد البصر ، وهو ينكمش من برد الليل ، فيدنو من الشاطىء اكثر ويخلف وراءه أثرا من لجين يلمع لمعان النصل في السيف الكريم ، وتعود مياهه الزرق الداكنة فتهجع مستسلمة للنوم . الا ما اجمل نهر الدنيبر وهو على هذه الحال ! وهيهات أن تجد له بين انهار العالم مثيلا ! .

فاذا تجمعت سحب العاصفة الزرق الداكنة في السماء اهتزت الغابة

السوداء حتى الجذور ، وتراقصت أشجار السنديان وأضاء البرق العالم كله فجاة ، وراح يتلوى بين السحب ، وعندئذ يكون نهر الدنيبر مخيفا مهرولا تهدر أمواجه صاخبة تحاكى الجبال وتنقض على التلال ، وترتد مندفعة تومض وتئن وتولول وتنوح فى الفضاء البعيد ، وتنهج نهجا الأم العجوز اذ تودع ابنها وهو ماض الى الحرب ، وينطلق الفتى ممتطيا صهوة جوده الأسود الاصيل فى جراة واستهتار ، وقد وضع ذراعيه فى خاصرته ، ومال بقبعته اللطيفة على جانب رأسه ، وراحت الأم تركض وراءه منتحبة تتعلق بركابه وتمسك باللجام ، ثم تعصر يديها عصرا من أجله وتذرف الدمع حارا سخينا .

وكانت جذامير الأشجار المحروقة والأحجار التى على الضفة النائية تصطخب من حولها الأمواج تبدو غريبة المظهر سود اللون . وضربت الأمواج القارب الذى أدلى الى الماء وقذفت به الى الشاطىء ورفعته ثم هوت به . ترى أى قوزاقى هذا الذى اجترأ على التجديف فى قارب ، ونهر الدنيبر العريق فى ثورته وهياجه ؟ لا شك انه يجهل أن النهر يبتلع الرجال كأنهم الذباب .

وبلغ القارب الشاطىء ، ونزل منه الساحر ، ولم يكن الرجل منشرح الصدر صافى المزاج ، فقد حز فى نفسه أن يرى الجنازة التى أقامها القوزاق احتفالا بسيدهم القتيل . ودفع البولنديون الثمن غاليا ، فقد لقى الموت منهم اربعة واربعون رجلا فى كامل عدتهم وزينتهم ، ومزق ثلاثة وثلاثون خادما اربا اربا ، وأسر الآخرون بجيادهم لتباع الىالتتر .

وهبط الساحر درجا من الحجارة بين الجذامير المحترقة الى موضع حفر فيه جبا عميقا فى الأرض ، ونزل الى الجب رفيق الخطا ، محاذرا ان يصدر عن الباب صرير ، ووضع قدرا على المائدة غطاها بقطعة من النسيج ، واخذ يلقى فيها بيديه الطويلتين بعض الأعشاب الغريبة ، وتناول ابريقا مصنوعا من خشب نادر ونزح به بعض الماء ثم سكبه وهو يحرك شفتيه ويردد تعويذة من تعـــاويذه ، وغمر الجب ضوء وردى ، وغدا وجه الرجل بشعا تتقحمه العين ، ولاح ان الدم قد غطاه الا من تجاعيد عميقة يغشاها السواد ، واتقدت عيناه بالشرر ، لبئس هذا الآثم الزنيم ، كيف يمضى ممعنا فى شروره وقد كلل الشيب لحيته، ورسمت التجاعيد خطوطا على وجهه واضنت الأيام جسمه ! .

وانبعثت سحابة بيضاء ترفرف فى الجب وبرقت ملامح الساحر بشيء يشبه البشر ، ولكن ما باله قد وقف ساكنا فاغر الفم لا يريم ولا يجرؤ على الاتيان بأية حركة ، ولماذا وقف شعر رأسه ؟ وتلألأ أمامه من خلال السحابة محيا شبح غريب ، أقبل يزوره بلا استئذان ولا دعوة ، وازداد الوجه وضوحا واخذ يتفرس فى الساحر لا يحول عنه نظره ، وكانت ملامحه كلها ـ الحاجبان والعينان والشفتان ـ غير مألوفة لديه، فلم يسبق له أن رآها فى حياته قط ، والظاهر ان الوجه كان بريئا كل البراءة مما يخيف ، ولكن الفــــزع استبد بالساحر ، وظل الوجه الغريب يتفرس فيه من خلال السحابة ، ثم انقشعت السحابة ، ولكن الوجه الغريب ازداد وضــوحا على وضوح وظلت العينان الثاقبتان تحدجانه بنظراتهما ، وامتقع لون الساحر حتى غدا كصفحة النسيج الناصع ، وصرخ صرخة مدوية وقلب القدر ، فاختفى كل شيء عن الأنظار .

ـ ١١ ـ

وهتف الصاغ جوروبيتس العجوز : « ليطمئن بالك أيتها الأخت العزيزة ، فقلما تصدق الأحلام ! » .

وقالت زوج ابنة العروس : « ارقدى ايتها الأخت ولاسعين فى طلب سيدة عجوز ، بل امرأة حكيمة لا تقف امامها اية روح شريرة ، فتعينك على ما أنت فيه » .

وقال ابنه وهو يتحسس سيفه : « لا تخشى شيئا ، فلن يسيء اليك احد ! » .

واخذت كاترينا تنظر اليهم جميعا وقد اظلت عينيها غشاوة من الحزن والكآبة ، ولم تجد ما تقوله ، الا انها اخذت تحدث نفسها قائلا : « أنا التى تسببت فى هلاك نفسى ، فقد أفلت سراحه ! » .

ثم قالت آخر الأمر :

« انه لا يدع لى فرصة للطمانينة وهدوء البال ! وهانذا قد قضيت معكم هنا فى كييف عشرة ايام سويا ، فما خف لى حزن ، وكنت اظن اننى استطيع على ايسر تقدير أن انشيء ابنى فى سلام حتى يثأر

لابيه ، انه يظهر لى فى الحلم فظيعا كل الفظاعة ، بشعا كل البشاعة ! وقاكم الله شر رؤيته على هذه الحال ! ان قلبى لا يزال يضرب ، لقد كان يصيح بى : لأقطعن ابنك اربا اربا يا كاترينا ان لم تتزوجينى ! » ، ثم القت بنفسها على المهد وهى تنتحب ، وتملك الرعب الطفل ، فمد يديه الصغيرتين وعلا صوته بالبكاء .

وكان ابن جوروبيتس يغلى من الغيظ وهو يسمع تلك الكلمات .

اما جوروبيتس نفسه فقد ثارت ثائرته .

« فليخاطرن بالقدوم الى هنا ذلك الملعون عدو المسيح ، ولسوف يعلم ان كان قد بقى فى ساعة القوزاقى العجوز فضلة من قوة » . ومضى يقول وهو يتطلع بعينيه الثاقبتين الى السماء : « علم الله اننى هرعت لنجدة اخى دانيلو ، ولكنه قضاء الله ولا راد لقضائه ! فقد وجدته يرقد على اديم الثرى الرطب كما رقد كثير من القوزاق من قبل ، ولكن ما اروع الحفلة التى اقمناها لجنازته ، فقد اتينا على القوم ولم نترك بولنديا واحدا على قيد الحياة ! ليطمئن بالك يا بنيتى ! فان يجرؤ احد على ان يصيبك بأذى ما دام فى أنا أو ابنى عرق ينبض !»

وما ان انتهى الصاغ القوزاقى العجوز من حديثه هذا حتى اقترب من المهد ، ورأى الطفل غليونه الأحمر المرصع بالفضة والكيس الذى حمل فيه الحجر الصوان والصلب القادح للنار يتدليان من سير من الجلد ، فمد ذراعيه نحوه وهو يضحك ، فهتف الصاغ العجوز وهو يفك الغليون ويعطى الطفل اياه : « انه ينهج نهج ابيه ، يحلم بغليون وهو بعد فى المهد ! » .

وتنهدت كاترينا واخذت تهز المهد ، واتفق الجميع على أن يقضوا الليلة معا ، وسرعان ما استغرقوا فى النوم ، وثقلت جفون كاترينا ايضا واستسلمت للنعاس .

وشمل السكون الفناء والدار جميعا ، ونام من بالدار الا القوزاق الذين كانوا يقومون بالحراسة ، واستيقظت كاترينا فجأة واطلقت صرخة ، فاستيقظ الباقون ايضا وصاحت تقول : « لقد ذبح ! لقد قتل ! » ، واندفعت الى المهد والتف الجميع حوله وانعقد لسانهم من الرعب والفزع اذ وجدوا الطفل راقدا فيه وقد فارق الحياة ، ولم ينبس احدهم ببنت شفة ، وراحوا يعجبون من امر هذه الجريمة التى لم يسمع بمثلها أحد .

تمتد سلاسل من الجبال الشامخة على مبعدة من اوكرانيا ، فيما وراء بولندة ومدينة لمبرج العامرة ، وانتشرت هذه الجبال ، جبلا فى اثر جبل كحلقات من الحجارة انتثرت على الأرض ذات اليمين وذات اليسار ، تحيط بها طبقات من الصخر ترد عنها عادية البحر الصاخب المضطرب ، وتتوغل السلاسل الحجرية فى الافلاق وترانسيلفانيا ، وتشمخ بأنفها كحدوة الحصان الضخمة بين شعبى غاليسيا وهنغاريا ، ولا وجود لمثل هذا الجبال فى بلادنا ، فان البصر يرتد عنها وهو كليل ، ولم يسبق لانسان ان وطىء بقدمه بعض قننها ، ان منظرها لعجيب ، ومن يدرى ؟ لعل بحرا صاخبا قد افلت من شاطئيه الفسيحين اذ الم به عاصفة وقذفت بأمواجه الهائلة عاليا ، فاستحالات حجرا وظلت معلقة فى الفضاء بلا حراك ، او لعل سحبا كثيفة من سحب العاصفة قد سقطت من السماء وهوت الى الارض ، والا فمن أين جاءت هذه الجبال بذلك اللون الأشهب الذى نعهده فى تلك السحب تومض قننها البيض وتتألق فى ضوء الشمس .

وقد يسمع المرء اللغة الروسية تدور على الألسنة حتى جبال الكربات ، اما فيما وراء هذه الجبال مباشرة فلا يزال يتردد هنا وهناك صدى للهجتنا القومية ، فاذا اوغلت الى ابعد من ذلك اصبح المذهب واللغة غير اللغة ، ويقيم الشعب الهنغارى الغفير العدد هنالك ، وهم يركبون الخيل ويقاتلون ويشربون كالقوزاق سواء بسواء ولا يبخلون بالقطع الذهبية يخرجونها من جيوبهم لشراء حلى خيولهم وستراتهم النفيسة ، وتقوم بين الجبال فى تلك البلاد بحيرات واسعة عظيمة ساكنة الأديم كالزجاج وتعكس المرايا قمم الجبال العارية وسفوح التلال الخضر .

ولكن اى فارس هذا الذى يمتطى صهوة جواد ضخم أصيل بليل سواء تألقت النجوم او خبأ ضياؤها ؟ واى بطل من العمالقة ذلك الذى مضى بجواده يخب خببا تحت الجبال وفوق البحيرات وقد انعكست صورته وصورة جواده الجبار على صفحة المياه الساجية ، والقى على الجبال ظله الرهيب الممدود ؟ لقد كانت درعه المصفحة

تتالق وقد اسند رمحا على كتفيه واخذ سيفه يقمقع الى جانب السرج، وانكفات خوذته الى الأمام ، وكان شاربه اسود وعيناه مغمضتين وقد ثقلت جفونه بفعل الكرى ، اجل لقد كان هذا الفارس نائما يمسك اعنة الجواد مستسلما للنعاس ، وكان يمتطى صهوة الجواد نفسه غـلام صغير ، خادم استسلم للنعاس ايضـا وقد تعلق بالبطل ، ترى ، اى رجل كان ؟ واين كانت وجهته ؟ وفيم كانت رحلته ؟ من يدرى ؟

لقد ظل بعد السير فوق الجبال يوما او اكثر من يوم ، ثم لاحت تباشير الصباح واشرقت الشمس فغاب عن الأنظار ، وانما كان رواد الجبال يشاهدون من حين الى حين ظلا طويلا يمرق فوق الجبل على الرغم من أن السماء كانت صافية الأديم لا تغشاها سحابة ، وما أن عاد الليل فأسدل ستار الظلام حتى ظهر مرة اخرى وانعكست صورته على صفحة البحيرات يتبعه ظله المرتعش ، واجتاز البطل فى رحلته جبالا كثيرة وبلغ آخر الأمر جبل كريفان الذى لا يدانيه فى الارتفاع جبل من جبال الكربات ، فهو يشمخ بانفه على الجبال الاخرى كالملك المتوج ، وعندئذ توقف الجواد وراكبه ، واستغرقا فى نوم زاد عمقا على عمق ، وحجبتهما السحب المسفة عن الأنظار .

— ١٣ —

« صه ، ولا تدقى هذا ايتها المرضع ، فان طفلى نعسان ، وقد ظل يبكى وقتا طويلا ثم استسلم للنوم ، انى ذاهبة الى الغابة ايتها المرضع ، ولكن ما بالك تنظرين الى على هذا النحو ؟ انك لمخيفة ، تطل من عينيك كلابتان من الحديد ، الا تبا لك، ما اطولهما ! وهما يتوهجان توهج النار ! لا شك انك ساحرة ! آه ! فان كنت ساحرة فاغربى عن وجهى ! فلسوف تسرقين ابنى ! يا للصاغ من غبى احمق ! فهو يظن اننى انعم بالعيش فى كييف ، كلا ان زوجى وابنى هنا ، فمن يدبر امر البيت ؟ لقد خرجت فى خفة حتى ان الكلب والهرة لم يسمعا دبيب قدمى ، اتريدين ان تعودى الى شبابك ايتها المرضع ؟ ليس هذا بعسير على الاطلاق ، وما عليك الا ان ترقصى ، انظرى كيف ارقص ؟ » .

وما أن اتمت كاترينا هذا الحديث المضطرب حتى شرعت ترقص

وهى تدير عينيها الناطقتين بجنونها وتضع ذراعيها فى خاصرتيها ، ثم صرخت وأخذت تضرب الأرض بقدميها ، وانطلق كمباها الفضيان يقعقعان فى نشاز لا ايقاع فيه ولا نغم ، وطفقت تدور فى سرعة كالطائر لا تستقر ولا تستريح ، وهى تلوح بيديهـــا وتومىء برأسها ، حتى بدا للأنظار الا مناص من ان تسقط على الأرض فاقدة الوعى أو تحلق فى الجو حتى تبلغ العالم الآخر .

ووقفت المرضع العجوز حزينة كاسفة البال وقد خضب الدمع وجهها المتغضن ، وأثقل الهم والأسى قلوب القوزاق الأمناء وهم ينظرون الى سيدتهم ، وخارت قواها آخر الأمر وتشبثت بالموضع الذى هى فيه تضرب الأرض بقدميها فى ضعف ووهن ، زاعمة أنها ترقص دورا ، ثم توقفت وقالت : « عندى ايها الغلمان قلادة ليس عندكم مثلها ! » وصاحت فجأة وهى تشهر خنجرا تركيا أخذته من حزامها : « اين زوجى ؟ آه ! ليس هو السكين الذى أنا فى حاجة اليه » ، وعندئذ انهمرت الدموع من عينيها حزنا وكمدا وقالت : « ان قلب ابى ليكمن فى اعماق نفسه ، ولن يصل اليه هذا النصل ، فقد قد قلبه من حديد ، وطرقته ساحرة فى نار الجحيم ، لم لا يأتى أبى ؟ الا يعلم ان الوقت قد حان لطعنه ؟ يخيل الى انه يريد منى أن اذهب اليه بنفسى، يبدو . . . » ، ثم سكتت وضحكت ضحكة غريبة ، ومضت تقول : « لقد تذكرت قصة مضحكة ، أجل تذكرت كيف دفن زوجى ، فقد دفن حيا كما تعلمون ، وحملنى ذلك على الضحك ! انصتوا ، انصتوا ! » ولكنها لم تتكلم بل راحت تغنى :

انطلقت عربة خضبها الدم تسابق الريح
ورقد فوقها قوزاقى
اصيب برصاصة فى صدره وطعنة فى قلبه
وفى يده اليمنى رمح
يقطر منه الدم
وينهال كالنهر المتدفق
وقد حنت على النهر شجرة دلب
وقف فوقها غراب ينعق

* * *

وها هى ذى الأم تبكى القوزاقى

لا تبكى ايتها الام ولا تحزنى ؟
فقد تزوج ابنك
واختار فتاة كريمة عروسا له
وقامت فى الحقول العارية اكمة من الثرى
بلا باب ولا نافذة
وهكذا تنتهى قصتى

* * *

لقد كانت سمكة ترقص مع سرطان البحر
ولتقض البرداء على أم
من لايحبنى

* * *

وهكذا خلطت بعض سطور من أغان مختلفة ببعض ، وكانت كاترينا تقيم منذ يومين فى بيتها هى ، وابت ان تسمع شيئا عن كيف ، ورفضت ان تتلو صلاتها او تلقى اى انسان ، وكانت تتجول من الصباح الى المساء فى ادغال السنديان المظلمة ، فتخدش العساليج الحادة وجهها وكتفيها البيضاوين ، وتثير الريح شعرها المرسل ، وتخشخش أوراق الخريف تحت قدميها ، ولكنها لم تكن تحفل بشىء . وقد كان من الامور المخيفة ان يسير احد فى الغابة من وقت أن يخبو وهج الشمس الغاربة الى حين تظهر النجوم او يضىء القمر ، ذلك ان الأطفال الذين لم يعمدوا يتسلقون فى هذه الأثناء فوق الأشجار ويتعلقون بغصونها ، ويتدحرجون فى الطرقات وقفار القريض ينشجون ويضحكون ، وتبرز العذارى اللواتى فقدن أرواحهن واحدة فى اثر الأخرى من اعماق الدنيبر وتسترسل جدائلهن الخضر على أكتافهن ، ويقطر الماء من شعرهن الطويل على الأرض فى صوت منغوم وتتألق عذراء من خلال الماء كأنه نقاب شفاف من البللور ، وتبتسم شفتاها فى خفاء وغموض وتشرق وجنتاها وتخلب عيناها اللب حتى ليضطرم الفؤاد بنار الحب ، ويخيل للمرء انها سوف تمطره بالقبلات حتى تزهق منه الانفاس ، ألا فلتنج بنفسك أيها المسيحى ! فان شفتيها باردتان كالثلج ، وفراشها ... هو الماء البارد ، ولسوف تداعبك وتعابثك حتى تقضى عليك ثم تجرك الى

النهر. ولم تك كاترينا تنظر الى واحدة من هاتيك العذارى ، ولا تخش فى خبلها عرائس البحر، فقد كانت تهيم ليلا وفى يدها سكينها تبحث عن ابيها ، وتفتش عنه .

وفى باكورة اليوم التالى جاء الى المنزل زائر حسن الطلعة يرتدى سترة حمراء وسأل عن دانيلو ، واستمع الى قصته ، ثم مسح بردنه عينيه المخضبتين بالدموع وهز كتفيه ، وقال : « انه حارب مع بورولباش جنبا الى جنب ، وخاضا المعارك مع الترك واهل القريم ايضا جنبا الى جنب ، وما كان ليدور بخلده قط أن تكون نهاية دانيلو على هذه الصورة ، وانباهم الزائر بأمور أخرى كثيرة ، ثم طلب ان يرى كاترينا .

ولم تحفل كاترينا اول الأمر بشيء مما قاله الضيف ، الا انها بدات من بعد تنصت اليه ، كأنما تعى ما يقول : واخبرها كيف كان يعيش مع دانيلو كالأخوين ، وكيف انهما اختفيا ذات مرة من أهل القريم تحت سد من السدود ، وكانت كاترينا تنصت اليه وهى تحدجه بنظراتها .

وقال القوزاق بينهم وبين انفسهم وهم ينظرون اليها : «لتشفين، ان هذا الضيف كفيل بشفائها ! فهى تنصت اليه كانما تعى مايقول».

وأخذ الزائر يصف فى هذه الأثناء كيف اسر اليه دانيلو يوما قائلا: « لا تنس يا أخى كوبريان ، حين تقضى مشيئة الله بأن اغادر هذه الدنيا .. أن تتخذ كاترينا ـ أجل تتخذها زوجة لك » .

ونظرت اليه كاترينا نظرة نفاذة ثم صرخت : « آه ، انه هو. انه ابى ! » وانقضت عليه بسكينها .

وقاومها الزائر زمنا طويلا محاولا أن يخطف السكين منها ، ثم نجح آخر الأمر فى انتزاعها منها ورفعها ليضرب ، ثم حدث حادث جلل . فقدقتل الأب ابنته المجنونة .

واندفع القوزاق اليه وقد استبد بهم الذهول ، الا أن الساحر كان قد قفز على ظهر جواده وغاب عن الأنظار !

— ١٤ —

وحدثت عجيبة من العجائب فيما وراء كييف لم يسمع الناس

بمثلها من قبل ، واجتمع النبلاء وزعماء القوزاق كافة ليشاهدوا هذه العجيبة ، فقد تكشف الفضاء البعيد لأعين الناس من جميع النواحى ، وبدا للأبصار على البعد البعيد مصب نهر الدنيبر فى زرقته الداكنة ومن ورائه البحر الأسود ، وابصر الذين خرجوا من القوم مرتحلين ـ بلاد القريم ترتفع بشعابها من اعماق البحر كما ابصروا نهر سيفاش العامر بالبطائح وبرزت الى اليمين بلاد غاليسيا .

وسأل الناس الشيوخ وهم يشيرون الى قنن الجبال البيض والشهب التى تجلت بعيداً فى أفق السماء ، كالسحب او هى اشبه : « وما هـذه ؟ » .

وقال الشيوخ : « تلك هى جبال الكربات ! وبعضها يغطيه الجليد دائما وتتعلق به السحب وتقضى عليه ليلتها » .

ثم حدثت عجيبة جديدة ،فقد انقشعت السحب من اعلى القنن وظهر فوق ذروتها فارس كامل العدة مغمض العينين ، تجلى للقوم بوضوح كأنه واقف بالقرب منهم .

وعندئذ قفز من بين صفوف القوم المأخوذين الخائفين رجل امتطى صهوة جواد واخذ يتلفت حوله فى نظرات زائغة كأنما يريد ان يطمئن الى أن احدا لا يطارده ، ولم يلبث ان اطلق جواده يسابق الريح ، وكان هذا الرجل هو الساحر . ترى ما الذى روعه ؟.. لقد نظر الرجل فى فزع الى الفارس العجيب فتبين فيه ذلك الوجه الذى ظهر له عندما كان يردد تعويذته ، ولو قد سأله أحد عن سبب اضطرابه حين رأى هذا المنظر لم يحر جوابا. ثم تلفت الرجل فى خوف ووجل حوله ، راجعا الى داره ، ولعله اراد أن يسأل الروح الشريرة عن سر هذه العجيبة ، وهم بأن يقفز بجواده فوق جدول من ماء يعترض طريقه واذا بجواده يتوقف فجأة وهو ماض بأقصى سرعته ثم التفت اليه فراى ، وما اعجب ما راى ! لقد قهقه الجواد ضاحكا ! وتألق صفان من الأسنان البيض تألقا مخيفا فى الظلام ، فوقف شعر الساحر على راسه ، واطلق صرخة مدوية وبكى بكاء من أصابه مس ، ولوى عنان جواده ميمما شطر كييف لايلوى على شىء ، وخيل اليه أنه مطارد من كل جانب ، تسعى الأشجار التى تحيط به فى الغابة السوداء وتجاهد لخنقه ، وتومىء

بلحاها السود وتمد اليه أغصانها الطويلة ، وراحت النجوم تستبق هذا الآثم وتشير اليه ، بل اخذ الطريق نفسه يطير وراءه .
وهرب الساحر اليائس لائذا بالأماكن المقدسة فى كييف .

— ١٥ —

وكان ناسك من اهل الورع يجلس وحيدا فى غاره وأمامه مصباح صغير لايرفع عينيه عن الكتاب المقدس ، ومضت سنوات وسنوات وانقطع عن الدنيا واخلد الى غاره ، وصنع الناسك لنفسه نعشا من الواح الخشب ينام فيه بدلا من الفراش ، واغلق العابد الصالح كتابه وراح يصلى ، واذا برجل غريب الهيئة بشع المنظر يلج عليه الغار فجأة ، وابصر الناسك الورع الرجل ، ففزع ونكص على عقبيه ، اذ وجده يرتجف من اعلى راسه الى اخمص قدمه كورقة فى مهب الريح ، وزاغت نظراته ، وومضت عيناه ببريق من الرعب ، وكان وجهه المخيف تقشعر منه الأبدان .

وصاح الرجل فى يأس : « صل يا أبتاه ! صل ! صل لنفس ضالة » ، وخر على الأرض جاثيا .

ورسم الناسك الورع اشارة الصليب ، وتناول كتابه وفتحه ، ثم تراجع مذعورا ، وسقط الكتاب من يده .

« كلا ، أيها الآثم الزنيم ! فقد اغلقت من دونك ابواب الرحمة ! اغرب عنى ! فلست بقادر على أن أصلى من اجلك ! » .

فصاح الساحر مغيظا محنقا : « لست بقادر ؟ » .

« انظر ، ان حروف الكتاب المقدس تقطر دما ! وما رات الدنيا أشد اثما منك » .

« أبتاه ، انك تسخر منى ! » .

« اليك عنى أيها الاثم الملعون ! فانى لا اسخر منك ، وانما غلبنى الخوف على أمرى ، وما من خير يجنيه المرء من صحبتك » .

« كلا ، كلا ، وانما انت تسخر منى — لا تنكر ! فانى ارى الابتسامة تتلألأ على شفتيك ، وصفى اسنانك العتيقة يتألقان فى نصوع ! »

وانقض الساحر على الناسك الورع كالممسوس وقتله .

وانبعثت فى الجو انة فظيعة تردد صداها فى الغابة وفى الحقول، وارتفعت من وراء الغابة أذرع يابسة ذاوية لها مخالب طويلة ، ثم ارتجفت وغابت عن الأنظار .

وعندئذ خلا قلب الرجل من الخوف وأصبح لايخشى شيئا ، على انه احس بالاضطراب يغمر نفسه جميعا ، فقد احس بطنين يدوى فى اذنيه واصاب راسه دوار كأنه شرب حتى ثمل ، واظل كل شيء غشاوة كأنها من نسيج العنكبوت ، وقفز الرجل ممتطيا صهوة جواده ومضى الى كانيف لايلوى على شيء معتزما أن يقصد منها رأسا الى تتر القريم عن طريق تشركاس ، ولو انه لم يكن يدرى لذهابه علة ولا سببا . وقطع الرجل فى رحلته يوما ، ثم آخر ، ولم تبد كانيف للأنظار ، وكان الطريق الذى مضى فيه هو الطريق الصحيح ، وكان خليقا بأن يبلغ هذه المدينة قبل ذلك بوقت طويل ، ولكن لم يبد لكانيف ظل ولا أثر ، وتألقت قباب الكنائس من بعيد .

على أن هذه المعالم لم تكن لكانيف بل لشومسك ، وذهل الساحر اذ وجد أنه التمس فى رحلته طريقا آخر ابعد ما يكون عن الطريق الصحيح ، فلوى عنان جواده متجها صوب كييف ، ولاحت له بعد يوم مدينة أخرى ، لم تكن هى كييف بل جاليتش ، وهى قريبة من هنغاريا ، ولكنها تبعد عن كييف أكثر مما تبعد عن شومسك وسقط فى يده فقفل راجعا ، على انه احس مرة اخرى بأنه يسير طريقه القهقرى ، وما كان لأحد ان يعرف ما يدور فى أعماق الساحر ، ولو رأى أحد ما يدور فى أعماقه او عرف ما يختلج فى طوايا نفسه ما ذاق فى ليلة طعم النوم او اشرقت أساريره بالضحك قط طول حياته . ولم يكن ذلك الذى تضطرب به جوانح الساحر حقدا او رعبا او غضبا مريرا ،وانما كان شيئا لا تستطيع كلمة من الكلمات فى أية لغة من لغات الأرض التعبير عنه . لقد كان قلبه يتقد ويضطرم ، يود لو استطاع ان يطأ العالم كله تحت قدميه ويحمل الأرض جميعا من كييف الى جاليتش بما فيها من ناس وحيوان وغير ذلك ويقذف بها فى اعماق البحر الأسود ، ولم يكن الغل أو الحقد يدافعه الى ذلك ، وانما الذى كان يحفزه اليه سبب لا يدرى

من أمره شيئا . وارتعدت أوصال الساحر اذ رأى جبال الكربات وجبل كريفان الشاهق وقد غشيت قمته سحابة شهباء ، وراح الجواد يركض بين الجبال كالريح ، وانقشعت الغيوم فجاة وظهر الفارس قبالته بقدمه الهائلة الرهيبة .

وحاول الساحر ان يقف وشد اليه العنان ، ولكن الجواد صهل صهيلا مخيفا واخذ يطوح معرفته ، واندفع نحو الفارس ، وأحس الساحر بأن كل ما فيه قد تجمد . واخذ الفارس الساكن يتحرك وفتح عينيه فجاة وابصر الساحر يندفع نحوه ، فضحك ، وتردد صدى الضحكة الهائلة فى جنبات الجبال كزئير الرعد ، ودوت فى قلب الساحر فأحس لها رجفة تشيع فى جميع اوصاله ، وخيل اليه ان كائنا عظيم القدرة قدملكعليه قياده ، وراح يتحرك بينجوانحه ويدق قلبه وعروقه دقا ! يا لها من ضحكة مخيفة تردد صداها فى طوايا نفسه !

ومد الفارس يده الباطشة ، وامسك بالساحر ، ورفعه فى الهواء ، فمات فى الحال ، ثم فتح عينيه ، ولكنه كان قد قضى ، واطلت من عينيه الجامدتين نظرة مخيفة لا تجد لها مثيلا فى عين ميت ولا فى عين صاح قام من بين القبور ، وراح الساحر يقلب عينيه الجامدتين ذات اليمين وذات الشمال فرأى الموتى يقومون مثله سواء بسواء : من كييف ومن غاليسيا ومن جبال الكربات ! ..

وقام هؤلاء الأموات من بين القبور يعلو وجوههم الشحوب ، تغشاها صفرة شديدة ، وكل واحد منهم اطول من اخيه ، وابرز عظاما ، وتكاكئوا على الفارس الذى كان ممسكا بفريسته البشعة . وضحك الفارس مرة اخرى ، وقذف بالساحر فى هوة ، وقفزت الجثث جميعا الى الهوة وانشبت اسنانها فى لحم الميت ، وحاول ميت آخر ، اطول من جميع الأموات ، وابشعهم خلقة ، ان ينهض ، ولكنه لم يستطع ، فقد نما حجمه نموا عظيما ضرب فى باطن الأرض طولا وعرضا حتى عجز عن القيام ، ولو قد فعل لقلب جبال الكربات وترانسيلفانيا وتركية رأسا على عقب ، وغاية ما استطاع انه تحرك قليلا ، فزلزل الأرض جميعا واطاح ببيوت عدة وسحق قوما كثيرين ! .

وينبعث من جبال الكربات فى كثير من الأحيان صوت مجلجل ما ان يبلغ سمعك حتى يخيل اليك ان ألف طاحونة من طواحين المـاء اخذت تمخض بدواليبها الماء مخضا . وما هذا الصوت الا صوت الموتى وهم ينهشون بأسنانهم جثة القى بها فى الهوة المشئومة التى لم يرها انسان ولا جرؤ مخلوق على اجتيازها . وكثيرا ما تزلزل الأرض زلزالها وتتقلب من طرف الى طرف ، ويقول العلمـــاء : ان ذلك يرجع الى وجود جبل قريب من البحر يتصـاعد منه اللهب وتتدفق الأبخرة الساخنة ، ولكن الشيوخ الذين يقيمون فى هنغاريا وغاليسيا يعلمون ما لايعلم هؤلاء ، فهم يقولون : ان العلة تكمن فى هذا الميت الذى نما واستطال فى جوف الأرض ، فاذا حاول ان يقوم زلزلت الأرض زلزالها .

- ١٦ -

اجتمعت زحمة من الناس حول عازف البندورة العجوز فى مدينة جلوكوف ، وراحت تنصت ساعة الى عزف هذا الرجل الأعمى ، الذى لا نظير له فى العزف على البندورة وانشاد الأغانى العجيبة ، وتغنى الرجل اولا بحكم زعماء القوزاق فى الأيام الخالية كما تغنى بحكم السغايداشنى والخملنتسكى . لقـد كانت الأيام غير الأيام ، وكان القوزاق وقتئذ فى عز مجدهم يطئون اعداءهم تحت أقدامهم ولا يجرؤ احد على السخرية منهم ، وغنى الشيخ ايضـــا أغانى مرحة ، واخذ يتلفت الى الجماعة كأنما عيناه تبصران ، وانطلقت أصابعه التى ثبت فيها رقائق صغيرة من العظم تتراقص على الأوتار كالذباب ، لقد بدا انها هى نفسها تشـدو بالنغم ، وكان الشيوخ يغضون ابصارهم والشباب يحملقون فى المغنى لايجرءون على الحديث ولو بهمس .

وقال الشيخ : « اصبروا ، ولأنشدن لـكم قصـة من قصص الغابرين » ، وازداد القوم منه دنوا ، وانشد الأعمى يغنى :

« فى ايام ستيفان امير ترانسيلفانيا وملك البولنديين ، كان يعيش قوزاقيان : ايفان وبترو ، وأقام الفتيان معا كالأخوين ، وقال بترو

لصاحبه : اسمع يا ايفان ، فلنقتسم كل ما نجنيه من ربح ، فاذا حل بأحدنا فرح شاركه صاحبه فى فرحه ، واذا الم به حزن حزن من أجله ، واذا غنم غنيمة شاطره اياها ، واذا وقع فى الأسر باع كل ما يملك يفتديه به او القى بنفسه فى الأسر معه . والحق ان القوزاقيين كانا يقتسمان كل ما يكسبانه ، فاذا وقع فى ايديهما قطيع من الماشية او الجياد اخذ كل نصيبه لا ينقص عن الآخر أو يزيد.

* * *

« وشهر الملك ستيفان الحرب على الترك ، وظل يقاتل ثلاثة اسابيع لايستطيع لهم طردا ، وكان للترك باشا يستطيع فى نفر من الانكشارية ان ينكل بكتيبة من الجند باكملها تنكيلا ، فلما راى الملك ستيفان ذلك نادى فى الجند ان المقاتل الباسل الذى يأتيه بهذا الباشا ينفحه جائزة تساوى راتب الجيش كله » .

وقال ايفان لبترو : « لنذهبن ولنأته بالباشا يا اخى » ومضى الفتيان القوزاقيان فى رحلتهما ، وذهب كل منهما فى طريق .

« ولم يكن لأحد ان يتكهن : اظافرا يعود بترو ام خائبا ؟ ولكن ايفان ساق الباشا الى الملك وقد طوق عنقه بحبل ، وقال الملك : « احسنت يافتى » وامر بأن يعطى من المال مايساوى راتب الجيش كله ومن الأرض ما يشاء ويختار ، ومن الماشية ما ترضى به نفسه ، وما ان تلقى ايفان من الملك هذه العطية حتى اقتسم المال وبترو ، فاخذ بترو نصفه ، وعز عليه أن يظفر ايفان بكل هذا التكريم من الملك وطوى صدره على رغبة فى الانتقام » .

* * *

« ومضى القوزاقيان يسيران ميممين شطر الأرض التى افاءها الملك على ايفان فيما وراء جبال الكربات ، واركب ايفان ابنه على ظهر الجواد خلفه ، وشده اليه برباط ، ودهمهم الليل وهم ماضون فى الطريق ، واخذت الطفل سنة من النوم ، وبدأ النعاس يداعب جفون ايفان : لا تنم ايها القوزاقى ، فان مسالك الجبل مخوفة !

ولكن جواد القوزاقى كان يعرف الطريق لا تزل قدمه ولا تتعثر ، وكان بين الجبال هاوية لا يعلم مستقرها ، الذى يبلغ عمقه ما بين السماء والأرض ، الا الله ، وكان الطريق يمر فوقها مباشرة ،

لايسير فيه الرجلان الا جنبا الى جنب ، فان كانوا ثلاثة ضاق بهم كل الضيق . واخذ الجواد يخطو فى حذر وعلى ظهره القوزاقى الوسنان ، وسار بترو بجواره الى جانبه ، وشاعت الرعدة فى اوصال بترو جميعا وتقطعت انفاسه من فرط السرور ، وتلفتحوله ثم دفع صاحبه الذى آخاه ، فسقط الجواد فى الهاوية وعلى ظهره القوزاقى والطفل جميعا .

« ولكن ايفان تعلق بغصن فلم يهو الى القاع الا الجواد ، واخذ يتسلق الهاوية حاملا ابنه فوق ظهره ، وما ان أشرف على حافة الهاوية حتى رفع بصره ، فرأى بترو ممسكا برمح وقد تهيأ لدفعه الى الهاوية ، فهتف : « رحماك يا رب ، تمنيت أن تغض مني البصر ما حييت ولا أرى اخي يتربص لي برمح يدفعني به الى الهاوية ! أخي العزيز ! ان كان هذا نصيبي فانفذ في رمحك ، ولكن ما ذنب هذا الطفل البرىء حتى ينزل به هذا البلاء العظيم ؟ » ، فضحك بترو ودفعه بالرمح فسقط القوزاقى هو وطفله الى قاع الهاوية ، واستولى بترو على ثروته كلها ، واخذ يعيش عيشة الباشوات لا يملك احد ما يملكه من خيل حاشدة ، ولا يدانيه احد فيما يقتنى من قطعان الماشية ، ثم عدا الموت على بترو .

***

« وما أن قضى بترو حتى دعا الله — روحى الأخوين ايفان وبترو فمثلتا بين يديه ، تقدمان الحساب ، وقال الله : « ان هذا الرجل لمجرم اثيم ، يا ايفان لسوف يمضي وقت طويل قبل ان اجد له ما يستحق من جزاء ، فاختر له انت الجزاء ! » وفكر ايفان طويلا : اى جزاء يختار ، ثم قال :

« لقد اصابنى هذا الرجل ببلاء عظيم ، وسلك مسلك يهوذا فحرم اخاه ذريته الشريفة ، وما مثل الرجل يحرم ذريته الشريفة الا كمثل حبة القمح يلقى بها فى الأرض ، فتذهب هباء ، فان هى لم تنبت عز على الناس أن يعرفوا انه قد القى بها فى الأرض » .

« فاللهم اكتب على ذريته الا يذوق منهم أحد طعم السعادة فى هذه الدنيا ، وأن يكون آخرهم شر ما رات العين من الخاطئين لا يقترف ذنبا الا تململ اجداده فى قبورهم حتى اذا ذاقوا من العذاب ما لم يذقه احد من الأحياء قاموا من قبورهم يسعون ! اما بترو هذا الذى خان

العهد والميثاق ، فاللهم أكتب عليه ان يعجز عن القيام من قبره وان يلقى فيه اشد النكال ، فيعض الأرض كالمجنون ، ويتلوى من الألم تحت الثرى ! » .

***

« فاذا حان الحين ، وبلغت شرور هذا الرجل غايتها فاخرجنى يا كريم على ظهر جوادى من قمة الهاوية الى اعلى قنة فى الجبـــال ، وابعث به الى فالقى به من تلك القنة الى اعمق الوهاد طرا وارسل اجداده جميعا من كل فج من فجاج الأرض عاشوا فيه ، واطلقهم ينشبوا اسنانهم فيه جزاء مالقوا على يديه من عذاب ، ودعهم ينهشوه الى أبد الآبدين حتى ينشرح خاطرى وانا اراه يسأم العذاب اشكالا والوانا ، واكتب على يترو ، هذا الذى خان العهد الا يقوم من قبره ، والق فى قلبه شـــهوة النهش ، ولينقلبن على طول الزمن حتى يزداد عذابه ، وسلط عليه من النكال ما لم يذقه احد من قبله ولا من بعده ، فما من عذاب اقسى على المرء من تعطشه الى الانتقام وقصور يده عنه »

***

فقال الله : « ايه ايها الانسان ، ما افظع الجزاء الذى هداك اليه عقلك ! ولتستوين الى الأبد على ظهر جوادك ، فلا تبرح المكان الذى اخترت ، ولكن ملكوت السماء قد أوصد دونك ! » وتم له ما اراد ، ولا يزال هـــذا الفارس الغريب مستويا على ظهر جواده الأصيل فى جبال الكربات يشاهد الموتى يفترسون الجثة فى الهاوية التى ليس لها قرار ويحس بجثة الرجل الميت تتضخم وتتضخم تحت الثرى ، ويراه وهو يقضم عظامه ، ويتعذب اشد العذاب ويزلزل الأرض زلزالا تنخلع له القلوب » .

***

وفرغ الأعمى من انشاد قصته وراح يضرب الأوتار مرة اخرى ، ويتغنى بمدائح مضحكة تدور حول فوما وبيريما وستكليار ستوكوزا ، واستبدت النشوة بمستمعيه شبابا وشيوخا فلم يفيقوا من أحلامهم ، وظلوا خشعا يتدبرون فى هـــذه القصة الفظيعة من قصص الأيام الخالية .

ايفان فيودوروفتش شبونكا وخالته

ايفان فيودوروفتش شبونكا وخالته

ان لهذه القصة قصة رواها لنا ستيبان ايفانوفتش كوروشكا الذى وفد علينا من جادياخ ، ولا شك انك تعلم أن ذاكرتى ضعيفة كل الضعف ، ويستوى عندى ان تقص على شيئا او لا تقص ، فهى كالغربال تلقى فيه الماء . وقد حملني احساسي بهذا الضعف الى ان اطلب منه عامدا ان يسجل هذه القصة فى مفكرة ، وهب الله له الصحة والعافية ، فقد كان دائما كريما معى ، وشمر ستيبان عن ساعده وسجلها ، ثم وضعها فى المنضدة الصغيرة ، وانى لأحسب انكم تعرفونها ، فهى تقوم فى الركن الذى تقع عليه اعينكم حين تدخلون من الباب ، ولكننى نسيت أنكم لم تطئوا منزلى من قبل ، ولا جدوى من انكار ان زوجتى العجوز التى عشت معها ثلاثين عاما لم تتعلم القراءة . وقد لاحظت انها تخبز الفطائر على ضرب من الورق ، وهى تجيد خبزها ايها القراء الأعزاء ، وانا زعيم بأنكم لن تجدوا خيرا منها فى اى مكان . وقد اتفق لى أن نظرت الى فطيرة من تحت ، فماذا وجدت ؟ وجدت كلمات مكتوبة : فمضيت الى المنضدة كأنما هتف بى هاتف ان افعل ، فلم اجد فيها الا نصف الكتاب ! فماذا كنت اصنع ؟ اليس من الحمق ان نتشاجر فى مثل هذه السن ؟

وحدث أن كنت مارا بمدينة جادياخ فى العام الماضى ، وقبل أن أبلغ المدينة ربطت عن عمد عقدة فى منديلى حتى لا انسى سؤال ستيبان ايفانوفتش عن القصبة ، ولم يك هذا كل ما فى الأمر ، فقد كنت عاهدت نفسى بألا اعطس فى المدينة الا ذكرت ما صحت عليه نيتى ، ولم يأت ذلك كله بثمرة ، فقد ركبت عربة اجتزت بها المدينة وعطست ، بل مخطت ، ثم نسيت ، ولم افكر فى القصة الا بعد ان تجاوزت باب المدينة بنحو ستة فيرستات أو نحوها ، وكان ما ليس منه بد ، اكرهت على طبع القصة دون الخاتمة على انه اذا شاء أحدكم أن يعرف على وجه

الخصوص ما انقطع من حوادث القصة فما عليه الا أن يقصد الى جادياخ ويسأل عن ستيبان ايفانوفتش ، ولسوف يسره أن يروى له القصة ، وأنا زعيم بأنه لن يسوءه ان يبدأ من أولها ، وهو يقيم غير بعيد من الكنيسة المشيدة بالآجر ، فالى جوار هذه الكنيسة زقاق صغير ما أن تنعطف فيه حتى تجد باب بيته هو الثانى أو الثالث .

وخير من هذا وذاك أن تمضى فى طريقك حتى تجد فناء انتصب فيه قائم كبير يقوم فوقه طائر من طيور السلوى ، وتخرج منه فلاحة بدينة فى نقبة خضراء (وجدير بنا ان نذكر أيضا أن الرجل عزب) تسعى للقائك ، ومن يدرى ؟ لعلك تلقاه فى السوق حيث يشاهد كل صباح قبل التاسعة ينتقى السمك والخضر لمائدته ويتحدث مع الأب انتيب أو المقاول اليهودى فان رأيته عرفته لتوك ، ومن ذا الذى يلبس السروال المصنوع من الكتان الملون أو السترة القطنية الصفراء سواه ؟ وقد تعرفه بشىء آخر ، فقد الف أن يطوح ذراعيه فى مسيره ، وكان دنيس بتروفتش ، مساعد القاضى الراحل ، اذا رآه قادما من بعيد قال : « أنظروا فها هى ذى طوحونتنا مقبلة علينا ! » .

ــ ١ ــ

ايفان فيودوروفتش شبونكا

مضت أربع سنوات على اعتزال ايفان فيودوروفتش خدمة الجيش ، وجاء الرجل ليقيم فى مزرعته بفيتريبنكى ، وقد التحق وهو بعد حدث يسمى فانيوشا ، بمدرسة ناحية جادياخ ، ولست أنسى أنه كان غلاما جم الأدب مجدا ، وقد جرى مدرس النحو الروسى نيكيفور نيموفيتش ديبريتشا ستى (*) ، على القول بأنه لو كان جميع الصبيان يبذلون فى الدرس قصارى جهدهم كما يفعل شبونكا ما حمل معه الى الفصل المسطرة المصنوعة من خشب الاسـفندان ، وراح ــ على حد قوله ــ يضرب بها أيدى الكسالى والخبثاء من الصبية حتى كل ساعده . وكانت كراسة شبونكا نظيفة دائما مسطرة الهوامش لا تجد فى موضع منها اية بقعة وان هانت ، وجرى الغلام على أن يجلس هادئا ساكنا

(*) ظرف مشتق من الفعل فى الروسية

مشبك الذراعين لا يحول عينيه عن المدرس ، ولم يلجأ قط الى الصاق قصاصات الورق على ظهر الغلام الذى يجلس أمامه ، ولا انقطع عن الصف مرة أو دفع الصبية الآخرين فأخرجهم منـــه قبل أن يدخل المدرس . وما أحس تلميذ بحاجة الى مبراة يصلح بها قلمه الا بادر الى ايفان فيودوروفتش وهو عليم بأن جعبته لا تخلو منها دائما ، فيخرج ايفان فيودوروفتش ـ أو فانيوشا فحسب ، كما كان يلقب فى ذلك الحين ـ مطواته من صندوق جلدى صغير مثبت فى عروة من عرى سترته الرمادية ، ولا يطلب من السائل الا شيئا واحدا هو الا يستعمل الحد المرهف لحك القلم منبها اياه ان ثمة حدا مثلوما جعل لهـــذا الغرض . وسرعان ما استرعى هذا المسلك الحميد نظر مدرس اللاتينية الذى كان سعاله فى الدهليز خليقا بأن يلقى الرعب فى قلوب تلاميذ الفصل كله ، قبل أن تطل من الباب سترته المصنوعة من الصوف الخشن ووجهه المجدور . وقد بادر هذا المدرس المخيف ، الذى ألف ان يحتفظ دائما بحزمتين من المقارع على مكتبه ويسوق نصف تلاميذه الى الجثو على ركبهم ، فاتخذ من ايفان فيودوروفتش عريفا للفصل ، على الرغم من ان كثيرا من تلاميذ الفصل كانوا يفوقونه قدرة وكفاية .

اما وقد بلغت فى رواية القصة هذا الحد فليس يجدر بى أن اغفل حادثة اثرت فى مستقبل ايامه كلها ، فقد حاول احد الصبية الذين وكل اليه الاشراف عليهم ان يحمل العريف على احسان الشهادة فيه بالرغم من انه لم يكن قد حفظ درسه ، فأتى الى الفصل بكعكة غارقة فى الزبد ملفوفة بالورق ، وكان ايفان فيودوروفتش حريصا على اداء الواجب فى معظم الأحيان ، الا أنه كان هذه المرة جائعا ، فعجز عن مقاومة الاغراء ، واخذ الكعكة وامسك بكتاب رفعه امام وجهه وراح يأكل ، وشغل باله بهذا الأمر ، وفاته ان الفصل قد خيم عليه سكون رهيب أشبه بسكون القبور ، ولم يفق الى نفسه مروع اللب فزعا الا حينما امتدت يد من معطف من الصـــوف الخشن وأمسكت به من اذنه وجرته الى وسط الغرفة ، وقال المعلم المخيف : « الى بهـــذه الكعكة ! الى بها ، الا تسمع ؟ اعطنيها أيها الوغد ! » .

وامسك بالكعكة الفارقة فى الزبد بين أصابعه ، والقى بهـــا من النافذة ناهيا الصبية فى حزم الا يلحقوا بها سراعا يلتمسونها فى الفناء ،

ثم أخذ يضرب ايفان فيودوروفتش ضربا أليما موجعا على يديه ، وكان في ذلك محقا كل الحق ، فقد كانت اليدان دون سواهما من أعضاء جسمه المسئولتين عن أخذ الكعكة ومهما يكن من شيء فان الحياء الذى عرف به دائما أخذ يزداد ملحوظة منذ ذلك الحين ، ولعل هذا السبب نفسه هو الذى جعله لا يشعر ابدا بالرغبة في الالتحاق بخدمة الحكومة، فقد علمته الأيام أن المرء لا يفلح دائما في اخفاء مساويه .

وكان الفتى قد اشرف على الخامسة عشرة من عمره عندما انتقل الى السنة الثانية ، فترك قواعد الحساب الأربع ودرس الدين ، ودخل في المسائل المطولة وكتاب واجبات الانسان والكسور ، ولكنه رأى ، كما يقولون ، أنه كلما أوغل في الغابة ازدادت كثافة . وتلقى نبأ بأن اباه قد فارق الحياة ، فلم يبق في المدرسة الا سنتين أخريين ، ثم التحق بفرقة المشاة برضاء امه .

ولم تكن هذه الفرقة قط من الطبقة التى ينتمى اليها كثير من فرق المشاة ، وكانت تعسكر في أماكن ريفية ، الا انها لم تكن تقل قط عن كثير من فرق الفرسان . وكان معظم الضباط يشربون الكحول صرفا ، ويجيدون جر اليهود من خصلات شعرهم اجادة الفرسان لذلك ، وكان بعضهم يرقص المازوركا ايضا ، ولم يترك قائد الفرقة فرصة الا انتهزها وذكر هذه الحقيقة اذا تحدث مع أى انسان من علية القوم ، وكان يقول وهو يربت على بطنه بعد كل كلمة : « ان بعض ضباطى يرقصون المازوركا ، بل ان عدد من يرقصونها منهم لكبير ، كبيرا جدا » ، ولو شئنا أن نبين لقرائنا مبلغ ما وصلت اليه الفرقة من ثقافة لتعين علينا ان نذكر فوق ما ذكرنا أن اثنين من الضباط كانا مغرمين بلعب الورق . وقد ألفا أن يقامرا بسترتيهما الرسمية وقبعتيهما وحمالتي سيفيهما بل بملابسهما الداخلية ، وهذا أكثر ما يمكن أن تجد في فرقة من فرق الخيالة نفسها .

على ان اتصال ايفان بمثل هؤلاء الزملاء لم يخفف من حيائه ، أما وقد كان لا يشرب الكحول صرفا ، مؤثرا عليه احتساء قدح مملوء بالفودكا المألوفة قبل الغذاء والعشاء ، ولا يرقص المازوركا أو يلعب الورق ، فقد ألف بطبيعة الحال ان ينفرد بنفسه دائما ، وهكذا كان يتفق ان يخرج بقية زملائه يمتطون ظهور جياد استأجروها ويمضون

وقته في شــــئون لا تطيب الا لمثله من ذوى الخلق الرضي والنفوس لزيارة اصحاب الاراضي الصغار ، على حين يخلد ايفان الى داره وينفق الوادعة ، ويروح يصقل ازراره أو يقرأ كتابا من كتب الطوالع ، او ينصب الفخاخ للفيران في أركان غرفته أو يخلع سترته الرســـمية ويستلقي على فراشه .

زد على أنه لم يكن في الفرقة أحد اكثر مواظبة على اداء واجباته من ايفان فيودوروفتش ، وكان يحسن تدريب فصيلته حتى ان قائد سريته كان يعده دائما مثالا يود لو احتذاه بقية زملائه ، ولذلك لم يمض عليه وقت طويل ، اجل لم يمض على ترقيته الى رتبة الصول الا احد عشر عاما فقط ، حتى رقى الى رتبة الملازم الثاني .

وتلقى في هذه الأثناء انباء تقول : ان امه قد ماتت وان خالته ــ ولم يكن يعرفها الا مما سمع به من انها نشأته وهو بعد طفل ، وانها أرسلت له وهو في جادياخ الكمثرى الجافة وكعك الشهد اللذيذ الشهى الذى كانت تصنعه بنفسها (وكانت على علاقة سيئة بأمه ، وهذا هو السبب في أن ايفان فيودوروفتش لم يرها في السنوات الأخيرة) ــ أجل خالته هذه قد تعهدت ، بما جبلت عليه من طيبة النفس ، بالسهر على ضيعته، وبعثت اليه في حينه خطابا تنبئه بذلك .

ومضى ايفان فيودوروفتش في اداء واجبات وظيفته كشأنه واثقا كل الثقة بحسن ادراك خالته . ولو كان ايفان كبعض الرجال الآخرين الذين هم في مثل مركزه لأدارت عقله هذه الترقية . على انه كان لا يعرف للاختيال والزهو معنى ولا طعما ، فقد ظل في رتبة الملازم الثاني كما كان في رتبة الصول هو هو ايفان لم يتغير ولم يتبدل ، وقضى اربع سنوات أخرى في الفرقة بعد ذلك الحادث الذى كان له شأن عظيم في حياته ، وما هم بالنزوح هو وفرقته من ولاية موجيليوف الى روسيا العظمى حتى تلقى الخطاب التالي :

« ابن اختي العزيز ايفان فيودوروفتش :

اني لأبعث اليك بشيء من نسيج الكتان ، خمسة جوارب مشغولة بالابرة واربعة قمصان من الكتان الهفهاف ، ثم انى اريد ان اتحدث اليك في امر ذى بال ، اما وقد نلت رتبة لهــا شأنها ــ واني لأحسب انك تعي هذا وتدركه ــ وبلغت سنا تؤهلك الى تولى شئون مزرعتك

بنفسك ، فما من سبب يدعوك الى البقاء فى الخدمة العسكرية ، وانى لأشعر بأن السن قد تقدمت بى حتى أصبحت عاجزة عن القيام بأمر من امور مزرعتك ، ولدى والحق يقال ، امور كثيرة اود ان اتحدث بشأنها معك شخصيا .

« تعال يا فانيوشا ! وانى اذ اتطلع ببالغ السرور الى رؤيتك لأبعث اليك بخالص تحياتى ،

خالتك الودود المحبة

(فاسيليا تسوبشفسكا)

حاشية : في حديقة خضرنا لفت عجيب ، يبدو للأنظار على ما فيه من غرابة غريبة أقرب الى البطاطس منه الى اللفت .

وكتب ايفـــان فيودوروفتش الى خالته ، بعد تلقية خطابها هذا بأسبوع ، الرد التالى :

« سيدتى المحترمة الخالة العزيزة فاسيليا كاشبوروفنا : اشكرك كل الشكر على ما بعثت الى من منسوج الكتان ، فقد كان الدهر قد اكل وشرب على جواربى خاصة ، وراح الجندى المعين لخدمتى يرفوها مرة فى اثر مرة ، فما أن أتم المرة الرابعة حتى ضاقت على كل الضيق ، اما آراؤك التى ابديتها بشأن خدمتى فى الجيش فانى اوافقك عليهـا كل الموافقة ، وقد ارسلت اول امس أوراق اعفائى . وما ان اتلقى امرا باعفائى حتى ابادر باســتئجار عربة . واما ما كلفتنى اياه من الحصول على قمح من السلالة السيبيرية فقد عجزت عن اجابتك الى طلبك ، وليس فى ولاية موجيليوف كلها شىء من هذه البذور ، واما الخنازير التى هنا فكلها يتغذى على كسب مصانع الجعة وقليل من الجعة التى يفسد طعمها .

وارجو أن تقبلى يا سيدتى الجليلة والخالة العزيزة عظيم احترامى ،

ابن اختك

(ايفان شبونكا) »

وتلقى ايفان فيودوروفتش اخيرا الأمر باعفائه من خدمة الجيش برتبة الملازم ، فاستأجر يهوديا ينقله بعربته من موجيليوف الى جادياخ ونقده أربعين روبلا ، ومضى فى رحلته حين اكتست الأشجار بأوراق

قليلة غضة ، وتألق اديم الارض بالخضرة اليانعة وعبقت الحقول بعبير الربيع .

– ٢ –

الرحلة

ولم يقع خلال الرحلة شيء ذو بال ، ومضى الرجلان فى رحلتهما اياما تزيد قليلاً على اسبوعين ، وقد كان ايفان فيودوروفتش خليقا بأن يبلغ مقصوده فى زمن أقصر من ذلك قليلا ، لولا ان اليهودى كان يقيم السبت من كل اسبوع ، فيطرح على راسه غطـاء جواده ويخلد الى التعبد طوال اليوم . على ان ايفان فيودوروفتش كان ، على ما واتتنى الفرصة وذكرت من قبل ، رجلا لا يستسلم للملالة او السأم ، فاذا حل به وقت كمثل هذا الوقت ، فتح صندوق ثيابه واخرج ملابسه الداخلية وراح يفتش فيها جيدا حتى يطمئن باله الى انهاغسلتوطويت على الوجه الأكمل ، وينزع الزغب فى عناية من حلته العسكرية الجديدة التى خلت فى صنعها من الشريط المقصب يعلو كتفيها ، ثم يعود فيطوى هذا كله فى الصندوق على احسن وجه ممكن . ولم يكن صاحبنا مفرما بالقراءة ، فاذا اتفق ونظر فى كتاب من كتب الطوالع فانما يفعل ذلك لانه يريد ان يعود الى قراءة ما قراه من قبل عدة مرات،وهذا هو شأن الرجل الذى يقيم فى المدينة يذهب الى النـــادى كل يوم لا ليسمع جديدا ، بل ليلقى اصدقاء الف ان يجاذبهم اطراف الحديث منذ زمن لا تعيه الذاكرة ، وشأن الكاتب فى دواوين الحكومة يقرأ دليل العناوين عدة مرات فى اليوم مفتطبا اشد الاغتباط لا لشيء الا ما تعود عليه من قوائم الاسماء المطبوعة من تسلية ، ويغمغم بينه وبين نفسه ، قائلا : « آه ! ايفان جافريلوفتش ... الخ ! ، وها هو ذا اسمى مثبتا هنا ! وى ! وى ! » ، ثم يعود فيقرأ القائمة مرة اخرى مبديا ما سبق أن ابداه من علامات التعجب بلا خلاف .

وبلغ ايفان فيودوروفتش يوم جمعة قرية صغيرة على مسيرة مائة فيرست من جادياخ ، بعــــد أن انفق فى رحلته اسبوعين ، وكانت الشمس قد غربت منذ وقت طويل حين وصل هو واليهودى والعربة الى احد الخانات .

ولم يكن الخان يختلف فى شيء عن غيره من الخانات القروية المألوفة فى القرية ، وقد جرى ارباب هذه الخانات على اكرام المسافر اكراما لا مزيد عليه ، فيقدمون له الدريس والشوفان كأنه جواد من جياد المراحل ، فاذا اراد ان يصيب من الغذاء ما يصيب القوم من أهل الوقار والاحترام فما عليه الا ان يرد شهيته حتى يتهيأ له ذلك فى فرصة مقبلة . وكان ايفان فيودوروفتش يعلم كل هذا ، فتزود مقدما بحزمتين من حلقات الخبز وحلقة من المقانق وطلب قدحا من الفودكا التى لا يخلو منها اى خان ، وراح يتناول عشاءه فجلس على اريكة ، وضعت أمامها منضدة من السنديان ثبتت فى اديم الأرض الصلصالية تثبيتا مكينا .

وطرقت اذنيه فى هذه الأثناء قرقعة عربة ، وسمع صرير الأبواب ، ومضى وقت طويل قبل أن تدخل العربة الفناء ، وانطلق فى الجو صوت مجلجل طفق ينهر صاحبة الخان العجوز . وسمع ايفان فيودوروفتش شخصا يهتف بها قائلا : « لأدخلن خانك ، فاذا عضتنى فيه قطة واحدة فقسما بالله لأضربنك ، اجل لأضربنك ايتها الساحرة الشمطاء ! ولن أعطيك مقابل الدريس ! » .

وانفتح الباب بعد لحظة وولجه ، او قل حشر نفسه فيه حشرا ، رجل بدين يرتدى سترة رسمية خضراء ، وقد ثبت رأسه لا يريم فوق عنقه القصير الذى بدا للأنظار اغلظ وافحل بفضل ما علاه من ذقن مزدوج ، وكان مظهر الرجل يدل على انه من ذلك الطراز من الناس الذين يحفلون بتوافه الأمور والذين سارت حياتهم كلها سيرا رفيقا رضيا .

ورأى الرجل ايفـــــان فيودوروفتش فقال : « أسعد الله يومك يا سيدى ! » .

وانحنى ايفان فيودوروفتش فى صمت .

ومضى الوافد الجديد يقول : « هل لى ان أسأل من ذا الذى أتيح لى شرف التحدث اليه ؟ » .

وما أن سمع ايفان فيودوروفتش قوله حتى نهض على كره منه ووقف وقفة انتباه كشأنه اذا وجه اليه قائد الفرقة سؤالا ، وأجابه قائلا :

« الملازم المتقاعد فيودوروفتش شبونكا » .

« افلا تسمح لى بأن اسأل اى مكان تقصد ؟ » .

« مزرعتى فى فيتربنكى » .

وهتف السائل الفظ « فيتربنكى ! » ، ثم أردف وهو يتجه اليه ملوحا بذراعيه كأنما يقف فى سبيله أحد او يشق طريقه شقا فى زحمة الناس : « اسمح لى يا سيدى ، اسمح لى ! » راقبل على ايفان فيودوروفتش وطوقه بذراعيه ، ثم طبع قبلة على خده الأيمن وقبله على خده الأيسر ، ثم عاد وطبع قبلة ثالثة على خده الأيمن . وسر ايفان فيودوروفتش كثيرا بهذه التحية لان خدى الغريب الممتلئتين كانا لشفتيه كالوسادتين الناعمتين .

واسترسل الرجل البدين يقول : « اسمح لى ان اقدم نفسى يا سيدى ! فأنا جارك واحد اصحاب الأراضى فى ناحية جادياخ نفسها ، اقيم فى قرية خورتشه ، والمسافة بينها وبين فيتربنكى لا تتجاوز خمسة فيرستات ، واسمى جريجورى جريجوريفتش ستورتشينكو ، وقد حقت عليك زيارتى ، فى خورتشه ، ولن أعود الى التحدث اليك ان لم تفعل ، وانى لفى عجلة من أمرى الآن أدبر شأنا من شئون عملى » ، ثم مضى يقول فى صوت رقيق مخاطبا سائس خيوله : « وى ! ما هذا ؟ » ، وكان هذا السائس غلاما يرتدى سترة قوزاقية رتقت عند المرفقين وتبدت الحيرة على ملامحه ، ثم ولج الرجل الغرفة ووضع الحقائب والصناديق على المائدة ، واردف : « ما هذا ؟ ما معنى هذا ؟ » واخذ صوت جريجورى جريجوريفتش يزداد تهديدا ووعيدا وهو يقول : « اوقد قلت لك ان تضعها هنا ايها الغلام الطيب ؟ اوقد قلت لك أن تضعها هنا ايها الوغد ؟ أو لم اقل لك ان تسخن الدجاج اولا ايها اللئيم ؟ » ، ثم صاح وهو يدق الأرض بقدمه « اغرب عنى ! بل صبرا يا وجه القرد ! اين السلة التى وضعت فيها القنانى ؟ » ، وقال وهو يسكب قدحا من الشراب الحلو : « ايفان فيودوروفتش ! هلا تصيب شيئا من هذا الشراب المنعش ! » .

وانشأ ايفان فيودوروفتش يقول فى تردد : « آه ، لا استطيع ذلك حقا ــ فقد سبق لى أن .... » .

ورفع صاحب الارض صوته قائلا : « لن اقبل عذرا ! لن اقبل ! ولست بمغادر مكانى حتى تصيب من الشراب شيئا ! » .

ورأى ايفان فيودوروفتش ان الاعتذار من ذلك مستحيل ، فجرع القدح فى شىء من الرضا .

وقال جريجوريفتش وهو يقطع دجاجة ويضعها فى صندوق خشبى : « هذه دجاجة يا سيدى ، ولا اخفيك ان طاهيتى يافدوخا مغرمة بأن تصيب من الخمر من حين الى حين قطرة فقطرة ، فاذا وقعت على شىء فما أكثر ما يجف بين يديها » ، ثم انقلب الى الغلام الذى يرتدى السترة القوزاقية وكان يحمل فراشا ووسائد من الريش ، وهتف قائلا : « ايه يا غلام ! ابسط فراشى على الأرض فى وسط الغرفة ! ولا تنس أن تضع قدرا مليحا من القش تحت الوسادة ! وانزع قطعة من القنب من مغزل المراة اسد بها اذنى اثناء الليل ، ولا اخفيك يا سيدى اننى الفت ان اسد اذنى بالليل منذ ان وقعت لى تلك الحادثة الملعونة التى تسلل فيها صرصور الى اذنى اليسرى فى خان روسى . ان اصحاب اللحى المسترسلة لقوم تهوشت عقولهم على ما تبينت بعد ، فحتى المرق يحتسونه والصراصير تجرى فيه ! وهيهات ان اصف لك ما حل بى من هذا الصرصور ، فقد احسست فى أذنى بدغدغة ، دغدغة شديدة ، كدت افقد معها عقلى ، وقد شفتنى عجوز ساذجة من ناحيتنا ، افلا تعلم كيف فعلت هذا ؟ لقد سحرته سحرا فبرز لها ، ولم يقتض منها ذلك الا الهمس ، والهمس فحسب ، فما قولك يا سيدى فى الأطباء ؟ انى لاحسب انهم يخدعوننا ويسخرون منا ، وقد تعرف عجوز من النساء فى بعض الأحيان ما لا يعرف كل هؤلاء الأطباء عشر معشاره ! » .

« لعمرى ان ما تقول يا سيدى لهو عين الحق ، وما من ريب فى أن ثمة حالات ... » ثم أمسك ايفان كأنما عجز عن التماس الكلام المناسب .

وقد يكون لنا بعض العذر اذا ذكرنا فى هذا المقام ان ايفان لم يكن قط يميل الى كثرة الكلام ، ولعل ذلك يعود الى حياته أو رغبته فى التعبير عما يريد بأسلوب طلى شائق .

وهتف جريجوريفتش لخادمه : « هز القش جيدا ، هزه جيدا ! ان القش فى هذا الخان غاية فى الرداءة ، وليس ببعيد ان تجد فيه علوجا فى اية لحظة . اسمح لى يا سيدى بأن ارجو لك ليلة طيبة !

فاننا لن نلتقى غدا ، فقد عزمت على الرحيل قبل بزوغ الفجر ، انغدا السبت ولسوف يخلد فيه صاحبك اليهودى الى العبادة،وما من حاجة تدعوك الى الاستيقاظ مبكرا . لا تنس دعوتى ، ولن يخاطب لسانى لسانك الا اذا اتيت لزيارتى فى خورتشه » .

وما ان فرغ جريجورى جريجوريفتش من قوله حتى بادر غلامه ، فخلع سترة سيده وحذاءه المرتفع والبسه منامته ، وتمدد جريجورى جريجوريفتش على فراشه فبدا كفراش ضخم من الريش ألقى به على فراش آخر .

« ايه يا غلام ! اين انت ايها الوغـد ؟ تعال هنـا ورتب لحافى ايه يا غلام ! ضع شيئا من القش تحت راسى حتى يرتفع ! أو سقيت الجياد أو لم تسقها بعد ؟ زدنى قشا ! هنا ، تحت هذا الجانب ! ورتب اللحاف جيدا ايها الوغد ! احسنت وأكثر من هذا ، اف ! » .

وتنهد جريجورى جريجوريفتش مرتين ثم أطلق من انفه صفيرا مزعجا ملأ أرجاء الغرفة ، وكان فى بعض الأحيان يغط غطيطا عاليا تستيقظ له العجوز فجاة من غفوتها على اريكة الموقد ، ثم تحملق حولها فى دهشة ، فلا ترى شيئا ، فيهدأ بالها ثم تستسلم للنوم مرة اخرى .

واستيقظ ايفان فيودوروفتش فى صبيحة اليوم التالى ، فوجد صاحب الأرض البدين قد رحل ، وكان هذا الحادث هو الحـادث الوحيد الجدير بالذكر فيما وقع لبطل قصتنا أثناء رحلته . واقترب ايفان بعد يومين من مزرعته الصغيرة .

واحس بقلبه يجيش عندما أطلت عليه الطاحونة ملوحة بأذرعها ، وراح اليهودى يسوق جياده الهرمة مصعدا فى التل ، ولاح لعين‌ايفان ذلك الصف من شجر الدلب يربض تحت الطاحونة ، وتألقت البركة تألقا من خلال الاشجار ، وهب منها نسيم عليل ، وهنالك الف ايفان ان يستحم فى سابق ايامه ويخوض فيها مع أولاد الفلاحين حتى يبلغ الماء عنقه سعيا وراء الاربيان (الجمبرى) ، وارتقت العـربة الجسر فرأى ايفان فيودوروفتش البيت العتيق الصغير المسقف بالقصب، واشجار التفاح والكرز التى كان يتسلقها خفية ، وما ان دخل‌بالعربة الفناء حتى هرعت الكلاب من كل حدب وصوب على اختلاف الوانها

من عسلى الى اسود ورمادى ومنقط ، وجرى بعضها تحت حوافر الجواد ينبح ، وجرى بعضها الآخر خلف العربة بعد ان اكتشفت ان الدنجل قد لطخ بدهن الخنزير . وكان واحد من الكلاب يقف بالقرب من المطبخ واضعا قدمه على قطعة من العظم فاطلق نباحا متصلا مدويا ، واخرج كلب آخر لسانه عن بعد ، وراح يركض هنا وهناك ، ويهز ذيله كأنه يقول : « انظروا ايها المسيحيون الصالحون! اى فتى ظريف انا ! » ، واسرع صبية يرتدون القمصان القذرة يتفرسون فى وجوه القادمين ، وكان بالفناء خنزيرة تتجول هى وصغارها الستة عشر ، فرفعت خطمها فى فضول ، واخذت تقبع قباعا اعلى مما الفت ، وفرش على اديم الفناء عدد من الملاءات المصنوعة من القنب تغطت بالقمح والاذرة والشعير تجفف فى الشمس ،وبسطت فوق السقف انواع مختلفة كثيرة من الاعشاب ، كالشكوريا البرية وحشيشة الخنزير ، حتى تجف .

وشغل بال ايفان فيودوروفتش بالتامل فى هذا كله ، ولم يفق من سباته الا عندما عض كلب ارقط اليهودى فى بطن ساقه وهو يترجل عن مقعده فى العربة ، وهرعت الخادمات ، ونعنى بهن الطاهية وامراة اخرى وفتاتين كانتا ترتديان نقبتين مصنوعتين من الصوف ، وهتفن : « وى ! انه سيدنا الصغير ! » ، ثم رحن يحدثنه قائلات : ان خالته تبذر بذور الحنطة الحلوة هى والفتاة بالاشكا واوميلكو الحوذى الذى كان يعمل فى كثير من الأحيان عمل البستانى والحارس جميعا » على ان خالته اقبلت اذ رات العربة عن بعد ، وانتاب الذهول ايفان فيودوروفتش حين رفعته خالته عن الارض بين ذراعيها أو كادت ، وعز عليه أن يصدق انها هى الخالة التى كتبت له متحدثة عن شيخوختها واسقامها .

ـ ٣ ـ

الخالة العزيزة

كانت الخالة فاسيليا كاشبوروفنا قد بلغت فى ذلك الوقت الخمسين من عمرها او كادت ، ولم يسبق لها زواج قط ، فقد

جرت على القول بأن العذرية عندها فوق كل شيء آخر . على اننى اذكر حقا انه لم يغازلها احد ، ذلك انه ما من رجل الا احس فى حضرتها بشيء من الحياء ، ولم يجد واحد منهم من الشجاعة ما يحمله على ان يطلب يدها ، وقد اجمع الشبان كافة على القول : « بان فاسيليا كاشبوروفنا فتاة على خلق عظيم ! » وكانوا فى ذلك صادقين اعظم الصدق ، فما من احد الا وقع فى قبضة يدها ، ولا ادل على ذلك من انها ظلت تجذب كل يوم بيديهـــا اللتين تشبهان أيدى الرجال قنزعة صاحب الطاحونة السكير ، حتى استطاعت ان تجعل من هذا الشخص التافه رجلا جم الفضائل كامل الصفات . وقد رزقت هذه الخالة بسطة فى الجسم فبدت كالعمالقة او هى اقرب ، وكانت بدانتها وقوتها تناسبان كل المناسبة قوامها الفارع ، ويظهر ان القدر أخطـــأ خطأ جسيما اذ كتب عليها ان ترتدى رداء بنيا داكنا قصير الأهداب فى ايام الراحة ، وشالا من الكشمير الأحمر فى احد الفصح وفى عيـــد شفيعها .

وقد كان اولى بها وانسب ان تصطنع شاربا كشارب التنين وحذاء مرتفعا كاحذية الرجال ، ثم ان مشاغلها كانت تتفق مع مظهرها تمام الاتفاق ، فقد كانت تتولى التجديف فى القارب بنفسها ، وتجيده اجادة تزرى باى صياد ، وتصيد الطيور والوحوش ، وتشرف على عمال الحصاد فى اثناء ادائهم عملهم ، وتعرف عــدد البطيخ الذى فى حديقة خضرها ، وتأخذ اتاوة قدرها خمسة كوبيكات عن كل عربة تجتاز جسرها ، وتتسلق الأشجار وتهزها لتسقط ثمار الكمثرى ، وتضرب العمال الكسالى بيدها المخيفة ، وتمد هذه اليد المرعبة نفسها بقدح من الفودكا لمن يستحقونه .

وكانت فى هذه اللحظة نفسها تقريبا تنهر العمال وتصبغ قطـــع النسيج وتهرع الى المطبخ لصنع الجعة الخفيفة والمربى بالشهد . اجل لقد كانت مشغولة اليوم بطوله ، وافلحت فى ان يتم انجاز كل امر فى موعده ، وكانمن اثر عملها هذا ان مزرعة ايفان فيودوروفتش الصغيرة التى كانت تضم ثمانى عشر نفسا بحسب التعداد الأخير ، قد ازدهرت ازدهارا لا مزيد عليه ، ثم انها كانت تحب ابن أختها حبا جما ، وراحت تجمع له المال فى حرص وعناية .